# لعبة الأمم

# لعبة الأمم

الحرية للنشر والتوزيع
٢ ميدان عرابي - وسط البلد - القاهرة
+2 02 574 56 79 - +2 012 38 77 921

| | | |
|---|---|---|
| اسـم الكتاب | | مفتاح السر الثقة بالنفس |
| المؤلـف | | |
| ترجمة وإعداد | | إيهاب كمال |
| الناشـر | | الحرية للنشر والتوزيع |
| الترقيم الدولى | | 977-5832-51-9 |
| رقـم الإيداع | | ١١٩٧٥/ ٢٠١١ |

# مقدمة

**الهيمنة الأمريكية، صياغة متجددة:**

بعيد الاحتلال الأمريكي للعراق تعالت الأصوات القائلة بأن ما حصل كـــان مخططاً صهيونياً نفذته أياد أمريكية وبريطانية، وبعيد مبادرة الرئيس الأمريكي جـــورج بوش حول " الشرق الأوسط الكبير " تسارعت الاجتهادات القائلة بأنها صورة أمريكية لتمرير مشروع شيمون بيريز عن " الشرق الأوسط الجديـــد " وعـــادت الى الواجهـــة المبالغات حول دور إسرائيل واللوبي الصهيوني في رسم الـــسياسة الأمريكيـــة الـــشرق أوسطية، وصلت عند بعض المحللين السياسيين إلى إحياء نظرية المؤامرة واعتبار الولايات المتحدة الأمريكية بكل جبروتها، مجرد أداة طيعة بيد إسرائيل، تسخرها كيفمـــا تـــشاء لتنفيذ مشروعها الصهيوني!!.

فهل ثمة جديد في الاستراتيجية الأمريكية ؟! وما صـــحة القـــول أن سياســـة واشنطن الشرق أوسطية تصنع في تل أبيب؟! ثم الى أي مدى يصح القول بانحسار دور إسرائيل أمام الحضور العسكري الأمريكي المباشر؟! وهل ما نشهده من توغل إسرائيلي في الوضع الفلسطيني وشهية مفتوحة على القتل والتدمير هو بمثابة تعويض عن ذلـــك، شريطة اطلاع واشنطن مسبقاً على النوايا والخطط المبيتة، بدليل قلق كونداليزا رايـــس لأنها لم تحط علماً بحادثة اغتيال الشيخ أحمد ياسين؟!.

إن العلاقة بين أمريكا وإسرائيل لم تكن في يوم من الأيام سوى علاقة تكامل أو لنقل تناغم بين دورين في خدمة مصالح وأهداف واحدة، فأي تقدم أمريكي في المنطقة، عسكرياً كان أم سياسياً، يصب الماء في طاحونة إسرائيل ويعزز تفوقها النـــوعي علـــى خصومها القائمين والمحتملين والعكس صحيح.

وإذا كان ثمة دور يلعبه اللوبي الصهيوني في التأثير بالسياسة الأمريكية الـــشرق أوسطية، فمن الخطأ والخطر في آن معاً معايرة الوزن الإسرائيلي بـــأكثر ممـــا يـــستحق وتجاهل قوة المصالح الاستراتيجية الأمريكية الخاصة كـــدافع حقيقـــي وراء سياســـاتها للسيطرة على أغنى بقعة نفطية في العالم.

وبالتالي من الوهم الاعتقاد بأن أمريكا غير قادرة على فرض ارادتها أو عـــاجزة عن إخضاع السياسات الإسرائيلية لاملاءاتها عندما تتطلب مصالحها، ولنتذكر الـــضغط الذي مارسته لإكراه إسرائيل على توقيع غير اتفاقية من " اتفاقيات السلام " مع أنظمـــة عربية، أو إهمالها الاعتراضات الإسرائيلية على صفقات أسلحة متطورة عقدت مع مصر والكويت والسعودية، وأيضاً لا يزال حاضراً في الذاكرة، ما حدث عام /١٩٩٢/ حين رفض جورج بوش، الأب، إعطاء إسرائيل ضمانات قروض إلا بعد إذعانها لاشـــتراطاته السياسية وما ترتب على ذلك من انعكاسات على التركيبة السياسية داخل إســـرائيل، وعلى نتائج انتخابات الكنيست التي تلت ذلك.

بالمقابل من الوهم اعتبار شارون، أو غيره من قادة إســـرائيل، قـــادر بطيـــشه ورعونته، أن يسرح ويمرح على هواه وأن يمارس سياسات خاصة قد تنعكس سلباً على المصالح الأمريكية. مثل هذه الحقيقة ترتكز إلى عوامل موضوعية، تبرهن شـــدة ارتهـــان

الدولة الصهيونية للولايات المتحدة الأمريكية، اقتصادياً وعسكرياً، فأمريكا تزود إسرائيل بنحو ثلثي الأسلحة المتطورة التي تحتاجها، كما بمعظم مستلزماتها من الصناعات المدنيـــة والعسكرية، ووفق اتفاق التعاون الاستراتيجي الذي وقعه شارون بنفسه عـــام /١٩٨١/ واتفاقية التبادل التجاري الحر /١٩٨٢/ واتفاقيتي الدفاع والتجـــارة /١٩٨٥/، أصـــبح الاقتصاد الإسرائيلي جزءاً شبه عضوي من الاقتصاد الأمريكي، وأضحت المـــساعدات الأمريكية لإسرائيل جزءاً من مصروفات وزارة الدفاع الأمريكية، أهمها مساعدة نقديـــة دورية تتجاوز أربعة مليار دولار سنوياً....فإلام تهدف هذه المـــساعدات ؟! ألـــيس في اعتماد إسرائيل الواسع عليها هو موت موضوعي لقرارها السياسي المستقل لتغـــدو في الحسابات الاستراتيجية الأمريكية أداة طيعة وتحت السيطرة تماما بـــل ســـلاحاً ناجعـــاً وجاهزاً، عند الضرورة، لإجهاض أو تثبيط أي تطور أو تحول يمكن أن يهدد اســـتقرار المصالح الأمريكية في المنطقة؟!.

إن الحجم الهائل من المساعدات الأمريكية، الاقتصادية والعسكرية لإســـرائيل يشير، بصورة جلية، إلى مدى تبعية الكيان الصهيوني والتحاقه بالولايات المتحدة التحاق الحاجة الى الحياة والاستمرار، وتالياً إلى استحالة الخلاص والانفكاك منـــها في المـــدى المنظور، بما يعني صعوبة إن لم نقل استحالة، أن تغرد الحكومات الإسرائيلية بكل أشكالها وألوان تطرفها، خارج السرب الأمريكي، أو تقدر على اتخاذ قرارات لا تتفق مع مصالح المانح والشريك الأكبر، فالسياسة الأمريكية هي المقررة في نهاية المطاف، وتـــستطيع في اللحظة الحرجة، فرض ما تريد ولجم أي اندفاعة إسرائيلية تخالفها مهما بدت جـــادة أو صاخبة.

لكن ما سبق لا يتنافى أبداً مع أهمية اللوبي الصهيوني وقدرته في لحظات معينة، على التأثير في السياسات الأمريكية الشرق أوسطية وتوسيع زاوية انحيازهـــا لمـــصلحة

إسرائيل. فالحق يقال، أن اليهود، هم أكثر الأقليات الأمريكية تنظيماً، علـــى صـــعيد المؤسسات والفعل الجماعي الملموس، ويعدون بمعايير الفعل والنفوذ، قوة ذات تأثير نسبي على القرارات السياسية الأمريكية المتعلقة بالشرق الأوسط، لما يملكونه من مصادر للقوة الاقتصادية، ومن شبكة تنظيمية واسعة وبالغة الكفاءة، سياسياً وإعلامياً، نجحت عـــبر ضغطها الدائم على الإدارات الأمريكية المتعاقبة في تعزيز دعم واشنطن لإسرائيل علـــى كافة الصعد، مرة عبر علاقاتها الوطيدة مع بعض المسؤولين الأمريكيين، ومرة تحسباً من امكاناتها في توجيه الرأي العام الأمريكي بما يتعارض مع حسابات النخـــب الـــسياسية خلال عملية تجديد مناصبها، الى جانب الكثير من المساعدات العـــسكرية والمعونـــات المادية التي استجرت لإسرائيل تعويضاً لها عن ما سمي تنازلاً للشروط الأمريكية!!.

ويبقى الهاجس الرئيس لأية إدارة أمريكية هو ضمان استقرار مصالحها وتطوير سياسة تحمي هذه المصالح وتنمّيها، سياسة اتجهت في ظروف الحرب الباردة نحو دعـــم الحلفاء والوسطاء المحليين في مواجهة المد الشيوعي ولضمان استقرار المصالح الغربيـــة في المنطقة لكن يبدو أن سياسة أمريكية جديدة في الشرق الأوسط بدأت تتبلور بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وهجمات / ١١ / أيلول / ٢٠٠١ / أقدر على التعاطي مـــع أزماتـــه وملاحقة إيقاع مشكلاته المتنوعة، جوهرها الاستعاضة عن سياسة الـــوكلاء بحـــضور مباشر،عسكري وسياسي، تكلل باحتلال أفغانستان والعراق على التـــوالي، وبإصـــرار لافت على التفرد في قيادة استراتيجية مواجهة الإرهـــاب والحـــرب علـــى الأصـــولية الإسلامية، لتظهر واشنطن اليوم كأنها " جوبيتر " تشهر بيدها قوة أســـطورية مفرطـــة وتتنطح بجسدها لإدارة الصراع العالمي وأزماته. ومن هنا يمكن القول وأياً تكن الأهميـــة الاستراتيجية التي كسبتها إسرائيل إبان الحرب الباردة بأن وزنها بدأ يتراجـــع بـــشكل ملموس وتنحسر الحاجة الى دورها التاريخي في المنطقة ولعل واحد من تجليـــات هـــذه الحقيقة سيناريو الحربين الأمريكيتين على العراق وإصرار واشنطن على إخراج إســـرائيل

من التراع وإجبارها على البقاء بعيداً عن الصورة تماماً، دون أن يعني عدم اللجوء إليهـا عند الحاجة واستخدامها عصا غليظة لتأديب أي جديد سياسي يمكن أن يحمل اعتراضاً على المستقبل الأمريكي للمنطقة، كما في لبنان وضد سورية.

ثمة عنصر آخر ذو قيمة استراتيجية في جديد السياسة الأمريكية يمكن وصـفه بالسعي لبناء علاقات سيطرة بعيدة المدى على بلدان المنطقة تتجاوز ما درجـت عليـه العادة من تدابير سياسية ظرفية أو تفاهمات مؤقتة مع الحكام أياً كان نوعهم وأياً كـان شكل الحكم القائم ونمط المجتمع الذي يحكم، لمواجهة خطر داهم كالنفوذ الشيوعي أو التطرف والإرهاب. فالتدابير القديمة تترك الأوضاع عرضة للقلاقل والانتكـاس تبعـاً لدرجة ثبات النخب الحاكمة واحتمالات تطور حسابات المصالح، مما شـجع صـناع السياسة الأمريكيين على إشهار سياسة من نوع آخر تتطلع الى تغيير البنى المجتمعية ككل والسعي لخلق مجتمعات جديدة تستند الى علاقات مؤسسية أكثر استقراراً ونمط حيـاة وفق قيم النموذج الليبرالي الأمريكي ومعاييره، هو أقل قابلية للارتداد والارتكاس، الأمر الذي يساعد واشنطن من زاوية أخرى على إنجاح حملتها المحمومـة ضـد الإرهـاب والأصولية الإسلامية وفق اعتبار يقول أن الديمقراطية هي أفضل المناخات المساعدة على تخفيف منابع الإرهاب وسحب البساط من تحت أقدام قوى التعصب والتطـرف، وأن تنمية المنطقة اقتصادياً وتعليمياً ودعم الحريات السياسية فيها يمكن أن يخفـف إلى حـد كبير من عداء المجتمعات العربية لأمريكا ومن نمو ردود أفعال حادة وعنيفـة ضـدها، ناهيك عن دور مناخات الديمقراطية برأي أصحاب البيت الأبيض في استتباب الاستقرار والآمن العالميين نظراً لأن الانفتاح والتعددية السياسية يوفران شرطاً جديداً ينـأى عـن استخدام العنف في تسوية التراعات الدولية ويمكن أن يخفـف مـن صـور الكراهيـة والضغائن في النفوس ويخلق أيضاً آليات لمحاسبة القيادات السياسية عما تقوم بـه مـن أعمال أمام شعوبها فيقيد حركتها الى حد كبير ويلجم اندفاعاتها العدوانية الخارجية.

إذاً فالأهداف الاستراتيجية والمصالح الحيوية الأمريكية تقتضي اليوم الجمع بين الحضور العسكري المباشر في حروب هجومية ودفاعية وأيضاً استباقية مع مساعي تبدو جدية لتغيير النظم والشعوب في آن معاً، ويبدو أن أمريكا لا تريد أن ترتـــدي لبـــاس المصالح الأنانية، فلجأت الى التبطين والتستر خلف هدف نبيل كنـــشر الديمقراطيـــة أو رسالة سامية كتنمية حقوق الانسان في محاولة لمغازلة توق الناس الى الحرية وتسويغ أي دور يمكن أن تضطر اليه لردع ما يمكن أن يهدد هيمنتها أو يخدش نفوذها خصوصاً ضد نمو مستوى من الاستقلالية المناطقية أو الإقليمية للسيطرة على الثروة النفطية.

وجديد السياسة الأمريكية هو نتيجة طبيعية لما صارت اليه الولايات المتحدة من قوة عسكرية واقتصادية تتعاظم وتتوسع كل يوم مما يمنحه ديمومة ودينامية تتجاوز إرادة رئيس ما أو إدارة بعينها كما لا ترقمن كما يرى الكثيرون لفكر المحـــافظين الجـــدد أو المتنفذين في البيت الأبيض، ولعل من يندفع الى تقسيم شـــائع وســـاذج لإدارة البيـــت الأبيض الى صقور وحمائم، محافظين أو غير محافظين، أو من يراهن على حـــصول تغـــير نوعي في اتجاهات السياسة الأمريكية إن هزم بوش وانتصر كيري يجهل حقيقة تـــشابك مصالح النخب الأمريكية ومدى النضج الذي استدعى موضوعياً هذا الشكل الجديد من إدارة الصراع العالمي، ومثله أخطىء من ظن أن الحرب على العراق شنت من أجل الثروة وحدها أو نزولاً عند رغبة اليمين المحافظ أو ضغط اللوبي الصهيوني أو لغرض التـــهرب من استحقاقات السياسية الداخلية وأغفل غايتها الرئيسة في دعم تفرد واشنطن في الهيمنة على العالم والسيطرة على عملية تدفق النفط الى الأسواق العالمية للـــتحكم اســـتراتيجياً بمستهلكيه من دول أوروبا واليابان، ومن القناة نفسها يمكن النظر الى مشاريع إصـــلاح النظم والمجتمعات العربية والى المثابرة على تقليم أظافر بعض الأنظمة وتخفيض ترساناتها كإثارة موضوع أسلحة الدمار الشامل في إيران وسورية، فـــضلاً عـــن الاســـتمرار في

تكريس تفوق الكيان الصهيوني وحال الاختلال في توازن القوى العــربي الإســرائيلي المتدهور أصلا.

وتكتمل اللوحة بحاجة أمنية تقتضي تحرير أمريكا من أي التزام لتغدو غير مقيدة لا بالشرائع الدولية ولا بمواقف أي من حلفائها كي تدير بمفردها مركزاً عالمياً للــشرطة تخضع له كل بقاع الأرض يمكّنها من إكمال هيمنة ما انفكت ناقصة على العالم، طالما لم تنجح في هزيمة الإرهاب بعد، ولا في إرساء حكومات صديقة مستقرة أو إعــادة بنــاء الأمم والدول على صورتها ومثالها، أو تحجيم الشركاء في أوربا والصين واليابان وروسيا واستبعاد أدوارهم التنافسية الى مسافة آمنة!!.

إن السلوك الأمريكي المتفرد المقترن بقوة مفرطة هو سمة العالم اليــوم، يطلــق جبروته استمرار ضعف الآخر وتفككه، وما تعيشه اليوم منطقتنا ليس قدرها بل واقــع طارىء تصنعه أطماع الفاسدين ومناخات الاستبداد وترعاه توازنات قــوى لم نــسع بإنساننا الحر إلى تعديلها أو تغييرها.

***

# تطور الفكر السياسي

**١) السلطة المطلقة:**

كانت فكرة "السيادة" التى احتلت حيزا مهما فى تفكير مكيافللي هى التى اهتم بها عدد كبير من المفكرين السياسيين الذى جاؤوا بعده، وكانـــت موضـــع تحليلـــهم ودراستهم؛ ويأتى على رأس هؤلاء المحامى "جان بودان" (١٥٣٠-١٥٩٦م)، حيـــث ضمن أفكاره السياسية كتابه المسمى "عن الجمهورية" Deta republique الـــذى نشره عام ١٥٧٦م مقدما قيام النظرية السياسية على قواعد تاريخية، وعلـــى ملاحظـــة الواقع ودراسة المؤسسات السياسية والقانونية، وذلك ضمن نطاق ما يطرأ عليهـــا مـــن تطورات وظروف، وعلى أساس تاريخى مقارن. وتبرز قيمة بودان لما كـــان لطريقتـــه التحليلية من تأثير على هوبز — الذى سنعرض له فيما بعد — حيث إنه تبناها فى دراسته السياسية. ويعتبر جان بودان أنه سبق إلى البحث التاريخى المقارن الذى انتهجه واعتمده مونتسكيو فى "روح الشرائع" فيما بعد.

ولابد من التنبيه بأن جان بودان كان من أكبر المناصرين للحكم الملكى المطلق. ويعلل ذلك بأن الدولة التى تتبع النظام الديمقراطي تكون عرضة للثورات على الـــدوام، ولكنه — بأى حال — لم ينكر إمكان قيام الدولة على اساس الحكم المختلط. وعلى هذا لم يؤيد الحريات الفردية ولا يأخذ بالعقد الاجتماعى إطلاقاً. وبوجه نظـــره أن ميـــزة المواطن هى خضوعه المطلق لسيادة الدولة، وميزة الدولة هى وجود السلطة الـــسياسية العليا فيها. وتظل الدولة رغم هذا مقيدة بالموجبات الأخلاقية المنبثقـــة عـــن القـــوانين الطبيعية والإلهية.

ولكن ما يثير انتباهنا فى تفكير بودان هو اعتباره ضـــرورة انــسجام التنظـــيم السياسى وشكل الحكومة ونوعية القوانين مع طبيعة الشعب وظروف حياتـــه المكانيـــة والجغرافية.

وبالرغم من ذلك نجد أن بودان ينبه إلى المشاكل الاجتماعية والسياسية الـــتى يؤدى إليها التفاوت فى الثروات، وفى الوقت نفسه يعارض تدخل الدولـــة فى الملكيـــة الخاصة والنشاط الاقتصادى الفردى.

**(٢) العقد السياسى والعقد الاجتماعى:**

ولكن ألتو سياس يرى أنه لا يمكن أن يوجد عقد اجتماعى دون وجود عقـــد سياسى، كما أن العقد السياسى لا يقوم دون العقد الاجتماعى، ذلك أن كلا العقدين فى حاجة إلى الآخر، من مجتمع إلا ولا بد أن يكون له قانونان اساسيان: أولهما — هـــو نتيجة العقد السياسى بين السلطة الحاكمة والمواطنين، حيث يحـــدد العلاقـــات بينـــها وينظمها، ويوضح حقوق ومسئوليات كل منهما تجاه الآخر. أما القانون الثـــانى فهـــو يعكس العقد الاجتماعى، وبموجبه يتعايش الأفراد معا فى المجتمـــع، حيـــث يتحملـــون الواجبات ويتمتعون بالحقوق تجاه بعضهم البعض.

ونجد ارتباطا بين هذه النظرية ونظرية فرعية كان لها دستور مهم استأنست به أنظمة الدول المركبة. لقد اعتبر ألتو سياس أن مجتمع الدولة لا يتكـــون مـــن الأفـــراد فحسب، بل من المقاطعات ايضاً، وأنه إذا انضمت المقاطعة إلى الدولة فإن ذلك لا يعنى أنها تنازلت عن جميع حقوقها للدولة الأم، بل يعنى فقط افتقادها بعض الحقـــوق الـــتى تتعارض مع تحقيق غرض انضمامها إلى الدولة، أو الغاية من قيام هذه الدولة.

ونجد أن ألتو سياس قد ربط فكرة السيادة بالدولة، إذ أن المجتمع بدون دولـــة يخلو من السياسة، والسيادة إنما مصدرها الرئيسى هو الشعب، فإذا ما تخلى عنها الشعب

فإنها تزول وتزول مع زوالها الدولة. والسلطة التى تمارس هذه السيادة إنما تمارسها باسم قانون الدولة نتيجة العقد السياسى.

**(٢) إعادة النظر فى القانون الطبيعى:**

ويذهب جروشس (١٥٨٣-١٦٤٥م) فى دراسته مصادر القـــانون الطبيعـــى ومقوماته إلى تعريف تعميمى، معتبرا أن القانون الطبيعى هو ما يمليه العقل وينسجم مع القيم الأخلاقية. وهو بذلك يكون مصدراً للقانون الوضعى. ولا نجد جروشس يكتفـــى بنظرية العقد فى قيام المجتمع ونشأة الدولة، بل يضيف إلى ذلك الدافع، وهو المـــصلحة المشتركة بين الأفراد. ويربط جروشس السيادة بالشعب، معتبرا أن الشعب هو من يملك حق نظام الحكم الذى يرتضيه. وإذا لم يمارس الشعب هذا الحق فليس له أن يرجع عنـــه بعد ذلك ولا يملك حق تغييره.

(٤) اللوياثان والبهيموث:

اللوياثان Le Vithan هو تمساح هائل متسلط على جميع الوحوش البحرية. ونجد أن العهد القديم قد اشار إليه، حيث ذكر أن بعض الوحوش البحرية قد تطلـــع إلى اغتصاب سلطته، لكن قوة ذلك التمساح حالت دون تحقيق ذلك. وجاء توماس هـــوبز (١٥٨٨-١٦٧٩م) واستعار اسم اللوياثان ليتخذه عنوانا لكتابه الذى نجد فيه جوانـــب من تفكيره السياسى، وخاصة نظريته فى السيادة. ونجد ان بعض من تناول فكـــر هبـــز السياسى ودرسوا هوبز(ومنهم وتكتر) يرون أن هوبز إنما أراد من اللوياثان أن يظهر "أن الطموح المتعجرف هدام، فضلا عن اصطدامه بالواقع. وأن البشر العقلاء — على هـــذا الأساس — يتناورون. وقد وعوا ليس حاجتهم إلى الحماية لأن يحكموا من دولة تكـــون على نمط اللوياثان صلدة منبثقة تغدو محاولة تقويضها ضربا من الجنون". فى حين يـــرى آخرون أن هوبز قد أراد أن يمثل الدولة باللوياثان يرهبها الأفـــراد ولا يحترمونهـــا، وإذا كانوا قد ارتضوا بها وسكتوا عن وجودها، فما ذلك إلا لتأمين منفعتـــهم الشخـــصية

ومصالحهم التى يسعون إلى تحقيقها. وعلى هذا فإن المجتمع بنظر هوبز — انطلاقا من هذا المبدأ — هو عبارة عن كيان مصطنع أوجده الأفراد حتى يتمكنوا من تحقيق منفعة تفوق نفع العيش الفطرى الطبيعى، وذلك على أساس ان فى المجتمع يـــتم تبـــادل الخـــدمات والأفراد. ومن هنا كان منطلق تفكير هوبز الفردى.

ونجد أن هوبز قد استعار تسمية وحش بحرى آخر هو "البهيموث" ليطلقه على البرلمان المعمر الذى عايشه كروموبل ثم قام بإزالته، وهو البرلمان الذى أصبح قوة مستقلة بموافقة الملك على قانون عدم حله، الأمر الذى أدى إلى تجزئة السيادة، وبالتالى القـــضاء عليها.

ويرى هوبز أنه نظرا لكون الإنسان يغر اجتماعى بفطرته، فينبغى أن تكـــون الدولة واقعة تحت سيطرة حكومة متسلطة تكبح جموح الإنسان وأطماعه، ولابد — فى أية دولة — أن تتركز السلطة فى ايدى السلطان السيد. وليس من الـــلازم أن يكـــون صاحب السلطة ملكا، بل يمكن أن يكون مجلسا أو هيئة لها قرار واحد. وقد اعتـــبر — انطلاقا من اعتقاده بالعدالة الأصلية فى القانون — أن القوانين التى تصدرها الـــسلطة لا يمكن أن تبتعد عن العدالة.

ومن الواجب ذكره هنا أن هوبز قد تجنب — وهو يعتمد المنهج الاستقرائى فى منهجه — اعتماد المقاييس والمعايير الوطنية أو الأخلاقية أو الدينية فى استخراج قواعده، وذلك خشية منه أن يدخل فى معترك التنازع الأيديولوجى الذى كان يـــصطرع فيـــه التفكير السياسى فى إنجلترا فى زمنه. وعلى ذلك كان من الضرورى لهوبز — الذى كان فى الوقت نفسه معجبا بمعاصره الدكتور ومليم هارفي مكتشف الدورة الدمويـــة — أن يرسى مقاييسه على الميول البيولوجية والنفسية، على اعتبار أن العضو الذى يتحكم بحياة ورغبات الإنسان هو القلب. ومن هنا نلمس أثر تفاعل دراســـة العلـــوم الاجتماعيـــة والإنسانية مع الثورة المنهجية التى حدثت فى دراسة العلوم الطبيعية وعكوف الفلاســـفة

على دراسة القوانين الطبيعية الإنسانية — فردية واجتماعية — على اسس معطيات دراسة أنظمة القوانين الطبيعية التى كشفتها أبحاث كوبر نيكوس (١٤٢٨-١٥٤٣م) وغاليلــه (١٥١٤-١٦٤٢م)، ونيوتن (١٦٤٢-١٧٢٧م) وغيرهم.

ومما يجدر بنا ذكره أن هوبز يبرز سيادة القوة، حيث إنه يتبنى نظرية العقــد، فالدولة كالمجتمع نتيجة عقد مبرم بين المواطنين، يتنازلون بموجبه عن بعض حقــوقهم، ويخضعون لسلطة حكم هى بمثابة الشخص الثالث ليس طرفا بالعقد.

ولم يهتم هوبز بكون الدولة ذات الــسيادة تتخــذ شــكل الديمقراطيــة أو الأوليجاركية أو الملكية المقيدة، ما دامت تؤكد سيادتها بالــدول الأخــرى، وتحــتفظ بسلطتها بالنسبة إلى مواطنيها.

**(٥) الطور الطبيعى وحقوق الإنسان الطبيعية:**

إذا دققنا النظر فى تفكير جان لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) نجده قد اتسم — كما اتسم تفكير هوبز — بروح الفردية، فهو يرى أن المجتمع ما نشأ إلا لحمايــة الحقــوق الطبيعية للفرد والمصالح الشخصية التى بررت وجود المجتمع.

وقد اعتبر لوك أن بالقانون تتكرس مصلحة الفرد، وبواسطته تحمــى حقــوق الملكية الخاصة والحريات الشخصية، والقانون يقتضى أن تمنع الدولة من التعرض لهــذه الحقوق.

والدولة هى نتيجة "الإيجاب consent" الذى هو بمثابة عقد. وهذا العقد هو الذى يؤدي إلى قيام السلطة التى لا تنشأ إلا بإيجاب المــواطنين. والهيئتــان التــشريعية والتنفيذية هما اللتان تتوليان حماية الملكية والحريات. أما غير ذلك من حقوق الإنــسان الطبيعية فإنما يبنى على تنازل الفرد عنها للسلطة، ويبرر هذا التنازل ضمان تكريس هذه الحماية واستمرارها دون تعرض، وهذا ما يطلق عليه العقد الأول The Original

Compact، وهو الذى أدى إلى تكوين الافراد للمجتمع الذى مثل الشخصية المعنوية التى فضل لها التنازل، ذلك أنه يقتضى أن يكون المتنازل له كيان حتى يكـــون قانونيـــا. وينشأ إلزام الفرد بالخضوع لرأى الأغلبية بفضل هذا العقد.

وتعتبر السلطة التشريعية أعلى سلطة فى الحكومة. ولكن لجهة القـــوانين الـــتى تتقيد بها السلطتان التشريعية والتنفيذية يعتبر لوك أن للسلطة التنفيذية الحق فى الاشتراك فى سنها.

وعندما تفقد الهيئة التى تتولى السلطة التشريعية الثقة التى منحت لهان فإن لوك يخول للمجتمع حق تغيير هذه الهيئة ونجده يربط زوال الحكومة بتلك الثقـــة الممنوحـــة للهيئة التشريعية. أما السلطة التنفيذية فهى مسئولية تجاه السلطة التشريعية.

وتبعا لذلك فإن محور فلسفة لوك السياسية هو أن الحكومة — بمن فيها الملـــك والبرلمان — تكون مسئولة مسئولية كاملة تجاه الشعب، وسلطتها مقيدة بالتزام واجباتهـــا والتقاليد الدستورية والتعهدات التاريخية.

ذلك هو ما أمكن عرضه من نظريات لوك السياسة فى الحكم، وهى — كمـــا يرى بيترز — عبارة عن "خيوط مفككة جميعها من مصادر متنوعة، وحاكهـــا حـــول مجموعة من المطالب السياسية التى كانـــت تتفـــاقم فى وجـــه نـــوازع آل ســـتيورات الأتوقراطية. واكتسبت نظرياته هذه تلك الشهرة الواسعة، لا لعمقها الفلسفى وســـعة أفقها، بل لكونها عبرت بشكل نظرى عن مشاعر الناس فى كل مكان بوجـــوب لجـــم السلطة المطلقة".

وما يجب أن نسلم به أنه كان لآراء لوك السياسية ذلك الاثر الكبير فى تطـــور الفكر الساسى والاقتصادى اللاحق، حيث نجد أن مذهبه فى "الطور الطبيعى" وفى العقد الاجتماعى" يحكى من نواح عدة مذهب روسو الذى — بلا أدنى شك — قد تأثر بـــه، ويختلف عن مذهب توماس هوبس (هوبز) الذى يصف الطور الطبيعى بأنه طـــور مـــن

التناحر والخصام الدائمين The Ware of All Against All يحف به الخوف من جميع جوانبه. كذلك نجده قد بسط لنظرية تمييز الـسلطات الحكوميــة وانفــصالها Separation of Powers حيث يعتبر تمهيدا لمذهب مونتسكيو فى هذا المضمار، وأساساً من الأسس التى يرتكز عليها الدستور الامريكى وأقواله فى العمل والملكية هــى من دعائم الاقتصاد الحديث. أما فى مضمار الحياة السياسية فقد كان أثر جــون بالغــا جداً، فنظريته فى حقوق الإنسان الطبيعية تعتبر من أهم الأسس الفلسفية التى ترتكز عليها الوثائق الدستورية المعروفة باسم "حقوق الإنسان"، والتى جرت العادة منذ قيام الثــورة الأمريكية عام ١٧٧٦م، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ على إدراجها فى الدساتير الحديثة.

**(٦) روح الشرائع:**

وقد كان لمونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥م) دور بالغ الأهمية والأثــر فى الثــورة المنهجية التى كان يتمخض بها الفكر السياسى، حيث نجده قد خرج بحقــل اســتقراء التاريخ من الأبعاد المكانية والإقليمية والزمانية المحددة (من خلال المطالعة والــرحلات) دارسا بشمول التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى كل زمان ومكان. ومن هنا كانت قيمة كتابه "روح الشرائع". وعلى حد وصف "دالامبير" فإن مونتــسكيو لم ينهج فى هذا الكتاب المهم نهج أسلافه، ولم يسترسل فى جدليات ميتافيزيقية على النحو الذى انصرف إليه أولئك الذى يتصورون الإنسان تصورا تجريدياً. ولم يقف – كغيره – عند تناول بعض الشعوب فى أحوال خاصة، ولكننا نجده قد تناول جميع سكان العــالم، وتطرق لأحوالهم الحقيقية فى كل ما يقوم بينهم من علاقات.

ونرى أنه لا يمكن أن نحيط بتفكير مونتسكيو بمعزل عــن مــؤثرات محيطــه المتعددة، وأهمها:

تأثر العقلية الفرنسية – بوجه عام – بالعوامل الطبيعية، وبالمناخ والأرض.

- الحالة الصناعية والتجارية التى كانت سائدة، وكذلك وسائل إنتـــاج السلع.
- الانفعالات النفسية والعقلية التى تنتج عن الظروف العامة.
- شكل الدستور السياسى.
- التقاليد والعادات التى اعتمد عليها التكوين القومى للشعب.

وقد كانت نظرية القانون الطبيعى هى منطلق مونتسكيو، ففى رأيه أن العدالة المجردة كانت سائدة قبل ظهور القانون الوضعى الذى هو نتاج تكيف القانون الطبيعـــى مع الزمان والمكان (تاريخيا وجغرافيا). والتصنيف الذى وضعه مونتسكيو لأنواع الحكم مازال معتمدا كقاعدة فى القوانين الحديثة، وهذه الأنواع هى ثلاثة: الحكم الجمهورى، الحكم الملكى، والحكم الاستبدادى.

وما يكفى مونتسكيو فضلا وفخرا أن نظريته فى فصل السلطات هى القاعـــدة التى تقوم عليها الدساتير فى العالم منذ اوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم.

(٧) اقصى سعادة لأكبر عدد:

عاصر مونتسكيو المفكر هلفتياس (١٧٠٥-١٧٧١م) مؤلف كتـــاب De, L'esprit ذلك المفكر الذى كثيرا ما تذكر نظريته السياسية بالفلسفة الابيقورية، وإن كنا نجد أن الفرق وانعدام الصلة بينهما شاسعان.

وإننا لنجد أن هلفتياس قد استخلص من أبحاثه ان الغاية التى يبتغيها الإنسان فى سلوكه وإنجازاته هى الحصول على أكبر قدر ممكن من السعادة، والابتعاد قدر الإمكان عن الألم. وقد رأى هلفتياس — انطلاقا من هذا المبدأ — وجوب أن يأخذ المشرع بعين الاعتبار الدوافع الذاتية التى تهدف إلى السعادة. وهذه الدوافع الذاتية ترتبط ارتباطا كليا بالأخلاق. ومن هنا نرى أن هلفتياس قد شدد على دراسة الأخلاق، خاصة أن الدوافع الذاتية هى المقياس والمعيار الذى يعتمده الإنسان فى تقرير سلوكه وتصرفاته. ولا تخلـــو

الدوافع الذاتية على الإطلاق من غريزة المنفعة الذاتية. وتبعا لذلك فإنه يقتـــضى ضـــبط المنفعة الذاتية ضمن الأبعاد الأخلاقية، ومتى حدثي ذلك زال التعارض بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة.

وهنا نلاحظ بوضوح الفرق بين منطلق مونتسكيو ومنطلق هلفتياس، فبينمـــا كون الأول نظريته على اساس تاريخى جغرافى، نجد أن الثانى قد كون نظريته على اساس نفسى فردى.

(٨) حرية الرأى العام وفساد الحكم:

إذا كان فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) وهولباك (١٧٢٧-١٧٨٩م) قد اتفقا بمـــا أثاره من نقد للتعصب الدينى، فإننا نجد بينهما اختلافا وتباينا فى النطاق الذى وجه إليها كل منهما اهتمامه السياسى؛ فقد خص فولتير باهتمامه قضية الحرية فى النظام السياسى، آخذا من النظام البريطانى نموذجا مثاليا. فى حين ذهب هولباك إلى انتقاد النظام الحكومى عامة والنظام الحكومى الفرنسى خاصة، حيث إنه اعتبر أن الحكومة جاهلة مقصرة ظالمه مستغلة خارجة عن غايتها باهتمامها بالحرب والتوسع بدلا مـــن اهتمامهـــا بالـــشعب والعمل على تحقيق منافعه ومصالحه. ويرى هولباك أن الإنسان خير بطبعه، وأن الـــشئ الذى يفسده ويحمله على الشر هو الحكومات، وأن حل هذه المشكلة يكمن فى إطلاق حرية الإرادة الشعبية. وضعف الدولة إنما يكون عائدا إلى تقسيم المصالح بين الطبقـــات، ولا علاج إلا بالتعليم والثقافة، وبنظره هو الحل الثورى. والحاكم ما هو إلا مجرد وكيل عن الشعب، وأن ممارسته الصحيحة لأعباء الحكم تكون بالعمل علـــى نـــشر التعلـــيم والثقافة، وبلك يكون حاكما صالحاً.

**(٩) العقد الاجتماعي والحب الاجتماعي:**

"كان روسو هو أول داعية إلى التطور الاجتماعى، وكانت محاولته فى رســـم التقدم التاريخى للمجتمع الإنسانى بصورة منسقة هى الأولى من نوعها. فهـــو فى هـــذا

المجال يتقدم قرنا كاملا على إنجلز والىخرين الذين جعلوا مسألة تطور المجتمع الإنسانى موضوعا شعبيا. وأن اهتمامه بتعيين مراحل التطور الاجتماعى وعوامله الفاضلة هو دون ريب موضع التقدير، لاسيما إذا ما قورن بالكتابات المعاصرة فى زمنه، فقد كان جميـــع معاصريه يتحدثون عن التقدم، غير الهم عالجوا الأمر بأسلوب متداع ينقصه التماســـك، بينما انفرد روسو عنهم جميعا بالتفكير فى التقدم على اساس أنه عملية متكاملة يتوجب اكتناهها.

هذا مما استهل به برتراندالى دراسته عن رسوم (١٧١٣-١٧٧٨م). والواقع أنه وإن كان سبق لهوبز قد تبنى نظرية العقد الاجتماعى – وكذلك لوك – فإننا نجـــد أن روسو قد أعطاها مضمونا أجد وأبعادا اوسع، فالإنسان الأول – البدائى – كان إنسانا صالحاً، وأن الحياة الطبيعية الفطرية الأولى هى السعادة المثلى، والأفراد عندما اتفقوا على التنازل عن حقوقهم فى السيادة للجماعة، وذلك على اساس اشتراك إرادة الفرد مع إرادة الفرد مع إرادة الآخرين لتمثيل الإرادة العامة. على أن إرادة الأغلبية تمثل الإرادة العامة بعد تكـــون الدولة. وأن الإرادة العامة ما هى إلا المظهر الوحيد للسياسة. ومن حق الشعب أن يمارس الـــسيادة باستمرار ودائماً، وإرادة الشعب هى المصدر الوحيد للقوانين، والحكومة التى هـــى وكيـــل عـــن الشعب، تخضع لرقابته باستمرار، وتغيير الحكومة إنما يرجع لإرادة الـــشعب وحـــده. ويقـــول كرامنشوف فى كتابه "عرض موجز لنظريات الدولة والقانون": (إن "راديشيف" الديمقراطى الثورى الروسى فى نهاية القرن الثامن شعر وبداية القرن التاسع عشر، قد أيد هذه النظرية. واعتقد كـــذلك بأن النظرية التعاقدية عن أصل الدولة، تعطى للشعب حق الانتفاضة وحق الثورة مالم يقم الملك – وهو أحد طرفى الاتفاق – بجميع التزاماته) وكان راديشيف يقول إن سلطة الدولة يجب أن يضعها الشعب، وأن الشعب يراقبها بنفسه. ومن هنا يأتى الدور التقدمى لنظرية التعاقد هذه.

وبنظر روسو فإن الحكومة إما أن تكون ملكية وإما أرستقراطية وإما ديمقراطيـــة وإمـــا مختلطة. ونظام الحكم يتكيف مع حالة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية. ونجد أن روسو استحـــسن نظام الحكم الديمقراطي المباشر وفضله على النظام النيابى الذى يراه دليل الفساد السياسى.

ومما يجب ذكره هنا فكرة الاجتماع الدورى للشعب لتجديد ثقته بالحكومة وبالموظفين العموميين، أو أن يمنحها عليهم، وهى الفكرة التى اقتبستها دساتير بعض الولايات الأمريكية.

وقبل أن ننتقل من عرض تفكير روسو السياسى لابد أن نشير إلى مفهومـــه فى الحريـــة والمساواة. إن الحرية — الحرية البدائية — هى المنطلق والغاية حتى يمكن بناء حياة اجتماعية حقه، وأن دخول الإنسان الحر المجتمع الحر يؤدى إلى فتح آفاق رحبة لتعزيز الحرية عن طريق ممارستها مـــن الفرد والمجتمع أما المساواة فهى القاعدة التى تدعم النظام السياسى، وبالمساواة تحمى الحرية والعدالـــة فى آن واحد.

**(١٠) تأمـــلات:**

فى الوقت الذى انت فيه قارتان مصطخبان بأكبر ثورتين ديمقراطيتين (الثـــروة الأمريكية والثورة الفرنسية) فى عام ١٨٧٠م صدر لإدموند بيرك كتاب "تـــأملات فى الثورة الفرنسية". وقد هاجم فيه الثورة الفرنسية بأسبابها وأهدافها، معتـــبرا أن فكـــرة حقوق الإنسان التى نادى بها روسو، وحتى تلك التى حددها لوك إنما هى فى حقيقتـــها فكرة مجردة لا تقوم على حقيقة. وأن الحقوق الطبيعية ما هى إلا من اختلاف الإنسان؛ ذلك أن العلاقات الاجتماعية — من وجهة نظره — وجدت مع الإنسان و لم تطرأ عليه. ولكننا نجد بيرك فى الوقت نفسه يعتبر ان العلاقات فى المجتمع تتغير مع حاجـــات هـــذا المجتمع كذلك نراه معترفا بأهمية الرأى العام، واعتبره أقوى سند للدولة.

كذلك لم يتردد بيرك فى مناصرة مطالب المستعمرات الأمريكية، والدفاع عـــن حقوق الهنود الحمر، والمطالبة بحمايتهم من استغلال الشركات والمؤســـسات التجاريـــة البريطانية. ولكنه على الجانب الآخر فقد ظل يعتبر أن السيادة فى إنجلترا ليست ملكـــا للشعب، وذلك لأن ذلك الشعب لا يقوم بأعباء الحكم. وإذا توافقت مطالب الـــشعب مع استمرار الحكم ومبادئ العدالة والعقل فإنها تصبح بمثابة قوانين تقيد الطبقة الحاكمة ليس إلا. وعلى ذلك فإن الطرف الذى يملك هذه السيادة لابد أن يكون البرلمان الـــذى

يمثل دور الحاكم فى مطالب الشعب، وهذه السيادة هى نتيجة تطور تاريخى ودســـتور الدولة، وبعد "التقادم" أو مرور الزمن تكتسب اسم التقاليد. ونوع الحكومة هو تحقيـــق للميل الطبيعى للشعب نحو نوع الحكم.

وقد كان بيرك على قناعة بعدم إمكانية الثورة على تطوير المجتمع، حيث إنـــه رأى أن الشعب لا يستسيغ التغييرات المفاجئة بسهولة، وعلى ذلك فإن التطور الطبيعى هو وحده – وإن كان بطيئا – من شأنه أن يعمل على تحسين المجتمع ويسير بـــه نحـــو الكمال، وهذا التطور وتسييره مناط بالطبقة الارستقراطية، فهى وحدها التى يمكـــن أن تكتشفه.

**(١١) السعادة – المنفعة الذاتية:**

"لقد وضعت الطبيعة الحرة تحت سلطة حاكمين سيدين هما الألم والمتعة".

هذه العبارة لجرمي بنتنام تعبر عن منطلق وأساس نظريتهن ذلك أن هذه العبارة قد خططت المبدأ الذى توصل إليه، وقام ببناء نظريته على اساسه، فالمبدأ الذى يتحكم فى أعمال الفرد هو تجنب الألم والبحث عن السعادة، والمتعة هى تحقيق هذا المبدأ. وبمعنى آخر – على حد قوله أيضاً – مبدأ المنفعة يعنى المبدأ الذى يفضل أو يعارض أى عمـــل تبعا لما يحويه من ميل نحو زيادة أو تقليل سعادة الفرد. وإنما تزداد قيمة المتعة وتتحقـــق المنفعة كلما ازداد عدد الأفراد الذين يميلون إليها.

وعلى هذا الأساس فإن الأخلاق والقوانين هى نتيجة سعى وعمـــل الإنـــسان لإنتاج أكبر طاقة من السعادة، وأن عمل الحكومة الأساسى هو نـــشر وتحقيـــق هـــذه السعادة، على أن تكون هذه السعادة وليدة توافق سعادة الفرد وسعادة المجتمع. وهـــذه السعادة لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق حكومة دولة جمهورية ينص نظامها على مجلـــس يقوم بتمثيل الشعب ويقر القوانين التى عن طريقها يمكن تحقيق السعادة لأكبر عدد مـــن الشعب.

**(١٢) الكونت الثائر:**

إذا نظرنا لفكر هنرى سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥م) نجده يـــشغل مكانـــا رحبا واسعا فى تاريخ الفكر السياسى والإصلاح الاجتماعى. وقد كان هذا الكونت — الذى اشترك عسكريا وفكريا فى الثورتين الأمريكية والفرنسية — يهدف إلى إيجاد نظام اجتماعى نرمى جديد يقوم على الكفاية والعمل، وذلك عن طريـــق تقـــدم المعرفـــة، ويصحب ذلك حلول النظام الصناعى والعلمى محل النظام الإقطاعى والدينى، وتكـــون للطبقات الاقتصادية والمهنية السيطرة على النظام الجديد، وبذلك لا نجد محلا للفـــروق الطبقية، حيث إن العمل يفرض على افراد جميع الطبقات دون استثناء، والتقييم يقـــوم على المقدرة والكفاءة فقط، ويجب على الحكومة أن تعمل على حماية هذا النظام.

والتاريخ بنظر سان سيمون وحدة مستمرة، ودراسة الحاضر لا تكون إلا بنـــاء على ضوء دراسة الماضى. وآمن بالتقدم المطرد للإنسانية، كما أنه دعا إلى دراسة أسباب الثورات والتغييرات التى تنشأ عنها. وعلى ذلك يكون سان سيمون قد رفض التفسيرات التقليدية للتاريخ، وأكد السببية فى تطور التاريخ، وكذلك إمكانية التنبؤ بالمستقبل على ضوء الحاضر.

ومما يجدر بنا ذكره من أفكار سيمون التى كان لها كـــبير الأثـــر فى الفكـــر السياسى، أنه اعتبر أن التغيير فى النظام الاجتماعى يوجب إحـــداث تغـــيير فى النظـــام الملكى. وازدواج المعرفة بالصناعة وعدم قيامه إلا فى ظل السلام هو الذى حمـــل ســـان سيمون إلى اقتراح إنشاء برلمان أوروبى يمثل فيه زعماء الدول شعوبها. كذلك نراه يقترح إنشاء جمعية عامة تعمل على ضمان العمل للقادرين عليه. وهنا يتوجب أن نشير إلى أن سان سيمون اعتبر ان الدولة العتيدة يجب أن يقوم العلماء بحكمها، وأن الوسيلة حتى يتم تحقيق هذا كله فهى الإقناع لا القوة، وذلك عن طريق الكتابة والحديث.

ونجد أن ماركيوز قد ذكر فى كتابه "العقل والثورة" أن المؤلفات التى ألفها سان سيمون تتضمن بالفعل العناصر التى تسير فى طريق مخالف تماما لاتجاهـــات الرأسماليـــة الصناعية. وكان مقتنعا بان تقدم النظام الصناعى يفترض مقدما أن يتحول الصراع بين الطبقات إلى صراع ضد الطبيعة، تتضافر فيه جميع الطبقات الاجتماعية. ولم يكن شكل الحكومة الذى استهدفه يخضع فيه الرعايا لسيطرة حكامهم، بل كان شكلا تقوم فيـــه الحكومة بممارسة إدارة تكنيكية على العمل الواجب أداؤه.

ونجد أنه كان لأفكار سان سيمون التى قام بعرضها فى مؤلفاته، (منها: رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه – محاولات فى التنظـــيم الاجتمـــاعى – مقدمـــة للأعمال العلمية فى القرن التاسع عشر – تاريخ الإنسانية - بحث فى علم الإنسان – فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى – فى النظام الصناعى – آراء أدبية وفلسفية وصناعية، كان لهذه الأفكار تأثير كبير خاصة بعد أن قام بتطويرها وتوسع بها أتباعه، حيث دعـــوا إلى وجوب ملكية الدولة لأدوات الإنتاج وحصر الملكية الخاصـــة فيمـــا يتـــصل بالـــسلع الاستهلاكية، كما نادوا بإلغاء الميراث وتأميم الأراضى ورأس المال، وذلك حتى تتمكن الدولة من تطبيق الجزاء على قدر العمل.

**(١٣) المساواة المطلقة:**

وكما اشترك سان سيمون فى الثورة الفرنسية، فقد اشترك بها فرنسيس بـــايف (١٧٦٤-١٧٩٧م) فكريا وعسكريا. وإذا كانت الأمور بالنسبة لسان ســـيمون قـــد انتهت عند حد سجنه، فإن الامر بالنسبة إلى بايف تعدى ذلك بكثير، حيث تم إعدامه لتكوينه منظمة سرية تهدف إلى قلب نظام حكومة الإدارة.

وقد آمن بايف بفكرة المساواة المطلقة إيمانا كاملا، وانطلق بفلسفته الـــسياسية من قاعدة مؤداها أن غاية الجماعة هى السعادة، وتحقيق تلك الـــسعادة إنمـــا يكـــون بالمساواة. ولكننا نجد أن تلك المساواة التى دعا إليها بابيف ليست تلك التى تكون دفعة

واحدة، بل تأتى تدريجيا وعلى مراحل عدة، تبدأ بتأميم الدولة للمؤسسات والشركات التجارية، ثم تنتقل إلى مصادرة التركات التى تركها المتوفون، وبالتالى فـإن الملكيـات التجارية والعقارية تصبح ملكا للأمة بأسرها. والدولة التى اقترحها بابيف هى دولة إنتاج وعمل يقوم على إدارة شئونها مجموعة من الموظفين المنتخبين. والمواطن المنتج هو وحده الذى يتمتع بالحقوق السياسية. ويفرض نظام بابيف وحدة الزى والطعام علـى جميـع المواطنين!.

**(١٤) الاجتذاب العام:**

وإلى هنا نصل إلى السياسة التى نادى بها شـارل فرانـسوا فوريـه (١٧٧٢-١٨٣٧م) وبسطها فى أهم ما قام بتأليفه: (نظرية الحركات الأربع – ملخـص دراسـة العالم – العالم الصناعى الجديد أو عالم الشركات – أحابيل ودجل طائفتى سان سيمون وروبرت أوين – الصناعة الكاذبة).

ونجد أن فورييه قد آمن بأن الإنسان – حتى لو كان سيئا – يخـضع لنظـام طبيعى يتناسق مع نظام النجوم والكواكب وما سماه قوة الاجتذاب العام، وقصد به طاقة كائنة دائما فى العالم تعمل على اجتذاب الناس وتقوم بتوحيدهم. وعلى ذلك نجد أنـه دعا إلى صرف الجهود نحو إيجاد تنظيم اجتماعى يتكيف مع طبيعة الأفراد، بحيث يتـاح لهم التعبير عن انفعالاتهم حتى يظلوا متناسقين متجانسين، وقد قام فورييه بتصنيف هذه الانفعالات إلى اثنى عشر نوعا هى: الحواس الخمس، الصداقة، الحب، العطف العـائلى، الطموح،....، التخطيط، التغيير، الوحدة. وهذه الثلاثة سماهـا فوريـه الانفعـالات التوزيعية الثلاثة. وتمتزج هذه الانفعالات جميعها فى نضال واحد هو حـب الآخـرين ووحده المجتمع. ويفترض نظام فورييه قلة حاجة المجتمع إلى الحكومة، باعتبـار أن مـن يشرف على الإنتاج مجموعة من الموظفين يقوم الشعب بانتخابهم.

وبما يجدر ذكره اعتبار فوربيه أن التفاوت الطبقى لا يؤدى إلى خلل بانـــسجام المجتمع، وذلك بفضل التجانس والتناسق بين الافراد الذى هو وليد قوة الاجتذاب العام منطلق وأساس فلسفته.

**(١٥) مفكرو الانقلاب الصناعى:**

أ- وقد أدى الانقلاب الصناعى الذى حدث فى إنجلترا خلال القرن التاســع عشر إلى قيام مجموعة من المفكرين الاجتماعيين يدعون إلى الاشتراكية. ونجـــد منـــهم سبنس الذى تقدم سنه ١٧٧٥م باقتراح فكرى إلى الجمعية الفلسفية فى نيوكاسل نادى فيه بإعادة اشتراكية الملكية فى العقارات، باعتبار ان ملكية الأرض كانت مـــشتركة فى الدولة الطبيعية. وإذا كان أعضاء هذا المجتمع قد اتفقوا على إزالة الاشتراكية، فإن هـــذا الاتفاق لم يجدد وبالتالى فقد مبرر وجوده. وقد اعتبر سبنس أن النزاع الذى قد ينشأ بين الأفراد لا يرجع سببه إلى اشكال لحكم، إنما فى إزالة أسباب البؤس الاقتصادى.

ب- أما أوجيلفى فقد استنتج منن القانون الطبيعى أن كل فرد له نصيب مـــن الأرض، واعتبر ان ازدياد قيمة الأرض نتيجة عمل الفرد واجتـــهاده يمنحـــه الحـــق فى التصرف فيها.

ج- فى حين أننا نجد أن توماس باين قد فرق بين حقـــوق الفـــرد بـــالأرض والحقوق الناتجة عن تحسينها، فقد اعتبر أن الأرض ملك للجماعة، والتحسينات ملـــك للفرد. ولحل مشكلة الملكية اقترح أن يتم منح من لا أرض لهم تعويضا تستوفيه الدولـــة من ضرائب التركات.

د- وقد ذهب وليم جودوين إلى اعتبار الحكومة نتاج رذائل الأفراد، وأنـــه فى الإمكان الاستغناء عنها بالعدل والإنصاف والتعليم على الخير العام الذى هـــو قـــانون العقل. كذلك دعا جودوين إلى إزالة نظام الملكية الخاصة.

هـ- ونستطيع أن نصنف فكر تشارلس هال كحلقة اتـصال بـين الفكـر (القانون الطبيعى) والبروليتاريا الاشتراكية، فقد انتقد فى كتابه "تأثيرات المدنية" توزيـع الثروات فى المجتمع والاستغلال، وأرجع أسباب قيام الحروب إلى عوام لاقتصادية، ذلك أن هدفها زيادة حجم التجارة وكسب أراض جديدة والعمل على صرف أذهان الفقراء عن مشاكلهم وشغلهم بأعبائها، كذلك دعا إلى تكريس الزراعة وجعلها حرفة اساسية للشعب.

و- وتجدر الإشارة هنا إلى لورد أيتون الذى تنبأ فى كتابه "الجـنس القـادم" بالتقدم التكنولوجى الموجود فى عالمنا المعاصر واختراع القنبلة الذرية. ولكننا نراه يعطى ذلك صورة أيتوبية!.

ز- أما إدوار بيلامى فنجده يدعو إلى تأميم القطاعات الاقتصادية جميعهـا — سواء كانت صناعة أم تجارة أم زراعة — وذلك بغاية إلغاء نظام الاجور، وبالتالى التجارة والنقود، حتى يتمكن الأفراد من الحصول على احتياجاتهم بالتساوى من إنتاج الامة.

ونجده فى رواية بعنوان News from No Where — نشرت تباعـاً فى عام ١٨٩٠م بمجلة كومنولث التى كانت تصدرها العصبة الاشتراكية — يعرض فيهـا انتقاده لما أدى إليها الانقلاب الصناعى من صرف الناس إلى الاشتغال بالـصناعة دون سواها من القطاعات الاقتصادية، الأمر الذى أدى إلى استغلال العمال من جهة، ومـن جهة أخرى إلى ضيق مجال العمل بسبب تضخم عدد الأيدى العاملة وفـائض الحاجـة إليها، وبالتالى انتشار البطالة. وعلى هذا الأساس دعا إلى حرية الأفراد وتمكينـهم مـن التمتع بالمساواة فى الحرية، على اعتبار ان ذلك يعمل على توفير السعادة أكثر من زيادة الإنتاج.

ح- أما روبرت أوين فقد أكد — انطلاقاً من نظرية بنثام فى "الـسعادة غايـة المجتمع" - أهمية المحيط من خلال تأثيره على الفرد، كذلك آمن بالتشريع كأداة مفيـدة

ومجدية للتقدم الاجتماعى، وكان يهدف إلى إعادة تكوين المجتمع عن طريق المــشاركة والتعاون بين الأعضاء حتى يتم النهوض بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية.

**(١٦) ثورة الأمم:**

وقد بدأت معالم تداخل التفكير الاقتصادى بالتفكير السياسى بدءاً من أوائـــل القرن الثامن عشر، ذلك التداخل الذى تبلور وتجلى بشكل واضح تماما عند المفكـــرين الماركسيين. ولا ريب فى أن فكر آدم سميـــث (١٧٢٣-١٧٩٠م) يعتـــبر أول فكمـــر سياسى يهتم بتداخل التفكير الاقتصادى فيه على نحو لم يسبق لـــه مثيـــل فى الفكـــر السياسى، ونجد ذلك فى مؤلفه "بحوث عن طبيعة وأسباب ثروة الأمم".

وقد اعتبر سميث أن الإنتاج الناجم عن استخدام العمل والموارد هـــو المـــصدر الوحيد للثروة. ونراه يعلق زيادة الثروة على المهارة والكفاءة فى استخدام العمل، ووفقا لتلك النسبة من أعضاء المجتمع التى تشترك فى العملية. وأن الوسيلة التى تحقـــق زيـــادة الإنتاج إنما هى تنظيم العمل وتقسيمه واستخدام الآلات الميكانيكية. ويتنبه سميـــث إلى الأهمية الكبرى لوسائل النقل والمواصلات كى يتم تصريف الإنتاج، وبالتـــالى إمكانيـــة تحقيق مستوى عال من التخصص كذلك نمراه يتنبه إلى أهمية الزمن فى صـــنع الإنتـــاج ودرجة إتقان العمل ومهارة العامل.

ولكن فى ظل نظام اقتصادى يستخدم النقود يربو فى بعض الاحيـــان الطلـــب الفعال، أى الرغبة فى الحصول على سلعة ما مع المقدرة على أداء ثمنها علـــى العـــرض، الأمر الذى من شأنه أن يؤدى إلى ارتفاع الثمن وإلى كسب جديد للمنتج، سرعان مخا يحمل الغير على المنافسة، كما أنه يعمل على اجتذاب العمال ورأس المال مـــن حـــرف أخرى. وهذا بدوره — وبالإضافة إلى مرور الزمن — يعمل على انخفاض الثمن، بحيـــث يصبح اقل من قيمته الطبيعية. وبالرغم من ذلك فإن سعر أى سلعة يميل إلى أن يتذبذب حول القيمة الحقيقية أو يقترب منها. وعندما يتوازن العرض والطلب فى حالة أى ثمـــن،

فهذا الأخير مثل الثمن الطبيعي، وهذا نجد أن الاستفادة تعم الجميع من السوق الحـــرة. وبرأى سميث فإن الفرد عندما يعمل على تنمية مصلحتهن فإنه غالبا ما ينمى – وبفعـــل يد خفية – مصالح المجتمع، ذلك أنه "لو أزيت النظم كلها.. فإن نظام الحرية الطبيعيـــة الواضح البسيط يثبت وجوده بمحض إرادته".

وبالرغم من أن الملاحظات التى ابداها سميث كانت تصب فى صالح الرأسمالية، فإنها كشفت – بكل وضوح – عن عيوب ضخمة وخطيرة فى "نظام الحرية الطبيعيـــة" الواضح والبسيط فالعامل الأجير لا يمكنه الحصول على القيمة الطبيعية الكاملة للمنـــتج مادام يتعين تخصيص جزء من الثمن للأرباح". ويرى سميث أن التفاوت الكبير فى نسبة توزيع الثروات وكمياتها يظهر فى المجتمعات المتخلفة حضارياً.

ويلفت سميث نظرنا إلى وجوب فرض الرسوم الجمركية على السلع المستوردة من الصنف الذى يقوم البلد المستورد بإنتاجه، وذلك بهدف زيادة الدخل القومى مـــن جهة، واستعمال وسيلة للمساومة على تصدير الإنتاج المحلى.

وكذلك يرى سميث أن الصناعة هى اساس قوة الدفاع القومى، وأن الحكومـــة هى المطالبة بالاهتمام بهذا الجانب والتنبه لدوره الفعال فى قوة الدولة. كما يجب علـــى الدولة أن تهتم بالتجارة الخارجية والعمل على حمايتها. وكذلك يعلق سميث أهمية كبيرة على الضرائب، حيث نجده يتناول أحكامها وتوزيعها، ويلفت النظر إلى نسبة الـــضريبة بالنسبة إلى الدخل الفردى والحماية الموفرة له.

**(١٧) التعقيم الجنسى وزيادة السكان:**

وتعليقا على مشروع الجدول التاريخى لتقدم الروح الإنسانية الذى قام بنـــشره وليم جودوين وكوندرسيه، واستشرفا فيه رؤية مستقبل حافل بالأخلاق والإبـــداع فى ميدان الفكر والعلم، يكشف عن ثروات عديدة لا حصر لها، ومجتمع منتج حر ينال فيه كل إنسان نصيبه العادل فى الثورة العامة. تعليقا على ذلك نجد أن مـــالثس (١٧٦٦-

١٨٣٤م) كتب مقالا بعنوان "عن مبادئ زيادة السكان وآثارها فى تحـسين المجتمـع المقبل"، مع ملاحظات على نظريات جودوين وكوندرسيه وغيرهما من الكتاب، دعا فيه إلى التعقيم الجنسى بهدف الحد من زيادة عدد السكان الذى يتضاعف بدرجـة تفـوق ازدياد الإنتاج إلى حد كبير يأسا من قيام النظم المعاصرة له — وهى برأيه نظم استغلالية ومتخلفة — بأى عمل لسد حاجات الإنسان.

ولكننا نرى أن مالثس قد تراجع عن وجهة نظره المتشائمة، وذلك فى مقال له بعنوان "الأزمة"، حيث دعا فيه إلى زيادة عدد السكان عن طريق زيـادة المـساعدات الاجتماعية للأسر الكبيرة.

ولا يمكن للفكر السياسى أن يتجاهل ما عرضه مالثس من شروح ومبادئ فى مؤلفاته: بحث فى الآثار الماضية والحاضرة للسكان على سعادة الإنسانية — طبيعة الدخل وزيادته — مبادئ الاقتصاد السياسى منظوراً إليها من زاوية تطبيقها العملى — تعريـف الاقتصاد السياسى ومقياس القيمة.

**(١٨) الدولة المغلقة:**

وإذا ما جئنا للأفكار السياسية والاجتماعية لجوهان جوتيليب فيخته (١٧٦٢-١٨١٤م) فإننا نجدها تقوم على فلسفته الأخلاقية التى تعلق أهمية كبيرة علـى النـشاط الفردى وشخصية الفرد، وهى الفلسفة التى عرضها فى مؤلفاته، ومنها: نظرية العلـم — مصير الإنسان — أساس القانون الطبيعى — مساهمة فى تقديم أحكام الجمهور على الثورة الفرنسية.

ويرى فيخته ضرورة إعطاء الفرصة لكل إنسان حتى يستطيع أن يعـبر عـن شخصيته فى العمل المشترك، واختيار المهنة التى تروق له وتتفق مع ميولهن ونراه يـضع على عاتق الدولة مسئولية تامين وتحقيق ذلك، وذلك على اعتبار أن للدولـة وظيفـة اقتصادية لكونها تعبيرا عن الحياة واستجابة لمطالبها. ولكى تقوم الدولة بذلك يكون من

الضرورة بمكان – من وجهة نظر فيخته – أن تتغلق على نفسها وتوقف جميع أشـــكال تجارتها الدولية، وتمتنع عن إقامة اية علاقات مع غيرها من الدول، وبذلك يكـــون مـــن اليسير توافر الإمكانيات والفرص المنشودة لكل فرد.

ومع أن فيخته يفضل الملكية الخاصة ويحبذها، ويعتبرها اساس القانون المعبر عن الفردية، فإننا نجده وقد علق أهمية كبرى على التعاونيات الاجتماعية، واقترح أن تقـــوم الدولة بإنشائها، على أن تتمتع هذه التعاوينات باستقلال ذاتى، بحيث تتمكن من تنسيق الإنتاج والتبادل باتفاقيات مشتركة.

**(١٩) هيجـــــل:**

أ- الديالكتيك:

لفظ "ديالكتيك" مشتق من اللفظ اليونانى Dialegestia والذى يعنى "التقاء الناس للمحاورة". ولما كان الهدف من الحوار هو الإقناع، ولا إقنـــاع بـــدون برهـــان واضح، لذلك اعتبر الديالكتيك فن البرهان.

وقد ظهرت معالم التفكير الديالكتيكى فى الفلسفة اليونانيـــة القديمـــة عنـــد هيراقليطس، كما بدت بعض عناصره فى فلسفة ديكارت وسبينوزا وليبنتز وكانت. إلا أننا نجد أن الديالكتيك كمنطق وكمنهج فلسفى لدراسة الظواهر العامة قد بدأ بجـــورج هيجل (١٧٧٠-١٨٣٨م). وفى الواقع فإننا نرى أن اليالكتيك الهيجلى هو المنطق الذى كان يقتضى أن يحل محل المنطق الصورى والفلسفة الميتافيزيقية القائم على نفى التناقض فى الفكر والوجود، والقائل بفقدان الاشياء العلاقة فيما بينها. ذلك أن هناك الموضوع، ثم هناك نقيضه أو نفيه، وهناك نقيض النقيض أو نفى النفى، والأمر الواقع يثبت وجود التناقضات فى كل شئ، ذلك أن كل شئ يحتوى فى داخله على جانب إيجـــابى وآخـــر سلبى، فهناك جانب ينمو وآخر يموت. وأن هذه التناقضات تفرض وجود منطق جديد

غير المنطق الصورى، يقر مبدأ جديدا وهو مبدأ التناقض، وبـــصورة اخـــرى منطـــق الديالكتيك، فكل شئ فى حالة تغيير وحركة وصيرورة.

وهكذا نجد أن الديالكتيك يبدأ عند هيجل بالوجود ثم بالماهيـــة ثم بالمركـــب منهما، ويطلق عليه هيجل "الفكرة الكلية"، وهى الفكرة التى تظهر فى النهاية فى صورة الفكرة المطلقة التى هى وجود الطبيعة. ومن هنا كانت الفكرة الكلية حلقة انتقـــال إلى فلسفة الطبيعة، وما الطبيعة إلا المظهر الخارجى للفكرة الكليـــة تعارضـــها وتنازعهـــا، والطبيعة نفسها تتحرك، حيث إنها على النقيض من المنطق تشتمل على الزمان والمكـــان وأبعاد الزمان الماضى والحاضر والمستقبل، وعنها يتولد معنى الزمان والمكان. والتعـــارض موجود وقائم بين الزمان والمكان، والوحدة بينهما تسمى المادة، ومركز المادة هو ذاتها، والتجاذب يكمن فيه، ومن هنا ظهور الروح، والروح بدورها تتطور فى ذاته (الفـــرد) ولذاته (المجتمع) وذاته ولذاته (الروح المطلقة). ومن هنا كان المطلق البدايـــة والنهايـــة، والمطلق معتقد Dogme، وبذلك يكون الديالكتيك عند هيجل منهجا ومذهبا يجمع بينهما اسم الفلسفة الديالكتيكية.

وعلى ذلك فإن الفلسفة الديالكتيكية لا تقف عند حد النهائى والمطلق والمسلم به، بل نجد أنها تكشف عن الطابع التطورى لكل شئ وفى كـــل شـــئ، ولا يـــستطيع الصمود أمامها إلا تلك العملية التى لا تهدأ أو لا تقطع عمليـــة الـــصيرورة والـــزوال والارتقاء اللانهائى من الأدنى إلى الأعلى.

**(ب) الفلسفة الديالكتيكية والتاريخ:**

وبالنظر إلى الفلسفة الدالكتيكية عند هيجل نرى أنها هى التى تؤدى إلى تحريـــر الفرد من سلطة الحس، كما أنها تحرر المجتمع من سيطرة الواقع الظرفى، والذى لا يستطيع أن يتماشى مع تطور حركة التاريخ، فالواقع الحقيقى هو الواقع الديالكتيكى، وهو الواقع الذى يقتضى تجسيده حمل الواقع الظرفى كي يتماشى مع ديالكتيكية التاريخ، والتى هى

الوعى بالحرية، وذلك لأن تاريخ العالم- على حد= تعبير هربرت ماركوز — ليس سوى تقدم الوعى بالحرية، والدولة هى الحرية، ذلك أن الدولة التى قصدها هيجل — على تعبير ماركوز — هى التى تحكم بمعايير العقل النقدى، وبالقوانين الصادقة المطلقة.

**(ج) الدولـــــة:**

وعلى ذلك فإن الدولة الهيجلية ليست ذات النشأة المصطنعة، حيث إنها ليست نتاج عقد اجتماعى، بل هى كائن طبيعى، والدولة ليست ذلك الكيان الـــذى يحـــوى مجموعة من الأفراد كل منهم يملك حقا طبيعيا وحصة فى الأراضى العامـــة، بـــل هـــى شخص حقيقى يكمن فى إرادتها المنطق الكامل، وهى مصدر حريات الافراد التى يدعيها كل منهم، ذلك أن الدولة هى تجسيد الحرية العقلية، والتنظيمات السياسية فى الدولة هى تلك التى تتماشى مع القواعد الأخلاقية، بمعنى كون الدولة الهيجلية هى حقيقة فى حـــد ذاتها، حقيقة الفكرة الأخلاقية.

وفى رأى هيجل أن الفوارق فى الشكل السياسى بين الدول لا أهمية لها، وذلك مادامت تحافظ على هوية العلاقات الاجتماعية والاقتصادية الكامنة من ورائهـــا علـــى النحو المطلوب فى مجتمع الطبقة الوسطى.

(د) الدستـــــور:

وعلى ذلك فإننا نرى أن دستور الدولة الهيجلية هو ذلك الناتج عن تطورهـــا التاريخى، ذلك أن التاريخ — الذى هو تطور منطقى قائم على اساس مفهوم التقدم نحو النظام والمعقولية والحرية — هو الذى يقوم بتحديد النظام الدستورى لكل دولة.

**(هـ) السيادة والسلطة:**

وفى نظر هيجل، كانت سيادة الدولة أداة ضرورية ومهمة حتى يمكن الحفـــاظ على مجتمع الطبقة الوسطى، ذلك لأن الدولة ذات السيادة فى إمكانها إزالة عنصر المنافسة

الهدام من الأفراد، وتجعل المنافسة مصلحة إيجابية للحقيقة الكلية، فالدولـــة تـــستطيع أن تسيطر على المصالح المتعارضة التى تنشأ بين أفرادها. أما النقطة التى ينطوى عليها رأيـــه هذا هى أنه حين يقتضى النظام الاجتماعى وجود الفرد على التنافس مع الآخرين، فإن الضمان الوحيد لتحقيق المصلحة المشتركة على نطاق محدود على الأقل يكـــون وضـــع حريته فى إطار لا تتعداه داخل النظام الكلى للدولة. وهكذا فإننا نجد أن سيادة الدولـــة تفترض مقدما التنافس الدولى بين الوحدات السياسية المتعارضة، تكمن قوة كل منـــها أساساً فى سلطتها التى لا تنازع على أفرادها.

وإذا ما جئنا للسلطة سنجد ان الذى يقوم عليها ويتولاها السلطة التـــشريعية (وتمثل الكثرة العددية)، والسلطة الإدارية وتشتمل على السلطة القضائية (وتمثل الأقلية)، ثم السلطة الكلية (وهى التى تمثل الفرد).

ومادامت الدولة ذات إرادة واحدة، كان من الضرورى أن يتم الامتزاج بـــين السلطات الثلاث. وبمعنى آخر، العمل على تجنب الفصل بين السلطات.

(و) الدولة والعلاقات الخارجية:

وبرأي هيجل أن الدولة – بناء على مبدأ سلطان إرادة الدولة – لابد أن تكون مستقلة فى علاقاتها الخارجية، ولا تخضع لسلطان دولة اخرى، أى أنها تعمل بمـــا تمليـــه عليها إرادتها وحدها. والقواعد الأخلاقية الملزمة للأفراد داخل الدولة ليـــست ملزمـــة للدول فى علاقاتها الخارجية، ذلك لأن علاقة الدولة بالمجتمع الدولى تختلف اختلافا كليا وجزئيا عن علاقة الفرد بالدولة والاتفاقات والمعاهدات التى تبرمها هى وقتية، أى أنهـــا تتغير أو تلغى أو تعدل تبعا للظروف التى تمر بها الدولة. لذلك فمن الـــضرورى علـــى الدولة المبادرة إلى إعادة النظر بهذه الاتفاقيات والمعاهدات، خاصة عندما تجدها متعارضة مع مصالحها.

**(ز) الحـــــرب:**

والحرب برأي هيجل هى شئ ضرورى لابد منه، وهى لازمة حـــتى تـــتمكن الدولة من الاستمرار والحافظ على كيانها، وكذلك يراها ضرورية فى حياة الشعب، لأن معنى الكل ومعنى لا وحدته لا وجود لهما دونها، ولولاها لموت الإنسانية وانحدرت إلى درك طبيعة بلا روح.

ولكننا نرى أن الحرب التى يعلن هيجل عن ضرورتها ليـــست هـــى الحـــرب الاستعمارية، ذلك أنها تؤدى إلى قيام امبراطوريات تجمع بين شعوب مختلفة، والنتيجة — تبعا لذلك — هى فقدان الدولة وحدتها الذاتية وفرديتها الأصلية. فهـــذه الإمبراطوريـــة ليست تلك التى يهدف إليها التاريخ.

**(ح) القوميـــــة:**

وما يعرضه لنا التاريخ من حضارات ودول تتعاقب، تصعد كل منها إلى ذروة مجدها ثم تنحدر إلى الحضيض، وهذا الصعود والانحدار المكون لحركة التاريخ الـــصاعدة من أمة إلى أمة توقف عند الدولة البروسية.. التاريخ يقف عندها لأنها القمة، فهى تجسيد للمطلق ولروح الحرية والألوهية.

وعلى ذلك فقد مجد هيجل القومية الألمانية ورسالة الشعب الألمانى تجاه العالم.

وقد تأثر فكر هيجل وعاطفته بالظروف التى كانت تمر بها المانيا فى ذلك الحين كدولة وشعب، حيث كانت أقدام الأجانب تسحق أجزاء عديدة من وطنه ألمانيا، وكان الوطن مشتتا موزعا بين الإقطاعيين. ولذلك كان من الضرورى بناء دولة قوية تكـــون قادرة على تحطيم هذه السيادات الخاصة، وظهور المستبد العادل الذى يمكنـــه تحقيـــق الوحدة للشعب والدولة.

ونجد تأثيرا واضحا لهذا التفكير فى حركة توحيد ألمانيا التى قادهـــا بـــسمارك، وذلك فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، كما كان لها الأثر الحاسم فى تطـــور فكرة اشتراكية الدولة، بل إننا نجد أن أفكاره القومية هى التى حملت بعض المتطرفين إلى تبرير نظريتهم التى نادت بتفوق العنصر الألمانى، ودعت إلى التوسع الإقليمى.

**(٢٠) منهج السياسة الإيجابية:**

إذا نظرنا إلى تفكير اوجست كونت للتطور الفكرى الإنسانى عـــبر التـــاريخ وجدنا أن تاريخ الفكر السياسى قد سجله فى سلسلة مـــن ثـــلاث مراحـــل:الطـــور الميتافيزيقى، الطور العقلانى، والطور العلمى الإيجابى. وهذا التطور الأخير هـــو الـــذى عاصره كونت، وقام بالتخطيط لثورته الفلسفية المنهجية، وهو موضوع الطبعة الثانية من كتابه "منهج السياسة الإيجابية" Systems de Politique Positive، حيـــث دعا فيه للتحرر من جميع المسلمات النظرية والاعتبارات العلمية، والانطلاق من الوقائع نفسها، وهى ثورة تتطلب من العلماء أن يرفعوا اليوم السياسة لمترلة علوم الملاحظة.

ونجد أن تفسير كونت للتاريخ كان على اساس مضاد للمادية، عـــاملا علـــى تيسير مهمتهن ونراه قد احتفظ بفكرة عصر التنوير القائلة إن التقدم هو التقدم العقلـــى قبل كل شئ، وهو النمو المستمر للمعرفة الوضعية. لكننا نراه قد أفرغ فكـــرة عـــصر التنوير هذه من مضمونها المادى بقدر استطاعته، وبذلك قد التزم بالوعد الذى قـــضى على نفسه، وهو أن يستعيض بحركة عقلية ضخمة عن القلاقل السياسية العقيمة. وهكذا نجد أن فكرة التقدم تقف حجر عثرة فى طريق التقدم المادى والمعنوى والذهنى، وذلـــك حين تكون فى خدمة الحاجة الملحة إلى المحافظة عن الوضع الراهن، إذا كـــان ذلـــك فى الاتجاه الذى يسمح به "نسق الظروف" الموجودة، ففكرة التقدم عند كونـــت تـــستبعد الثورة والتغيير الكلى لــ "نسق الظروف" الموجودة، ولا يعود النمو التاريخى إلا تطـــورا متوافقا للنظام الاجتماعى فى ظل قوانين "طبيعية" ثابتة.

وبرأى كونت أن "القوى المؤقتة" التى تقوم بحكم المجتمع ستجد — لا ريب — أنها قد ازدادت أمانا بفضل تأثير "السياسة الوضعية" التى هى وحدها القادرة علـــى أن تبث فى نفوس الناس الشعور بأنه ليس ثمة أهمية حقيقية لأى تغيير سياســـى فى الحالـــة الراهنة لأفكارهم: "كذلك سيعلم سادة الأرض أن الوضعية تميل إلى تركيز كل قوة فى أيدى أولئك الذين يملكون هذه القوة — أيا كانوا". بل إننا نجد ان كونت يزداد صراحة عن ذلك، حيث يحمل على النظريات والجهود الغربية، الشديدة الخطورة، الموجهـــة إلى نظام الملكية السائد، إذ أن هذه الجهود والنظريات تشيد "يوتوبيا مستحيلة ممتنعة".

صحيح أن من الواجب والضرورى العمل على تحـــسين أحـــوال وأوضـــاع الطبقات الدنيا، ولكن هذا من الأهمية بمكان لأن يتم دون أدنى تغيير فى الحواجز الطبقية، ودون تعكير للنظام الاقتصادى الذى لا غنى عنه. وفى هذه النقطة بدورها تقدم الوضعية شهادة تتم بها عن نفسها، فهى تقدم الوعد بـــ "تأمين الطبقات الحاكمة ضد كل فـــرد فوضوى"، وبيان "الطريقة الصحيحة لمعاملة الجماهير". وقد لخص كونت اسباب تمسكه بـــ "قضية النظام" فأكد أن فلسفته بحكم طبيعتها نفسها "لا تهدف إلى التدمير بـــل إلى التنظيم"، وأنها "لن تعلن أبا أى نفي أو سلب مطلق".

ونرى أن أوجست كونت بالرغم من فشله فى تطبيق منهجه الذى دعا إليها، فإنه يكفيه تحريره علم السياسة من طفولته الميتافيزيقية العقلانية، وتناولـــه لـــه كعلـــم للعلاقات السياسية الحقيقية.

**(٢١) علم سياسة جديد من عالم جديد:**

اتجه الكسيس دو توكفيل (١٨٠٥-١٨٥٩م) إلى دراسة النظام الديمقراطى فى الولايات المتحدة على اعتبار أنه نموذج لعالم ديمقراطى جديد، يقوم على المساواة مطبقا المنهج الذى وضعه كونت، معتمدا فى ذلك الاستفتاء الشخصى للمواطنين الامـــريكيين على أساس المسائل التى اعتبرها موضوعا للبحث، مراجعاً النصوص والوثائق.

ومن الغريب أننا نجد دوتوكفيل لم يتردد فى انتقـــاد المـــساواة والديمقراطيـــة، مصرحا أنه يتذوق مؤسسات الديمقراطية بعقله، أما الارستقراطية فيتذوقها بغريزته، لأنه – على حد تعبيره – يزدرى الغوغاء، إنما هو شغوف بالحرية والمساواة واحترام الحقوق، ولكنه لا يحب الديمقراطية!!

ومع ذلك فإن دو توكفيل قد أقر وسلم بأن الديمقراطية هى الحقيقة الـــسياسية الكبرى لعصره وحقيقة المستقبل، سواء أراد هو ذلك أم لم يرد. وقد اعتبر بريلو توكفيل النموذج العصرى للعالم السياسى.

**(٢٢) خطة النظام العقلى:**

وفى الوقت الذى كان فيه هيجل يكشف ويشرح الديالكتيكية ونظرياتـــه فى الحرية وفلسفة التاريخ، نجد روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨م) فى إنجلترا يكتب "نظريات جديدة للمجتمع"، "نداء إلى الحكومات الأوربية، "العالم الأخلاقى الجديـــد"، "خطـــة النظام العقلى"، "بناء التشارك بين كافة الطبقات وكل الأمم"، و"الثورة الكونية"، حيث نلاحظ أن أفكاره ونظرياته الاجتماعية – وضمنها السياسية – هى امتـــداد للفلـــسفة السياسية الطبيعية فى القرن الثامن عشر، سيما فلسفة روسو.

وقد اعتبر أوين أن شخصية الفرد انعكاس لبيئته الاجتماعية، وأن الوسيلة المثلى للارتقاء بالوجود الإنسانى هى البيئة، ولا عبرة لكون المجتمع بما ينـــافى العقـــل وينـــافى الطبيعة.

وكان من شأن هذا المنطلق أن يؤدى بأفكار أوين المبنية على نظريات أخلاقية ميتافيزيقية إلى التنبه إلى مفهوم الصراع الطبقى وأخذه بعين الاعتبار، خاصة أنه استنكر الاستغلال فى العمل، وظروف العمل الصعبة التى كانت سائدة فى عصره، مثل ارتفـــاع عدد ساعات العمل على الحد المعقول وانخفاض الأجور، وعدم وجود الضمان الاجتمـــاعى والصحى، أو على الأقل فقدان الرعاية والضمان الصحى.

وبالإضافة إلى ذلك نرى أن مشروعه "مجلس مدينة نيولانارك" قد تضمن التنبـــه إلى قوة الأيدى العاملة وأهميتها، ودور العامل وتوضيح ارتباط قيمة الأشياء والمنتجات بما تستغرقه من كمية عمل، وقياس ذلك بوحدات قيمة العمل والإشارة إلى تبادل السلع أساس قيمتـــها الحقيقة، أى ما استغرقه إنتاجها من ساعات عمل. وقد كان لهذا المشروع تأثير كبير فى الفكر الاقتصادى، حتى أننا نجد أن ريكارد وماركس قد تأثرا به فيما بعد.

ولكننا نجد — رغم هذا كله — أن أفكار أوين قد وقفت على الدعوى لتدخل الدولة كمؤسسة قائمة لتحقيق المجتمع، حيث يرى أنها الإدارة التى من شأنها تحقيق التنظيم للمجتمع، وخلق النموذج المنشود للشخصية الفردية. وفى الواقع فإن هذا ليس إلا نتيجة حتمية لنظريتـــه عن الظروف الخارجية التى — فى اعتقاده — تصنع الشخصية الإنسانية.

ونجد أنه على الرغم من تناول أوين ظروف العمل الصناعى فى كتابته، فإنه قد وجه جانبا كبيرا من اهتمامه إلى الزراعة، بل اعتبر أن الصناعة عمل مكمل للزراعة وملحق بهـــا، وتبعا لذلك فإنها تأتى فى المرتبة الثانية بعد الزراعة.

**(٢٣) الريـــــع:**

كانت مطالعة دافيد ريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣م) لكتاب سميث "ثروة الأمم" هى ما دفعه إلى دراسة نظريات الاقتصاد السياسى، وربط التفكير السياسى بـــالتفكير الاقتـــصادى ليخرج منه إلى نظريته فى توزيع الثروة انطلاقاً من الملكية الزراعية، معتبرا أن الريع الذى يحصل عليه مالك الأرض الخصبة ليس هو مقابل ثمن العمل، ولكنه نتيجة امتلاك نوع نادر من الموارد الطبيعية، وهو مال غير مكتسب أطلق عليه ريكاردو اسم "الريع".

وقد تابع ريكاردو نظرية مالثس فى "قانون الأجور الحديدى"، حيث اعتبر ان الأجور العالية تؤدى إلى زيادة موارد العمل، فى حين أن الأجور المنخفضة تـــؤدى إلى انخفاض موارد العمل. وبنظر ريكاردو فإن الريع هو "عدوان على الربح"، وأن الأرباح فى الأجل الطويل تميل إلى الهبوط حتى تصل إلى درجة الصفر، بينما مـــلاك الأراضـــى

يستولون على الفائض الاقتصادى. وهكذا فإن مذهب ريكاردو فى الريع كان الـــسلاح النظرى الذى استخدم فى إنجلترا من جانب الحملة على قوانين الغلال. وبعبارة أخـــرى كان المذهب سلاحا استخدمته الطبقة الصناعية الجديدة ضد طبقة ملاك الأراضى. ونرى أن الأمر لم يقف بالمذهب عند هذا الحد، بل إنه كان الأساس الـــذى قامـــت عليـــه مقترحات الضريبة الواحدة وتأميم الأراضى. وبالإضافة إلى ذلك، فبمجـــرد التـــسليم بإمكانية الصراع بينَ المصلحة الفردية والمشتركة والاستغلال الناشئ عن شكل واحد من أشكال الملكية، أصبح فى الإمكان وبعبارات مماثلة، انتفاء أشكال اخرى من الاستغلال. وهكذا بدأ الاشتراكيون الإنجليز بعد ريكاردو، وبدا ماركس حيث توقف ريكاردو.

**(٢٤) رحلة إلى إيكاريا:**

وتعود المدينة الفاضلة فى كتب : "رحلة إلى إيكاريا" و"تحقيق مجتمع إيكاريـــا" و"التقويم الإيكاري" وهى من تاليف إيتين كابيه (١٧٨٨-١٨٥٦م)، حيث تخيل فيـــه "الإيكاريا" كمجتمع لا وجود للملكية الفردية فيه، والمواطنون متساوون فى الحقـــوق والواجبات وتتولى فيه الجماعة — ممثلة بجمعية وطنية — شئون الإنتاج، حيث تحدد مـــا يحتاج إليها أفرادها، وذلك وفق خطة سنوية، وتقع عليها مسئولية تقديم أدوات ومـــواد الإنتاج وتأمين العمل الملائم لكل فرد، وتقوم تلك الجماعة باستلام الإنتاج وتـــصريفه. ولا تتميز قيمة عمل عن عمل. والتقدم الآلى هو الذى يجعل الآلة تلعب دوراً كـــبيراً فى الإنتاج، بحيث يخف الجهد الإنسانى. وتقوم الجمعية الوطنية — وهى مؤلفة مـــن ألفـــى عضو — بشئون الحكم، فهى التى تق٤وم بتعيين القضاة المنتخبين شعبياً.

وقد كان كابيه يؤمن بتعاون الناس حتى يتم تحقيق هذا المجتمع دون الحاجة إلى صراع أو ثورات أو عصيان. ومن أقواله: "إذا كنت أقبض الثورة بيدى، فسأظل قابضا عليها حتى ولو أدى ذلك إلى موتى فى المنفى".

**(٢٥) الأبدية والكواكب:**

ونجد أن أوجست بلانكى (١٨٠٥-١٨٨١م) كان على النقيض من كابيه، حيث لا يستنكر الثورة وفى الوقت نفسه يؤمن بإمكانية تعاون الطبقات. وقـــد هـــاجر بلانكـــى الاستغلال، سواء فى الملكية أم فى الصناعة، واحتقر الثورة على اســـاس نظرتـــه إلى وســـائل الحصول عليها.

وقد تنبأ بلانكى بانهيار البرجوازية وسيطرة البروليتاريا، الامر الذى جعل أفكـــاره تقترب إلى حد كبير من الأفكار الاشتراكية الماركسية، وقد أصر على اعتبارها متميزة عنـــها وعن أفكار برودون، وهذه الأخيرة كانت محل انتقاده. ومما يقوله فى هذا الصدد "لقد حدث الخلاف بين الاشتراكية البرودينية والاشتراكية الأخرى، فسقطت كل منهما صرعى فى ســـنة ١٨٤٨م. إن الانتصارات ليست عملية يمكن أن تتم فى يوم. لقد وقفت الاشتراكيتان أمـــام شاطئ النهر، واحتدم الجدل بينهما حول ما إذا كان الحقل الواقع على الشاطئ الآخر مزروعاً قمحا أو ذرة. وركبت كل منهما رأسها وأصرت على رأيها. وكان الأجدى أولا أن نعـــبر النهر وهناك سوف نرى.

(٢٦) الفرد وملكيته:

ذلك هو عنوان المؤلف الذى كتبه جوهان شميدت الذى عرف باسم ماكس شـــتيرنر (١٨٠٦-١٨٥٦م)، حيث نجده يدافع فيه عن الفرد وقدرته فى انطلاق المجتمع بأســـره فى أى مجال من مجالات الحياة، وأن الاستبداد ما هو إلا استغلال يجعل الناس معجبين أشـــد العجـــب بطاقاقم الفردية ودورها الخلاق.

ويرى شتيرنر أن الدولة تكون فى تناقض مع "أنا" الفرد، وتكون عقبة فى طريق انطلاق طاقتها. والتفسير نفسه الذى يقوم عليه موقف شتيرنر من الدولة ينطبق علـــى موقف المؤيد للملكية الفردية.

ويعتقد شتيرنر أن تنظيم العمل المحرر للفرد من الأعمال الماديـــة المرهقـــة إلى الأعمال الفردية الخلاقة يؤمن المجتمع القائم على أساس المشاركة الخاضعة لسيادة "الأنا".

ومن هنا نستطيع أن نقول إن شتيرنر قد هدف إلى القضاء على جميع اشـــكال الحكم السياسى.

وقد رأى ماركس فى أفكار شتيرنر مجرد تفسير للمجتمـــع الرأسمـــالى وبنائـــه الاقتصادى على اسس فردية جديدة.

**(٢٧) لا عيش بدون تطور:**

ومن أوائل الاشتراكيين الروس فيساريون بلينسكى (١٨١١-١٨٤٨م). وقـــد اشترك مع جماعة من المفكرين أمثال الكسندر هيرزن ونيكـــولاي دوبـــر وليوبـــوف ونيكولاى تشيزنيفسكي فى الدفاع عن حقوق الفلاحين. كـــذلك دعـــا إلى التجـــدد والتنمية الاجتماعية. وفى رأيه أنه لا عيش بدون تطور ولا تقدم بدون تطور.

**(٢٨) الحياة بالعمل:**

يحمل هذا العنوان أحد المؤلفات التى قـــام ف – فيـــدال (١٨١٢-١٨٧١م) بتأليفها، والتى دعا فيها إلى توفير السعادة عن طريق "علم المجتمع". ويرى أن الفلـــسفة والاقتصاد والسياسة تتعاون معا وتتعاضد لتشكل علم المجتمع المحقق للرفاهية، ذلـــك أن الاحتياجات المعنوية هى موضع دراسة الفلسفة. وعن طريق علم السياسة يمكن تحقيـــق النظام، أما علم الاقتصاد فيقوم بتوفير المطالب المادية. ويرى فيدل أن السبيل إلى حـــل المشاكل التى تعترى المجتمع إنما يكون عن طريق تنظيم المجتمع وتوزيع الثروة.. ولم يدع فيدل إلى الثورة لتحقيق النظام الاجتماعى الجديد، بل نراه يكتفى بالـــدعوة إلى توعيـــة طبقات الشعب دون استثناء، واستخدام العطف والعقل والبعد عن العنف.

**(٢٩) العاصمة والحياة:**

أ – لاوتـــــزي:

ولد لاوتزي بالصين خلال عام ٦٠٤ ق.م، ويبدو أنه صـــابح أول مـــذهب يتضمن نزعة فوضوية فى تاريخ الفكر البشرى. وكان ينشر أفكاره ومعلوماته بين طلابه ومريديه الذين قصدوه فى ملاذه فى جبال لنج بو بعد أن اعتزل أمانة المكتبة الملكيـــة فى كاو.

وبفضل تلميذه شوانج تزي حفظت أفكاره، حيث قام شوانج بتدوينها، الأمر الذى أثر عميقا فى الفكر الصينى، وهى – بالواقع – تكون عقيدة فكرية أطلق عليهـــا اسم التاوية، وهذه العقيدة تعتبر أن "الظروف الخارجية تمنع الإنسان من إنماء فـــضائله وإظهار مزاياه الأخلاقية، وأنه لابد من إزالة العقبات القائمة عن طريق إنمـــاء فـــضائله وإظهار المزايا الشخصية. وقد كانت التاوية من العقائد الدينية الاجتماعية التى كانـــت تدعو لإقامة مجتمع بدون حكومة، ولذلك يمكن أن نعتبرها أول مذهب فوضوى النزعة فى التاريخ.

**ب– قانون البر الجديد:**

وفى عام ١٦٤٩ يصدر كتاب "قانون البر الجديد" لجيرارد ونـــستافلي الـــذى نعتبره رائد "جماعة الحراثين" الذين استطاعوا أن يسبقوا غيرهم إلى الكثير من الأفكار التى قام كروبتكين بإعلانها فى كتابه "التعاون المتبادل" وبعض آراء باكونين، وغيرهـــا مـــن زعماء المذهب الفوضوى وكبار مفكريه.

**ج– العدالة السياسية:**

كان – ولا يزال – كتاب "العدالة السياسية" الذى أصدره ولـــيم جـــودين (١٧٥٦-١٨٣٦م) فى عام ١٧٩٣ مرجعا مهما من مراجع التفكير الفلسفى الفوضوى،

حيث تظهر – بوضوح – التبريرات الفوضوية لدعوتها إلى إلغاء الحكومة وتعديل نظـــام الملكية، بالإضافة إلى دعوتها إلى الحرية. وقد كان جودين يعتبر ان النظام الفيدرالى هـــو أفضل الأنظمة وأنسبها لإحلاله محل الحكومة السياسية، التى هى – من وجهة نظـــره – الآلة الوحشية التى كانت العلة الدائمة لمساوئ البشر.

**د– عقود الأحرار:**

وقد رفض برودون (١٨٠٩–١٨٦٥م) الحكومة والسلطة، ودعا لأن تحل محلها مجموعة من العقود بين الرجال الاحرار، بالإضافة إلى رفضه وجود الدولة وكل الألوان السياسية وصورها وأحزابها دون استثناء.

**هـــ– باكونين:**

ويرى ميخائيل ألكسندر (١٨١٤–١٨٧٦م) أن عالما جديدا بلا قوانين يكون فى حاجة ماسة إلى العاصفة والحياة. وبذلك يكون العالم الحر!.

ونجحد ألبير كامو يتساءل فى "الإنسان المتمرد": (لكنت، هل العالم بلا قوانين هو عالم حر؟... هذا هو السؤال الذى يواجه أى تمرد). ولو كان باكونين قـــد ســـأل نفسه هذا السؤال ما تردد فى المستقبل يصفه – دون أن يبالى – بالتناقض الكـــامن فى وصفه، ويصفه فى ج–مل حاسمة مستبدة. ونراه فى "دستور الأخوة الدولية" الذى وضعه بنفسه (١٨٦٤–١٨٦٧م) يضع الفرد فى مركز ثانوى بالنسبة للجنة مركزية. ونفـــس الشئ نراه فى الفترة التالية على الثورة، حيث نراه يتمنى فى أن يرى فى الروسيا – وقـــد قررت – "سلطة ديكتاتورية قوية.. سلطة يشد أزرها الفدائيون، وتضيئها نـــصائحهم وتحميها إرادتهم المتأزرة، لا يحدها شئ أو أحد.

وقد أسهم باكونين كثيرا – كما فعل ماركس – فى تشكيل المذهب اللينينى. وكان من أكبر احلام باكونين أن تقوم إمبراطورية ثورية سلافية، وهو نفس الحلـــم – بكل دقائق بحدوده – كما حققه ستالين.

وقد تبدو هذه التصورات، كما تتبدى من رجل كان من الحكمة، بحيث ذكر أن القوة الدافعة المحركة لروسيا هى الخوف، ورفض نظرية مـــاركس فى الديكتاتوريـــة الجزئية. وقد تبدو تصورات متناقضة، لكن هذه المتناقضات تدل على أن أصول مذاهب السلطة هى اصول فى أجزاء منها عدمية.

ونرى بيساريف يبرر أقوال باكونين، وكان الاخير يطلب الحرية المطلقة حقا، لكنه كان يرى أن تحقيقها بالدمار الكامل، بتدمير كل شئ: نستطيع أن نـــبنى بـــدون اساس، وأن نسند الأساس بعد ذلك بسواعدنا. لكن كل من يرفض الماضـــى برمتـــه، يرفضه ولا يستبقى منه شيئاً، وبذلك ينفخ الحياة فى الثورة، يسلم نفسه إلى المـــستقبل، ويعلن أنه لا ثقة له إلا فى المستقبل، وهو بذلك يسلم إلى الشرطة مهمة تبريـــر الوضـــع المؤقت. ويطالب باكونين بإقرار الديكتاتورية، لا لتعارض شهوته فى التـــدمير، لكـــن لتتمشى معها. ونرى أنه مادمت القيم الاخلاقية عنده قد تبلورت فى النفى الخالص، فإنه ما كان لشئ يستطيع أن يقف ضده، أو – على الأقل – مواجهته.

ولكن هل هذا كله استطاع أن يقدم شرحا وافياً لـــتفكير الفوضـــوية لـــدى باكونين؟! وماهو أنموذج الثورى الباكونينى؟

ونرى أن الصورة التى رسمها الكتيب المؤلف من بضع صفحات – والذى نشر فى روسيا عام ١٨٦٩ ونسب إلى بليشايف بعنوان "التعليم الثورى" – أفضل ما يعبر عن أنموذج الثورى الفوضوى الباكونينى: "إن الثورى رجل بذل نفسه، ليست لديه مـــصالح شخصية ولا شئون، لا شعور ولا صلات، فهو رجل لا يمتلك شيئاً ولا يحمـــل اسمـــاً. ونجده فى صميم ذاته نسف – بالفعل لا باللفظ – كل الروابط القائمة بينه وبين النظام

العام، فهو لا يملك إلا علما واحدا وهو علم التخريب والتدمير. أما المــشاعر العائليــة ومشاعر المودة والصداقة والحب – وهى مشاعر مثلى – فيجب الإطاحــة بهــا لــدى الثورى بواسطة تعلقه الأوحد والخالص من كل تأثر مما يحيط به بالعمل الثورى.

وقد كان باكونين – على حد وصف البير كامو فى كتابه "المتمرد" أحد ثلاثة "مموسين"، حيث ورد "عندما يكتب هيرزن مدافعاً عن حركته العدمية عن يقين بأنهــا الخلاص الأكبر للإنسانية من الأفكار الجاهزة". وعندما يقول "إننا غذ نمحــو الماضــى نرهص للمستقبل ونستولده"، فإنه فى ذلك يستخدم نفس لغة بيلنسكى، ويصف كوتيا ريفسكى الرايديكاليين المدعين فيقول عنهم إنهم أنبياء" يقولون بوجوب وضرورة نبــذ الماضى والعمل على إعادة بناء الشخصية الإنسانية طبقا لمخطط جديد. وقــد كانــت الخطوة التالية بعد هؤلاء الراديكاليين هى رفض التاريخ الكلية، والتصميم القوى علــى بناء مستقبل لا طبقا للروح التاريخية، بل طبقا لمشيئة "الفرد – الملك". لكن "الفــرد – الملك" لا يمكنه أن يرتقى إلى سدة الحكم دون مساعدة من الآخرين. وهكذا نجده يدخل فى تناقض عدمى، يحاول من بيساريف وباكونين ونيشاييف أن يحله، لكنه لا يفعل شيئا سوى أن يزيد من التحطيم والتدمير والسلب والنهب، لدرجة أن يفلح الإرهاب آخــر الأمر فى القضاء على التناقض ذاته فى حركة بارعة من التضحية والجريمة.

وفى رأينا أنه لا يمكن الإحاطة بفكر باكونين بمعزل عن التناقضات التى كانت بينه وبين معاصره كارل ماركس. وأن ما جاء فى التقديم المفصل الذى كتبه فرانــسوا ميتوز لمنتخبات من أعماله التأكيد على أنه لا يمكن دراسة فكر باكونين إلا على ضــوء فكر ماركس، على الرغم من أنهما كانا فى موقفين متضاربين أشــد التــضارب مــن بعضهما.

وبرأي باكونين أن الثورة عبارة عن عمل شعبى تلقائى مبعثه وعى الجمــاهير، وهو عمل معظمه خيالى والباقى واقع وتنظيم. وأن الثورة إنما فى العنف، ولا مجــال فى

ممارستها لأية مفاوضة أو تسوية أو مهادئة. أما آفاقها فإن من العسير — بل من المستحيل — تحديدها.

ومن هنا نرى منشأ التناقض بين باكونين وماركس حول العديد مـــن قـــضايا الثورة، ففى الذى كان فيه ماربكس يرى أن الأسلوب الثورى هو أسلوب علمى واقعى كانت وجهة نظر باكونين أن الأسلوب الثورى إنما يكون فى تحريض الجماهير على أن يقوموا بأعمال إرهابية ليس إلا، وعلى هذا فإننا نرى أن ثورة باكونين قد اكتسبت صفة "الفوضوية"، وبالتالى أصبحت هذه التسمية تقترن بذكره وذكر فكره. ومادام أنـــه لا أسلوب ثوريا فقد كان باكونين يعارض أى تنظيم ثورى رسمى قائم على اسس وقواعد والتزامات وتوجيهات محددة. وعلى هذا نرى أن باكونين كان يقتصر علـــى المبـــادرة الفردية، وإذا كان من الضرورى المشاركة، فالشكل الوحيد هو وجود جماعة متفاهمـــة على مواضيع معينة.

وقد أعلن باكونين مدى يأسه من الطبقة البرجوازية وثقته بالفلاحين والشباب والعمل. ونراه فى ذلك يقول: "فى المسألة البرجوازية وفى مجال البرجوازيـــة لـــست إلا سياسياً رديئاً، وصاحب تكتيك غاية فى السوء. وليس فى نيتى أن أكون غـــير ذلـــك". ويقول فى نفس الإطار: "إننى لا أثق إلا فى الطبقة العاملة فى أوربا الغربية، كما أثـــق فى الفلاحين والشباب المتعلم فى روسيا.

وفكرة الدولة — من أى نوع — مرفوضة تماما عند باكونين، بل نـــراه يـــدعو ويحث على القضاء عليهان حيث إن وجهة نظره أن الدولة تكون متعارضة مـــع مبـــدا الحرية، ويقول فى ذلك: "إن الدولة تستبعد الناس وتضطهدهم وتـــستغلهم، وتقـــضى عليهم بالحرمان تحت ستار تموينهم وتقويمهم. إننى أطالب بتنظـــيم المجتمـــع والملكيـــة الجماعية والاجتماعية من أسفل إلى أعلى عن طريق الاتحاد الحر، وليس من أعلـــى إلى أسفل بأى نوع من أنواع السلطة".

ومما يجدر بنا ذكره أن تناقض الفوضوية مع الماركــسية لا يعــود ســببه إلى الاختلاف في مصادرهما، بل على العكس من ذلك تماما، إلى وحدة مــصدرهما، وهــو التفكير الهيجلي!.

وقد سلك التفكير الهيجلي تيارين: تيار فيورباخ وشترنر وبــاكونين، وتيــار ماركس إنجلز ولينين. وكان التيار الأول امتدادا تطوريا للتفكير الهيجلي. أمــا بالنــسبة للتيار الثاني، فلقد كان تخطيا للتفكير الهيجلي، وخلقا لمفاهيم واعتبارات جديدة. والتيار الثاني هو التيار الماركسي.

وعلى كل نرى أن باكونين قد أقر بأن الإنتاج ملك للمجتمعات التعاونية التي تتالف من العمال.

**(٣٠) كارل ماركس:**

ونجد من الضروري أن نعترف أنه من غير الممكن الإحاطة بــتفكير مــاركس السياسي في الصفحات التالية المعدودة، لذلك فإننا لا ندعي أن مــا نــورده يتجــاوز الملاحظات العابرة.

أ- الديالكتيكية المادية:

ارتبط ديالكتيك هيجل بالمطلق، والمطلق في الديالكتيك الهيجلي هو المنطلــق وهو النهاية. ولما كان المطلق هو – بحد ذاته – معتقد، لذلك كانت ديالكتيك هيجــل منهجا ومذهبا في الوقت نفسه.

ولما جاء كارل ماركس (١٨٨١-١٨٨٣م) أخذ من ديالكتيك هيجل المنهج، وقام باستبعاد المذهب على اساس أنه تصوري. وكن ليس معنى ذلك أنه استبعد المطلق، ذلك أن ماركس – في الواقع – استبعد المطلق كمطلق، ولكننا نراه – في الوقت نفسه – قد اعتبر المطلق منتهى، وذلك على اساس أنه يمثل الارتقاء النهائي للإنسانية.

وقد كتب ماركس فى المقدمة الثانية لكتاب "راس يالمال" المنشور سنة ١٨٧٣:
"لا يختلف منهجى الديالكتيكى – فى الاساس – عن منهج هيجل فقط، بل هو علـــى النقيض تماماً، حيث إن هيجل قد اعتقد أن حركة الفكر التى يجسدها باسم الفكرة هى مبدعـــة الواقـــع الـــذى لـــيس إلا الـــصورة الظاهريـــة للفكـــرة LaFrome Phénomenale. أما وجهة نظرنا فهى على العكس من ذلك أن الفكرة ليست إلا انعكاس حركة الواقع، وقد انتقلت إلى ذهن الإنسان وعقله.

وفى كتابه "المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية" يعرف ستالين النزعة المادية عند ماركس، مبينا أن مادية ماركس تقدم على المبدأ القائل بأن العالم بطبيعته مـــادى، وأن اختلاف ظواهر الكون إنما هى جوانب مختلفة للمـــادة فى حركتـــها، وأن العلاقـــات والشروط المتبادلة بين الظواهر التى يكشف عنها المنهج الـــديالكتيكى هـــى القـــوانين الضرورية واللازمة لنمو المادة المتحركة، وأن نمو العالم يكون حسب قوانين حركة المادة، وهو فى غير حاجة لأى روح شاملة.

ومن هنا نجد أن ماوتسي تونغ قد انطلق فى مقال لـــه بعنـــوان "فى الممارســـة العلمية" (فى العلاقة بين المعرفة والممارسة العملية – العلاقة بين المعرفة والعمل) إلى القول بأن المادية – قبل ماركس – كانت نظرتها إلى قضية المعرفة بمنأى عن طبيعة الإنـــسان الاجتماعية، أو بمعزل عن تطوره التاريخى، ولذلك لم يكن فى استطاعتها أن تدرك تبعية المعارضة للممارسة العملية الاجتماعية، أى تبعة المعرفة للإنتاج والصراع الطبقى. أمـــا الماركسوين فإنهم يعتبرون – أولاً وقبل كل شئ – أن نشاط الإنسان فى الإنتاج، إنمـــا يشكل أهم نشاطاته العملية الأساسية، ويقرر نشاطاته الأخرى، فالإنسان – بالاعتمـــاد بصورة رئيسية على نشاطه فى الإنتاج المادى يتفهم تدريجيا ظواهر الطبيعة وخصائـــصها والقوانين التى تتحكم فيهان والعلاقة بين الإنسان وبين الطبيعـــة. وكـــذلك يـــتفهم – تدريجيا أيضاً – وعلى درجات متفاوتة عن طريق فى الإنتاج ما يـــربط بـــين الإنـــسان والإنسان من علاقات معينة. وليس فى استطاعته أن يحصل على أى معرفة مـــن هـــذه

المعارف بمعزل عن النشاط فى الإنتاج. ويردف ماوتسى تونغ قائلاً: "الماركسيون يعتبرون الممارسة العملية التى يباشرها الإنسان فى المجتمع هى وحدها المقياس الذى يختبر به ما إذا كانت معرفة الإنسان بالعالم الخارجى حقيقة أم لا". ونرى ماوتسى تونـــغ يستـــشهد بعبارة لينين فى ملخص "علم المنطق ليهجل": "إن الممارسة العملية أعلى مـــن المعرفـــة (النظرية) لأنها لا تمتاز بصفة وشمول فحسب، بل تمتاز كذلك بصفة الواقـــع المباشـــر". ويعتبر ماوتسى تونغ أن النظرية المادية الديالكتيكية عن عملية تطور المعرفة من معرفـــة سطحية إلى معرفة عميقة لم يتمكن أحد من الوصول إليها على هذا النحو قبل أن تظهر الماركسية.

**ب- المادية التاريخية:**

لقد استشهد بليخانوف فى كتابه "فلسفة التاريخ" بفقرة لمـــاركس وردت فى مقدمة مؤلفه "نقد الاقتصاد السياسى" كى ينطلق منها إلى عرض المفهـــوم الماركـــسى للتاريخ، حيث ورد: "لقد أفضلت أبحاثى إلى النتيجة التالية" لا يمكن تفسير العلاقـــات الحقوقية وأشكال الدولة لا بذاتها ولا بالتطور العام المزعوم للفكر البشرى، وإنمـــا هـــى تستمد جذورها من شروط الحياة المادية التى كان يفهمها هيجل تحت اســـم "المجتمـــع المدنى" La Societé Civile أسوة بالمفكرين الإنجليز والفرنسيين فى القرن الثـــامن عشر".

وعلى ذلك فإن الوضع الاقتصادى لشعب ما هو الى يقوم بتحديـــد الوضـــع الاجتماعى، والوضع الاجتماعى لذلك الشعب هو الذى يحدده بدوره وضعه السياسى والدينى، وهكذا.. أما سبب الوضع الاقتصادى فهو السبب الأساسى لمجموع التطـــور الاجتماعى، وبالتالى لكل حركة تاريخية، هو الصرع الذى يخوضه الإنسان مع الطبيعة فى سبيل وجوده.

ويوضح بوليتزر، بيس، وكافين فى "أصول الفلسفة الماركسية" هـــذا المفهـــوم بتعريف المادة التاريخية بأنها النظرية العامة لطرق الإنتاج، وإن العلم الخـــاص بـــالقوانين الموضوعية التى تقوم بالسيطرة على علاقات الإنتاج بين الناس هو الاقتصاد الـــسياسى، وأن موضوع علم التاريخ هو اللعاقات المتبادلة بين الطبقات المختلفة التى تتمثل فيها هذه العلاقات للإنتاج، سيما علاقاتها السياسية.

## ج- رأس المال والبيان الشيوعى:

يعتبر كتابا "رأس المال" و"البيان الشيوعى" الإنجازين الفكـــريين الرئيـــسين فى إنتاج ماركس الفكرى المليئ بالعديد من الأبحاث والدراســـات والمؤلفـــات فى شـــئون الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة، منها: "مساهمة فى نقد فلسفة القـــانون عنـــد هيجل" سنة ١٨٤٤، "حول المسألة اليهودية" ســـنة ١٨٤٤، "الاقتـــصاد الـــسياسى والفلسفة" سنة ١٨٤٤، "العائلة المقدسة" سنة ١٨٤٥، و"الأيديولوجية الألمانية" ســـنة ١٨٤٥-١٨٤٦. وقد اشترك هيجل فى المرحلة الثانية مـــع إنجلـــز فى وضـــع "البيـــان الشيوعى" سنة ١٨٤٧، "الصراعات الطبقية فى فرنسا"، "مساهمة فى نقـــد الاقتـــصاد السياسى" سنة ١٨٥٩، خطاب افتتاح الأممية الاولى سنة ١٨٦٤، والحرب الاهليـــة فى فرنسا سنة ١٨٧١. وقد كتب ماركس "تاريخ المذاهب الاقتـــصادية" بـــين ١٨٦١-١٨٦٥، وكتب "راس المال" بين ١٨٧٦٤-١٨٧٦.

وانطلاقاً من الديالكتيكية فإنه يمكننا عرض بعض معـــالم الفكـــر الـــسياسى لماركس.

### نشأة السلطة السياسية:

براى ماركس أن أداة الإنتاج قد فقدت الغاية من وجودها ووظيفتـــها لـــسد حاجات الإنسان، حيث إن العمل وهو العامل المكون لقيمة الأداة الإنتاجية قد نزعـــت منه نتائج مجهوداته. وفى تحليل ماركس لنشأة السلطة السياسية ووجود طبقة حاكمـــة

مستبدة نجد أنه يعتبر أن العمل – كوسيلة إنتاج – ظل يؤدى غايته حتى ظهرت النقود وأصبحت معياراً ومقياساً للقيمة. كانت السلعة تبادل بنقود، وهذه النقـــود بـــدورها كانت تعتمد للمبادلة بسلعة جديدة. ولكن هذه النقود فقدت قيمتها كوسيلة فى التبادل وأصبح لها قيمة بذاتها. وبذلك نجد أن النقود قد أصبحت لغاية تكوين الثروة الفردية.

**التوسع الذاتى لرأس المال وفائض القيمة:**

وقد كان من اللازم والضرورى حصول ما يسمى "فـــائض القيمـــة" نتيجـــة لاستخدام رأس المال للعمل والحصول منه على ما يفيض على حاجتـــه – رأس المـــال الطفيلى – وذلك بإطالة يوم العمل وزيادة طاقة الإنتاج فى الوحدة الزمنيـــة، وتحقيـــق فائض١ داخلى فى نظام الإنتاج وتعميم نظام التخصص وتقسيم العمل.

**الصراع الطبقى:**

وقد كان من نتيجة ذلك أن حول رأس المال العمل الفردى إلى عمل جمـــاعى مشترك، الأمر الذى تطلب زيادة حجم رأس المال من جهة، وأدى إلى زيادة الإنتاج من جهة اخرى. وحتى يتم تحقيق ذلك كان من الضرورى زيادة عدد العمال. ومن المؤكد ان تؤدى زيادة عدد العمال إلى ازدياد قوة طاقة المقاومة والمعارضة لسلطة راس المـــال. وهنا نجد بروز الصراع الطبقى لغاية تحقيق الإشراف الاجتماعى على العملية الإنتاجية.

**الطبيعة البشرية:**

وفى الواقع أننا نجد أن ماركس عندما تناول خصائص النظام الرأسمالى التى اشرنا إليها كان على ضوء بحثه "الطبيعة البشرية". ويرى ماركس أن الإنسان هـــو حيـــوان اقتصادى أكثر من كونه حيوانا سياسياً، وأن التطور الذى وصلت إليهـــا الإنـــسانية فى مواجهتها للتغييرات المتلاحقة والمتسارعة فى الحياة المتطورة واستجابات حاجاتها، إنمـــا كان عن طريق اختراع الإنسان للادوات ثم للآلات والعمل على تطويرها.

وفى الاساس فإن العمل البشرى عبارة عن عملية تجرى بين الإنسان والطبيعــة للسيطرة على مواردها والعمل على تنظيمها، وأن تمكن الإنسان من تغيير الطبيعة إنمــا يؤدى فى الوقت نفسه إلى تطوير الإنسان ويعمل على تنمية ملكاته وقدراتــه الكامنــة وجعله قادراً على السيطرة على هذه الملكات، وإخضاعها لإشرافه التام. ومن هنا كان الإنتاج المادى هو اساس الحياة الاجتماعية بأكملها. وفى الواقع فإن النظم الاجتماعيــة تشبه المخلوقات من حيث التطور من البسيط إلى المعقد. وكان تقسيم العمل هو السبب الرئيسى فى قيام التخصص الذى أدى إلى التعاون فى سد الحاجات بين الاختــصاصات بعضها مع البعض، وزيادة القدرة على سد الحاجات المتعددة، الأمــر الــذى أدى إلى ارتباط الطبقات الاجتماعية ببعضها بسبب حاجتها إلى تباد لمنتجاتها.

**تحقيق الإشراف الجماعى على وسائل الإنتاج:**

والثورة هى التى تؤدى إلى تحقيق الإشراف الجماعى على العمليــة الإنتاجيــة، وبعبارة أخرى نقل الإنتاج ومكاسبه من الفرد إلى المجتمع.

ونجد أن ماركس قد خلص إلى ذلك على ضوء أربع نتائج حددها ماكنتاير فى مقال له عن ماركس، وهى كما يلى:

- أن الأشكال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تتالف منها وحدة المجتمع هى الدليل الذى يشير إلى وجود طبقة مسيطرة، وإلى وجود توترات بــين الطبقات المختلفة، وإلى معارك ينبغى على الطبقة الحاكمة خوضها.

- أن سر العلاقات السياسية والاجتماعية هى العلاقة بين البرجوازيــة والطبقة العاملة.

- أنه لا يمكن فهم أى نظرية سياسية بمعزل عن إطارها فى الصراع بين الطبقات.

– أن نضال الطبقة العاملة ضد البرجوازية إنما هو فى حقيقتــه نــضال سياسى، والنضال السياسى لا يمكنه تخطى الحدود التى تقيمها مرحلــة معينــة فى التطور الاقتصادى.

**(٣١) فردريك إنجلز:**

ولولا فردريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥م) ما أمكن نشر الجزأين الثانى والثالــث من "رأس المال" لماركس، ففى عام ١٨٨٥ قام إنجلز بإصدار الجزء الثــانى مــن "رأس المال"، وفى عام ١٨٩٤ أصدر الجزء الثالث. وفى الوقت نفسه كان إنجلز يعــد كتابيــه "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة و"لودفيغ فيورباخ – نهايــة الفلــسفة الألمانيــة التقليدية" الذى قام فيه بإيضاح الفوارق بين القوانين الموضوعية فى جمــال الطبيعــة وفى مجال التاريخ والمبادئ الأساسية للمادية الديالكتيكية والمادة التاريخية.

**المادة الديالكتيكية وديالكتيكية الطبيعة:**

وإذا كان إنجلز قد أعلن – دون تردد – أن ما أسهم به مع مــاركس كــان باستطاعة مراكس أن يحققه دونه، وأن ما قام بإنجازه مع ماركس لم يكن بمقدوره تحقيقه بدون ماركس، وأنه لولا ماركس ما كان لنظرية المادة الديالكتيكية من وجــود، فــإن الفضل فى بحث النظرية فى مجالى العلوم الطبيعية والرياضية يعود لإنجلز، حيث إن كتابــه "جدليات الطبيعة" فى الحقيقة هو الجانب الآخر مــن كتــاب "رأس المــال" لكــارل ماركس... وإذا كان ماركس قد قام بتحديد القوانين الجدلية الأساسية فى المجتمع، فإن إنجلز يحدد فى كتابه هذه القوانين الجدلية فى الطبيعة. وبهذا نعتبره تتميما لكتــاب "رأس المال" وتعميما لمبادئه الأساسية، وتأكيدا للمادية الجدلية فى مجال العلوم الطبيعية.

**البيان الشيوعى:**

ومهما يكن تسليمنا بقول إنجلز نسبة إسهامه مع ماركس، فمن الضرورى أن نشير إلى أن البيان الشيوعى الذى أصدره مع ماركس ١٨٤٨ يحتوى على خلاصة المنهج الفكرى النظرى والعملى لكل منهما.

ولابد أن ننوه بالدور الذى قام به إنجلز فى إعداد كتاب "الأيديولوجية الألمانية" الذى اشترك فى تأليفه مع ماركس عام ١٨٤٥.

و لم يغفل تاريخ الفكر الفلسفى والسياسى الإشارة إلى أهمية المؤلفات التى قـــام إنجلز بتأليفها منفرداً، مثل: "حالة الطبقة العاملة الإنجليزيـــة"، "معارضـــة دوهـــرنج"، و"فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية التقليدية".

**(٣٢) تدخل الدولة:**

ترجع أهمية الفكر السياسى لفرديناند لاسال (١٨٢٥-١٨٦٤م) إلى نظرتـــه العملية فى دور الدولة، وتدخلها فى جميع شئون المجتمع حتى يمكنها القضاء على مساوئه، إذ أنه يرى أن الدولة إنما وجدت – فى الواقع – لتحقيق الحرية ومقاومة الظلم، والقضاء على البؤس والجهل والعوز والعنف، ذلك أن الفرد وحده يكون عاجزاً عن القيام بهـــذا الدور، ولذلك فإن الضرورة تحتم الاتحاد، والدولة ما هى إلا صورة لهذا الاتحاد.

وقد قام لاسال بتقسيم تاريخ الجنس البشرى إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى هى المرحلة البدائية، وفى هذه المرحلة التى سادها الإقطاع تحقق الاتحاد، ولكن بهـــدف إخضاع العامل والفلاح. ومع نشوب الثورة الفرنسية ١٧٨٩ بدأت المرحلة الثانية، ونجد فيها انتقال الحكم إلى الطبقة الرأسمالية والطبقات المتوسط'ن وكانت الغاية هى تحطـــيم الاتحاد القديم الى كان يرمى إلى إخضاع العامل والفلاح لتحقيق الحرية. وفى عام ١٨٤٨ جاءت المرحلة الثالثة، وكانت غايتها أن توفق بين المرحلتين، والتضامن والحرية، وتحقيق

ذلك إنما يكون عن طريق إنشاء جمعيات إنتاجية من العمال متحدة، وتكون خاضـــعة لإشراف الدولة وتوجيهها.

**(٣٣) الديمقراطية الكاملة:**

يعتبر كارل كاوتسكى (١٨٥٣-١٩٣٨م) من أهـــم مـــن قـــاموا بـــشرح الماركسية، حيث إنه تناول فى كتابه "برنامج العمل" — الذى يعتبر من مراجع الفكـــر الماركسى — قضية التعاون الاختيارى فى تغيير البنيان الاقتصادى للمجتمع، وضرورة اطراد الزيادة فى الوحدات التى تسطير على الإنتاج، ويعتبر كاوتسكي من رواد تخطـــيط الصناعة على النطاق العالمى والقومى.

وقد حاول كاوتسكى أن يؤلف بـــين الماركـــسية الأصـــلية والاشـــتراكية والديمقراطية. وبذلك نراه قد ذهب إلى اتجاه يخالف اتجاه "البيان الشيوعى" والمخطـــط اللينينى "المذهب الثورى العالمى". ولما كان كاوتسكى يرى اختلافـــا بـــين الـــشيوعية والماركسية، فقد اعتبر أن الثورة الاشتراكية قد تتحقق بشرط أن يحدث ذلك عن طريق الأساليب الديمقراطية. وتستطيع الحركة الاشتراكية أن تكسب الأغلبية الشعبية عن طريق الديمقراطية، وبذلك تتمكن من إحداث الثورة.

وبرأى كاوتسكى فإن غاية الثورة هى تحقيق الديمقراطية الكاملة لا دكتاتورية البروليتاريا كما ذهب لينين. وقد فصل كاوتسكى فى كتاب "دكتاتورية البروليتاريـــا" وجهة نظره فى الديمقراطية الكاملة، معتبرا ثورة أكتوبر ثورة برجوازية، كان إنجازها فى نقل الملكية من الإقطاعيين إلى الفلاحين.

ولكننا نرى أن كاوتسكى قد اقر بأن تخطيط الصناعة قد يمهـــد الطريـــق إلى الاشتراكية.

**(٣٥) مساهمة فى تاريخ المادية:**

وبرغم موقفه من البلشفية ولينين، فإن تاريخ الفكر السياسى لم يغفل أن يذكر فكر جورج بليخانوف (١٨٥٧-١٩١٨م). وقد بدأ موقف بليخانوف سلبيا وأصـــبح قطعية ثم نراه ينتهى إلى خصومة، وذلك فى كتابه "الانهزامية البلشفية".

ولا يستطيع الفكر السياسى الاشتراكى إلا أن يذكر الأفكار الفلسفية التى جاء بها بليخانوف، وكذلك توضيحه لأهم مواضع الفلسفة الماركسية: التـــاريخ والمفهـــوم المادى للتاريخ. وعلى هذا فإننا نرى أن لينين لم يتردد فى القول (١٩٢١) - على حد ما جاء فى الترجمة العربية لكتاب بليخانوف – رغم الموقف الذى اتخذه منـــه: "لا يمكـــن للإنسان أن يصبح شيوعيا حقيقيا واعياً، ما لم يدرس كل ما كتبه بليخانوف فى الفلسفة، لأنه خير ما يوجد فى مجمل نتاج الفكر الماركسى فى جميع البلدان".

ولا جدال فى أن مؤلفات بليخانوف "مساهمة فى تـــاريخ الماديـــة"، "الماديـــة النضالية"، "مسائل أساسية للماركسية"، "تـــاريخ الاشـــتراكية"، و"مقدمـــة للتـــاريخ الاشتراكى الروسى" هى خير دليل على قول لينين.

وقد بين بليخانوف أن مذهب ماركس الثورى يعكس بأمانة قـــوانين تطـــور المجتمع، وهو وليد ذلك التفحص الانتقادى لتراث الماضى النظرى وتنميته والعمل علـــى تطويره فى سياق منهجى علمى. ويذكر بليخانوف فى مؤلفه "مقدمة للتاريخ الاشتراكى لاروسى" أنه خرج من الفكرة الأساسية للمادية التاريخية برأى هو أن الوعى لا يحـــدد الإنسان، ولكن الإنسان هو الذى يحدد الوعى.

وقد حدد بليخانوف العناصر التى تتكون منها المادية التاريخية، وهى كما يلى:

- تكوين القوى المنتجة.
- العلاقات الاقتصادية التى يخضع لها.
- النظام السياسى – الاجتماعى القائم على القاعدة الاقتصادية المحددة.

- سيكولوجية الإنسان الاجتماعى.
- القاعدة المختلفة.

ويوضح بليخانوف – من خلال تحليله لكتاب انطونيـــو لابريـــولا – بعـــض القضايا الاساسية فى المادية التاريخية والعوامل التاريخية والمفهـــوم العلمـــى للمجتمـــع والارتباط بينهما، طبيعة الدول ودورها، نقد الفكرة العنصرية، التفاعل القائم بين مظاهر الحياة الأيدلوجية، قوى الإنتاج وعلاقاتـــه، ودور العلاقـــات الاقتـــصادية، والمـــصالح الاقتصادية.

وبرأى بليخانوف أن القفزات التى يقوم بها التاريخ تتم بلا هوادة أو رفق، وأن التاريخ حافل بهذه القفزات، والتى بدونها لما كانت مراحل الانتقال والتطور التـــاريخى. وقد اعتبر بليخانوف ان التطور الاقتصادى لا بد أن يؤدى إلى الثورة الـــسياسية الـــتى تكون نتيجتها التأثير على النظام الاقتصادى، وأن النظم الاجتماعية ما هـــى إلا وليـــدة الصراع بين الطبقات المستغلة والطبقة المستغلة.

وفى كتابه "الفوضوية والاشتراكية" نراه ينتقد كلا مـــن شـــترنر وبـــرودون وباكونين والفوضوية عموما، حيث يوضح أن الفوضويين لا يريدون – فى الواقـــع – فصل الطبقة العاملة عن مستغليها فحسب، بل إنها يرمون إلى الحيلولة بين البروليتاريـــا وبين الوصول إلى حقوقها السياسية.

**(٣٥) أوهام النقد:**

وقد كان جورج سوريل (١٨٥٧-١٩٢٢م) من أشد المناهضين الماركـــسية، حيث نراه يخص أحد مؤلفاته "تحليل الماركسية" بانتقادها قائلاً: "إن الماركسية بذريعـــة أنها اصبحت تعتمد على السرية وتتجنب العلنية قـــد وصـــلت إلى مرحلـــة الانهيـــار والتلاشى". وكان سوريل من أقطاب الفكرة النقابية (السندكالية) التى عمـــت أوربـــا

وأمريكا فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، والـــداعين إلى اســـتقلال وانفصال نقابات العمال والمهنيين عن الأحزاب والسياسيين.

وقد نالت الديمقراطية – بدورها – حظها من انتقادات سوريل، حيث نجده فى كتابه "غفلاس العالم القديم" يقول: "إن فلسفة القرن التاسع عشر قد قادت العـــالم إلى إيمان وهمى بالديمقراطية"، فالديمقراطية كانت محل انتقاد سوريل واستنكاره.

وقد أنكر سوريل فى كتابه "أوهام التقدم" قدرة العقل وطاقته كوسيلة للعمـــل الاجتماعى، ونفى مفهوم التقدم كحقيقة موضوعية.

وفى كتابه "تأملات فى العنف" اعتبر الإضراب العام من أنجع الوسائل للإطاحة بالأنظمة. وقد دعا إلى الإطاحة بالأنظمة وخاصة البرجوازية، دون أن يحـــدد النظـــام الأفضل برأيه.

**(٣٦) قاع الكون:**

ويذكر العالم الاجتماعى ليفى برول أن جان جوريس (١٨٥٩-١٩١٤م) قد شرحك فى كتاب له لأحد اصدقائه: (أنه قبل ان يعمل فى السياسة "يحاول أن يلمـــس قاع الكون"). ومن هنا كان عمله السياسى قائما على تفكيره الفلسفى،حيث تجلى ذلك فى مؤلفاته، ومنها "حقيقة العالم الملموس"، "خطب برلمانية"، و"دراسات اشتراكية"...

وفى رأينا أن جان جوريس كان همه الأكبر هو تحقيق الاشتراكية عن طريـــق الديمقراطية، ولذلك كان يحلم بإمكان تحويل الحزب الجمهورى إلى الاشتراكية، و لم تكن الماركسية قد تطورت على يد لينين. وكان جوريس مؤمنا بأن البلانكيـــة (نـــسبة إلى أوجست بلانكى) قد فقدت قيمتها، حيث لم يعد بالإمكان العمل على تغيير النظام من أجل تحقيق مبادئ الأقلية. ولكن من الضرورى كسب الأغلبية الـــساحقة فى حلـــف التقدم، ومتى تخرج من الفوضى والبلبلة التى تقع فيها، وأنه يمكن إبعاد البروليتاريا عـــن

الصنف من خلال فكرة كسب الأغلبية، ولذلك نرى أن جوريس قـد وضـع فكـرة التنظيم الجامع للبروليتاريا محل الصنف، وإمكانية تدخل الدولة بدلا من الأفراد لتنظـيم الاقتصاد. وعن طريق النظام الديمقراطى الشامل والمتطلع يمكن أن تـرتبط الاشـتراكية بالديمقراطية التى تتحقق عن طريق النظام الجمهورى الذى هو انسب النظم مـن أجـل ذلك.

**(٣٧) الأحمســا:**

"الأحمسا" أو اللاعنف الإيجابى، وبعبارة أخرى الحب فى أسمى صـوره، هـو المنطق للأفكار التى جاء بها "موهانداس كرمشند غانـدي" المعـروف باسـم المهاتمـا (١٨٦٩-١٩٤٨م)، والذى لم يتردد لويس فيشر بتسميته "التأثر القديس".

ومن أقوال غاندى "إن عدم العنف هو أعظم القوى فى خدمة الجنس البشرى، إنه أقوى من أقوى سلاح للتخريب ابتدعته عبقرية الإنسان". وإن الشرط الأول لعـدم العنف – برأى غاندى – أن تشمل العدالة كل ناحية من نواحى الحياة. إن عدم العنف هو التحرر من الخوف، ذلك لأن العنف ليس سوى الوسيلة للـصراع ضـد سـبب الخوف١ ومن عدم العنف يستخرج غاندى قانونا ساميا للحب، فعدم العنف ليس حب من يحبنا، بل هو حب من يكرهنا.

والتاريخ البشرى – برأى غاندى – يتدرج فى الأسمى، حيث كان الإنسان فى فجر التاريخ من أكلة لحوم البشر، ثم جاء الوقت الذى سئم فيه هذا الطعام، فأخذ يعتمد على الصيد، ثم اعترى الخجل الإنسان من حياته كصياد، فابتكر الإنتاج فى شكله الأول وهو الزراعة، وبذلك انتقل الإنسان من طور التنقل من مكـان إلى مكـان إلى طـور الاستقرار، الأمر الذى أدى إلى نشأة الحياة المدنية وتأسيس المدن والقرى. وبعد أن كان الإنسان عضوا فى أسرة أصبح عضوا فى أمة. وكل ما سبق علاما على تقدم الإنسان نحو الأحمسا. ولو أن ذلك لم يحدث ما كان للجنس من وجود. إن الإنسان يتسم بـالعنف

بوصفه حيوانا، وبعدم العنف بوصفه روحاً. وفى اللحظة التى يستيقظ منها على وجـــود الروح لا يمكنه أن يظل على تمنعه.

ونجد إصراراً من غاندى على اعتبار أن المحل الأساسى فى السياسة والـــشئون الدينية إنما يكون بعدم العنف، ذلك أن الذى يؤمن بمبدأ العنف لا يمكنه أن يمنع نفسه من ان يثور على الظلم الاجتماعى والتمييز بين الطبقات أينما وجد، وهـــو الـــذى يحـــرم الاستغلال فى أى صورة من صوره تحريما كاملاً.

وعلى أساس الحب قال غاندى: "الحب والملكية القاصرة على صاحبها أمران لا يتفقان، فمن الوجهة النظرية، فحيثما وجد الحب انتفى وجود الملكية، فالجسد هو آخر ما نملك. والرجل يستطيع أن يمارس الحب الكامل وتجريد نفسه من كل ملكية إذا كان على استعداد لمعانقة الموت، والتخلى عن جسده فى سبيل خدمته للإنسانية، ونستطيع أن نقول إن هذا صحيح ولكن من الوجهة النظرية فقط، أما فى الواقع فإن الحب الكامـــل يكاد يكون ضربا من المستحيل، حيث إن الجسد بوصفه ملكا لنا، سوف يبقـــى معنـــا دائما. إن الإنسان سيظل غير كامل على الدوام، وبذلك سيكون دوره دائماً السعى نحو الكمال، وعلى هذا سوف يظل الكمال فى الحب وعدم الملكية مثلا أعلى يستحيل بلوغه ما دمنا أحياء وبالرغم من ذلك فواجبنا هو السعى الدائب لبلوغ هذا الهدف".

وقد دعا غاندى إلى المساواة فى توزيع السلع، ولكنه استدرك على أساس أنـــه يجد ذلك مستحيلا فدعا إلى توفير العدالة فى التوزيع، وأن تامين ذلك يكون عن طريـــق تمكين كل فرد من الحصول على عمل يستطيع عن طريقه سد حاجاته مـــن إيراداتـــه. وبرأيه أن ذلك أمر لا يمكن تحقيقه إلا بوضع الوسائل التى تنتج السلع الضرورية تحـــت سيطرة الشعوب. ويرى غاندى أن الإنسان إذا حصل على ما يفوق حاجته فهو سارق، وأنه لولا ذلك لما كان هناك الفقر والحاجة والعوز. ويستدرك غاندى فيقول: "إنـــى لا

أريد أن أجرد أحدا من ملكيته، فلو فعلت ذلك كنت مخالفا لمبدأ الأحسا، فــإذا كـــان هناك من يملك أكثر مني فلندعه يملك، ولكن طبعا للحدود التي أنظم بها حياتي".

وعلى حد وجهة نظر غاندى فإن المضمون الرئيسى "للمساواة فى توزيع الثورة هو إعطاء كل فرد من افراد المجتمع الوسيلة التي يتمكن عن طريقها من الحصول علـــى حاجاته الطبيعية ليس إلا. وللوصول إلى ذلك عن طريق عدم العنف هو أني قصر الفرد احتياجاته إلى الحد الادنى، وأن يتحرر فى كسب قوته عن طريق الغش وأن لا يلجأ إلى المضاربة.

وبرأى غاندى أن الفائض الكبير فى الثروة الذى يسيطر على الأغنياء هو مـــا يدعو إلى المساواة فى توزيع الثروة، ولا يجوز لهؤلاء الاغنياء أن يملكوا شيئا أكثـــر مـــن غيرهم.

ويرى اندى أن تحقيق ذلك يجب ألا يتم عن طريق حرمانهم من ممتلكاتهم، ذلك أن هذا لا يكون إلا باستعمال العنف، الامــر الـــذى يـــؤدى إلى انتـــشار الفوضـــى والاضطرابات، مما يلحق الاضرار بالمجتمع الذى سيفقد مواهب الرجال الذى يستطيعون أن يجمعوا الثروة.

وبرأى غاندى أن الحل إنما يكون فى ترك الرجل الغنى مالكا ثروته لينفق منها ما كان فى حد المعقول فى حياته، ويظل وصيا على باقى ثروته ليستخدمه فيما يعم بـــالخير على المجتمع. أما إذا رفض هؤلاء ذلك، فالحل يكمن فى عدم التعاون معهم، بالإضافة إلى إعلان العصيان المدنى، وهذه وسيلة مجحدية، على اعتبار أن الاغنياء ليس فى وســـعهم تحقيق الثروة بدون أن يتعاونوا مع الفقراء فى المجتمع.

وقد قام غاندى بالدعوى إلى تغيير ظروف العمل والاندفاع الجنـــونى لجمـــع الثروة واكتنازها، بالإضافة إلى تامين العمل الدائم للإنسان، الأمر الذى تصبح معه الآلة عونا كبيرا للإنسان، كما تكون عونا للدولة أو لمن يملكها.

وقد بنى غاندى رأيه فى الديمقراطية على أساس عدم اللجوء إلى العنف، وتـــراه يعتبر العنف وسيلة غير ذات جدوى لتحقيق الديمقراطية، حيث إن استعمال العنف عند ممارسة الديمقراطية تكون نتيجته زوال تلك الديمقراطية. والديمقراطى الحقيقى لا يـــدافع عن حريته إلا بالوسائل التى لا تشوبها شائبة من العنف. ذلك "أن حرية الفرد لا ازدهار لها إلا تحت نظام حكم الأحسا التى لا يدنسها دنس". والديمقراطية عنـــد غانـــدى أن أضعف الناس لهم تحت رايتها نفس الفرصة التى تكون لأقواهم، وذلك الأمر أيـــضاً لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق عدم العنف.

والسلطة السياسية عند غاندى ليست غاية، بل هى وسيلة يستطيع الناس عـــن طريقها أن يحسنوا من ظروفهم وأوضاعهم فى كل ناحية من نواحى الحياة، وهى تعـــنى تنظيم الحياة العامة فى الوطن عن طريق ممثليه. كذلك يعتبر غاندى أن النظـــام البرلمـــانى يكون صالحا عندما تتوافق إرادة البرلمان مع إرادة الأغلبية، وبعبارة أخرى أن مفاعيلـــه تتوقف على مدى الانسجام الحاصل بين الشعب ونوابه.

(٣٨) الدولة والثورة:

وعندما جاء فلاديمير ايليتش لينين (١٨٧٠-١٩٢٤م) أضاف إلى الماركـــسية عدة نظريات مهمة فى الاحتكار والاستعمار والحروب والدولة والقومية والتحالف بين العمال والفلاحين ودكتاتورية البروليتاريا والربط بين الثـــورة الاشـــتراكية وحركـــات التحرر الوطنى، وقلب مفاهيم الثورة التى كانت شائعة فى عصره مـــن عمـــل إرهـــابى فوضوى إلى عمل علمى فلسفى منظم يقوم على التوعية والتخطيط.

وفى الواقع فإن الإحاطة بجوانب فكر لينين السياسى غير ممكن فى هذه المعالجة، لذلك فإننا سنكتفى بإبداء بعض الملاحظات السريعة عن أبعاد الفكر اللينينى.

( أ ) الشعب صانع التاريخ:

كانت حركة الناردونيين (الشعبيين) هى التى سادت روسيا حتى الربع الثالث من القرن التاسع عشر. وكان هؤلاء يتخذون من الإرهاب وسيلة للثورة على القيصرية وتغيير المجتمع. وفى الوقت نفسه نراهم ينكرون على العمال دورهم، ويعتبرون الفلاحين وحدهم القوة الثورية، وكانوا يعتبرون أن إشاعة الرعب والخوف والذعر فى صـــفوف القيصرية والأتوقراطية فى روسيا عن طريق الأعمال الإرهابية هو السبيل لجعل هـــؤلاء يغيرون سياستهم.

وبرأى لينين أن حركة الناردونيين عقبة كئود فى طريق الثورة. وكان أول مـــا قام به فى هذا السبيل أن يناقش أفكار هؤلاء علميا، فوضع كتابه المشهور "مـــن هـــم أصدقاء الشعب؟" عام ١٨٩٤، حيث قام بتحليل الاوضاع الـــسياسية والاجتماعيـــة والاقتصادية فى روسيا، وقام بعرض نظرية الناردونيين التى تقوم على رفض الاعتـــراف بقوانين موضوعية تحكم حركة المجتمع، بالإضافة إلى اعتبارهم أن الإرادة الفردية هـــى المحورة لمجرى التاريخ. وقد اثبت لينين أن الشعب هو الذى يصنع التاريخ، ويربط بـــين دور قادة الشعب ومدى التفهم لقوانين المجتمع الموضوعية ورؤياهم الحقيقية فى التقـــدم واستجاباتهم لمصالح الشعب. ويؤكد لينين فـهى كتابه آنف الذكر أن النظرية الثوريـــة — وبرأيه النظرية الماركسية — هى التى تستطيع قيادة الثورة وذلك عن طريق الدراســـة والنشر والتنظيم. ونرى لينين يركز على الخبرة العملية التى تنتج عن الممارسة لما تـــضيفه على المكتبات النظرية من مجالات جديدة. وأخيراً دعا لينين إلى تكوين حزب ماركسى للعمال.

(ب) المرونة الثورية:

وبنظر لينين أن الناردونيين لم يكونوا وحدهم العقبة فى طرق الثورة، بل كانت هناك ايضا جماعة "الماركسيين القانونيين" الذى قاموا بتحريف — بطريقة ذكية — المفهوم المراكسى، حيث ادعوا التقدم فى الرأسمالية فى روسيا، وذلك انطلاقا من فرضية ماركس

فى أن الرأسمالية هى أكثر النظم الاجتماعية تقدماً، وأهملوا الصراع الطبقـــى والثـــورة الاجتماعية إهمالا تاماً. وقد قام لينين بانتقاد هؤلاء انتقادا علميـــا وحلـــل أفكـــارهم ووسائلهم وكشف تحويراهم فى التفكير الفلسفى.

وفى سبيل مصلحة الثورة اضطر لينين إلى أن يتحالف مؤقتا مـــع الماركـــسيين القانونيين، ومن هنا كانت نشأة نظرية إمكان التحالف فالمؤقت او الطويل مـــع القـــوى الاجتماعية السياسية الأخرى، ولكن بشرط المحافظة على الكيـــان الفكـــرى النظـــرى والعملى المتميز والممارسة الثورية المستقلة. ويتجلى ذلك واضحا فى دراسته الموقعة باسم "تولين" التى نشرت عام ١٨٩٥ مع مجموعة من الدراسات التى ساهم بها مجموعة مـــن الكتاب الناردونيين.

(ج) وحدة هدف الديمقراطيين والاشتراكيين:

وقد كتب لينين في عام ١٨٦٧ عن "واجبات الاشتراكيين الديمقراطيين"، حيث اعتبر أن مهمة الحزب هي واحدة سواء كانت اشتراكية أم ديمقراطية، ذلك أن الهـــدف هو تنظيم الكفاح الطبقي للبروليتارية في ناحيتين: ناحية ديمقراطية؛ تتجلى في الكفـــاح ضد الأتوقراطية والإقطاعية حتى يمكن تحقيق جمهورية ديمقراطية. أما الناحية الأخـــرى فهي اشتراكية؛ وهي الكفاح ضد الرأسمالية لتحقيق المجتمع ا لاشتراكي، وهما وجهان لا ينفصلان.

(د) مـــا العمـــل؟!:

بقيت الأداة .. الحزب القائد. وقد قام لينين في كتابه "ما العمـــل؟" بعـــرض أوضاع الحركة الاشتراكية الديمقراطية، وعالج المشاكل الأيديولوجية والتنظيمية للحركة الاشتراكية الديمقراطية في روسيا، وبين الأهمية النظرية للثورة والوعي والتربية الـــسياسية للطبقة العاملة، ودور الحزب القيادي، شارحاً ومعمقاً أشـــكال صـــراع الاشـــتراكية الديمقراطية التي بينها إنجلز، وهي الشكل النظري والشكل الاقتصادي والشكل السياسي.

(هـ) خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف:

وكثيراً ما تعاني الأحزاب من انشاقات داخلية تصل أحياناً إلى المس بكيانها.

وقد انقسم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروســي إلى (البولـشفيك والمنشفيك). وقد حلل لينين في كتابه "خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف" مغــزي هذا الانقسام، والخلافات القائمة حول التنظيم. كذلك تناول لينين مبــادئ التنظــيم الماركسي اللينيني وأسسه الفكرية، والنظرية القائمة على فهم طبيعة الحزب البروليتــاري ودوره الطليعي في قيادته الطبقة العاملة.

(و) الثورة ذات المراحل:

لا ريب أن "استراتيجية الثورة ذات المراحل" هي الخلاصة من دراســة ليــنين الشاملة المتعمقة للانقسام الحزبي. وقد خرج لينين من هذه الدراسة بنظرية تطور ثــورة البرجوازية والديمقراطية إلى ثورة اشتراكية، وذلك انطلاقاً من نظرية ماركس في الثــورة الدائمة والظروف التاريخية الجديدة.

(ز) الــدولــة:

وقد دافع لينين في "الدولة والثورة" عام ١٩١٧ عن التعاليم الماركسية بــشأن الدولة، وبين مهام البروليتاريا والفلاحين في سبيل قيام الدولة الاشتراكية، وهي:

(١) تحطيم جهاز الدولة القديم.

(٢) إقامة ديكتاتورية البروليتاريا وتركيز السلطة كلــها في يــد السوفيات (المجالس)، وذلك باعتبارها الأجهزة التي تمثل العمال والفلاحين.

(٣) إنشاء جهاز دولة قومي جديد، واستخدامه استخداماً فعالاً في سبيل إعادة بناء المجتمع على أسس اشتراكية.

وقد استنتج ماركس – اعتماداً على دراسته لكومونة باريس عام ١٨٧١ – أن الشكل السياسي للدولة الاشتراكية يجب أن يكون جمهورية على غرار كومونة باريس، وأن من أهم الواجبات التي تقع على كاهل الدولة الاشتراكية إعــادة البنــاء الثــوري للمجتمع، وتحرير جماهير الكادحين من الاستغلال.

وقد طور لينين مبادئ ماركس حول الدولة وشكلها، وأغناها بمحتوى جديد، حيث اكتشف في الظروف التاريخية التي مرت به روســيا شــكلاً جديــداً للدولــة الاشتراكية، وهو جمهورية السوفيات. وقد استطاع لينين أن يتوصل إلى هذا الاكتشاف اعتماداً على خبرة الحركة الجماهيرية الثورية في عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٧. وكتب لينين في موضوعات نيسان ١٩١٧ "لا جمهورية برلمانية – فالرجوع إليها بعد قيام سوفيتات نواب العمل إنما يكون بمثابة خطوة إلى الوراء – بل جمهورية سوفيات العمال والأجراء الزراعيين والفلاحين في البلاد بأسرها من القاعدة إلى القمة.

"وجمهورية السوفيات هي تنظيم للدولة تكون فيه الأجهزة الأساسية للسلطة في المركز وفي المناطق هي السوفيات، ويتألف تركيبها من الكادحين عن طريــق انتخــاب ممثليهم ذوي الصلاحيات؛ أي النواب. وهكذا نرى أن سوفيتات النواب الذين يمثلــون الكادحين تكون الأساس السياسي للدولة، حيث تعتمد في نشاطها علــى المنظمــات الاجتماعية العديدة وجمعيات الكادحين".

**(٣٩ تراكــم رأس المــال:**

وإذا ما نظرنا إلى فكر روزا لوكسمبروج (١٨٧١ – ١٩١٩م) السياسي فإننا نجد أن أهميته تنصب على تبنيها الكيفية التي استطاعت بها الرأسمالية أن تتفادى انهيارهــا المحتوم. والواقع أن قطبي تحليلها: تكون رأس المال في نظام مغلق وتوســع رأس المــال وانتشاره في الأقاليم التي تعيش في الظروف السابقة لقيام الصناعة كانا موضع استقطاب محاولات تفسير جهاز النمو الاقتصادي سواء كانت اشتراكية أم ليبرالية.

وتتمثل الأهمية المباشرة لنظرية روزا — التي وضعها في كتـــاب "تـــراكم رأس المال" عام ١٩١٣ — في مجال آخر عندما أظهرت استحالة تكوين رأس المال في نظـــام مغلق، وأن الرأسمالية لا يمكنها الاحتفاظ بسيرها وتفادي انهيارها بطريقة تقتصر علـــى تفسير ظاهرة الأمبريالية وهي ظاهر مؤقتة، وإنما بهذه النظرية تكون قد وضـــعت حـــداً تاريخياً، إذ نظراً لأن القطاع غير الرأسمالي من الاقتصاد العالمي كان يـــسير إلى مرحلـــة الانكماش بصورة مطردة، لهذا يقترب الوقت الذي يضيق فيه التجميع الرأسمالي. وهـــذا يعني أن التوسع الرأسمالي كان يتوخى الأسس التي يقوم عليها، وبهذا أصبح النظام حقيقة تاريخية مؤكدة.

وقد أكدت روزا لوكسمبروج أن الاشتراكية بدون حرية ليس في إمكانهـــا أن تنشأ. وهي تعتبر أن الانتخابات العامة وحرية الصحافة والاجتماع وتصارع الأفكار من صميم مظاهر الحرية.

**(٤٠) الحريـــة:**

قدم جون ستيورات ميل (١٨٧٢ — ١٩٠٧م) مقالته أو بالأحرى كتابه عـــن "الحرية" بالكلمات الآتية:

"إن موضوع هذه المقالة هو الحرية الاجتماعية والمدنية، وطبيعة وحدود السلطة التي يمكن للمجتمع أن يفرضها على الفرد قانوناً. وهذه المسألة لم توضح من قبـــل ولم تناقش بشمول إلا قليلاً، إلا أن لها تأثيراً عميقاً على موضوع الساعة. ومن المحتمـــل أن تصبح مسألة المستقبل الحيوية".

وقد اعتبر ميل أن بحث مسألة الحرية ليس بجديد، إلا أن تلك المسألة قد أخذت أبعاداً جديدة بعد أن قامت الثورة الفرنسية والإنجليزية والأمريكية، ثم الثورة الصناعية، ثم ظهور الحركات الاشتراكية، وما لها من تأثير، والظـــروف الاقتـــصادية والاجتماعيـــة والسياسية التي عمت عصره.

ويرأى ميل أن تعديل الدستور ونقل السلطة إلى أيـــدي الـــشعب لا يـــشكل ضمانات كافية لحريات الأفراد، ذلك أن الدساتير الجديدة لم تتضمن الاحتياطات الـــتي من شأنها صيانة الحريات.

وبنظر ميل فإن الفرد هو الحكم الفيصل فيما يقوم به من أعمال، وأن السعادة ليست تلك التي توفر لأكبر عدد من الناس، حيث إن تقدير السعادة هو تقدير نـــسبي، وأن الحكام لا يمثلون الشعب جميعه، بل يمثلون الأغلبية. والسؤال هو: كيف تـــستطيع الأقلية غير الممثلة أن تحافظ على حقوقها تجاه الحكومة والمجتمع؟

ومن هنا انطلق ميل لبحث الوسائل التي تستطيع أن تحد من سلطة الحكومـــة والمجتمع كي لا تمس حريات الفرد. وبنظر ميل فإن حريات الفرد هي: حرية الضمير التي تتفرع إلى حريات العقيدة والتفكير، وإبداء الرأي، والتعبير عن المشاعر، ثم حرية الذوق وحرية العمل اللتان تشملان حرية تكييف شخصية الفرد حتى تتلاءم شخصيته، كمـــا تعني أيضاً حرية العمل، ثم حرية الاجتماع.

ومصدر السعادة الحقيقي – من وجهة نظر ميل – هي الفوارق القائمة بـــين أفراد المجتمع، والشيء الذي يحول دون تحقيق السعادة الحقيقة هو إزالة المجتمـــع لهـــذه الفوارق.

وفي الواقع أن نظرية ميل في الحرية كانت إلى حد ما مغايرة للزمن الذي كتب فيه مقالته الشهيرة، ويمكن اعتبارها آخر دفاع وأفضله عن النظرية التي تعود إلى هـــوبز لوك، وحتى إلى هامبدين، أي أن المرء لا حرية له مادام أن هناك أشخاصـــاً آخـــرين في إمكانهم تقييده، ومنعه عن أي عمل يرغب الإتيان به.

بقي أن نتحدث عن التوفيق بين حرية الأفراد كما عرفها ميل، والتزاماتهم نحو كل من الحكومة والمجتمع، فنجده في مقاله "الحكومة التمثيلية" يحيل الأمر على الحكومة التي عليها مساعدة المواطنين على إتمام شخصياتهم، وذلك باعتبارها الأداة التي تعمل على

زيادة الملكات الفردية للشعب. وبناء على ذلك يقترح ميل عدة تعـــديلات في النظـــام الانتخابي وصلاحيات البرلمان ومجلس الوزراء ووظائف وعمل ممثلي الشعب والـــوزراء، فيقترح التمثيل النسبي، مع الأخذ في الاعتبار الكفاءات وإعطائها وزناً كبيراً، أما الوظيفة المكلف بها البرلمان فهي مراقبة الحكومة والإشراف على الأعمال التي تقوم بها، لا الحكم الباشر. والبرلمان – كما يرى ميل – يكون بمثابة لجنـــة تتلقـــى ظلامــــات الـــشعب "Committee of Grievanvces" ومجمعـــاً لـــلآراء "Congress of Opiniones". والبرلمان – باعتقاد ميل – لا يكون صالحاً لسن القـــوانين لكثـــرة أعضائه، بالإضافة إلى عدم تخصصهم جميعاً في المسائل القانونية، ويقترح إنـــشاء لجنـــة التشريع تكون وظيفتها عمل القوانين، وتكون مؤلفة من خبراء، ويعـــود إقـــرار تلـــك القوانين التي تضعها هذه اللجنة للبرلمان.

**(٤١) الثورة الدائمة:**

كانت نظرية الثورة الدائمة موضع اهتمام وبحث ليون تروتـــسكي (١٨٧٩ – ١٩٤٠م) على مدى ستة وعشرين عاماً. فقد وضع خطوطها العامة سنة ١٩٠٥، وأخذ يطورها ويتوسع فيها حتى عام ١٩٣١، حيث اختبر تطبيقاتها على أحداث ثورة أكتوبر في روسيا وتطوراتها، وأحداث الثورات التي قامت في الصين وأســـبانيا والمـــستعمرات وكذلك الحركات الثورية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في أوروبـــا، ســـيما في إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة.

وفي مفؤله "الثورة الدائمة" يرى تروتسكي أن الحل الناجع للمشكلة الثوريـــة في البلاد المتخلفة هو الحل الاشتراكي. ويعتقد أنه ليس من المفروض ولا حتى من المتوقع أن تمر الدولة المختلفة بمرحلة الثورة البرجوازية، ذلك لأن الثورة البرجوازية غير ممكنة في مثل تلك الدولة من ناحية، ومن ناحية أخرى لا تحل مشكلة الثورة الأساسية في الدول المتخلفة، وهي مشكلة الملكية الزراعية والفلاح.

نظر تروتسكي أن نظرية "الثورة الدائمة" هي وحدها الصالحة للتطبيق بالنسبة لثورات المستعمرات وأشباهها. وتخلق ازدواجية التطور الرأسمالي والإقطاعي قانوناً جديداً يختلف عن قانون مرحلة التطور، وتتعمد السيطرة الاستعمارية في الدولة المستعمرة ربط رأس المال المحلي في البلاد المختلفة بحركة الاحتكارات العالمية. ونظـــراً لأن رأس المـــال المحلى في البلاد المتخلفة قد نشأ نشأة متأخرة، فإنه لا يتمتع بالاستقلال الكلي، وبـــذلك فهو ليس له القدرة التي يتمتع بالاستقلال الكلي، وبذلك فهو ليس له القدرة التي يتمتع بها رأس المال في أوروبا الغربية، بالإضافة إلى أن الأصل الإقطاعي أو البيروقراطي لرأس المال المحلى في البلاد المختلفة. والطبقة العاملة الواعية لم تنشأ لرأس المال المحلى المتأخر، بل نتيجة لرأس المال الأجنبي المستثمر المتقدم. وبالتالي فإن الطبقة العاملة تكون أكبر عـــدداً وقدرة من الرأسماليين المحليين ومن الطبقة المتوسطة، وبالتالي فهى التي لها القـــدرة علـــى تحقيق مهمة الثورة، أي تحرير الأرض والفلاحين مـــن ســـيطرة الإقطـــاع والرأسماليـــة والاستعمار. ومن هنا يتجه تروتسكي إلى وجوب استمرار الثورة في البلاد المختلفة حتى تتمكن من فرض الحل الاشتراكي.

وإذا كانت نظرية "الثورة الدائمة" قد وضعت البذور الأولى للخـــلاف بـــين تروتسكي من جهة، ولينين وستالين من جهة أخرى، فإن آراء تروتسكي في آراء ستالين الثورية — بعد وفاة لينين — كانت سبباً للقطيعة، ثم العداوة العنيفـــة بـــين تروتـــسكي وستالين. أما عن نقاط الخلاف بينهما، فيمكن أن نحدد بعضها كما يلي:

- كان برأي ستالين أنه من الممكن بناء الاشتراكية على أساس إتباع سياسة العزلة والاكتفاء الذاتي، في حين خالف تروتسكي ذلـــك معتـــبراً أن الثـــورة والبنـــاء الاشتراكي لا يمكن أن يتحققا كاملين إلا بتحقيق الثورة العالمية.

• المعارضة التي أبداها تروتسكي لتنفيذ ستالين سياسة التجمع الزراعي مــن عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٩ بحزم وبسرعة. كذلك عارض تنفيذ سياسة التـصنيع الثقيـل بمعدلات أكبر من أن يحتملها الاقتصاد السوفيتي.

• اعتقاد تروتسكي بأن السياسة الداخلية لستالين ذات طابع بيروقراطي، وأنها تستخدم أساليب الإرهاب والكبت الإدارية والبوليسية، وتعمل علــى الـتخلص مــن المعارضين، بدلاً من اعتمادها الديمقراطية وفتح المجال لحرية المناقشة، خاصة داخل الحزب الشيوعي السوفيتي.

ومن الضروري قبل أن ننتقل من أفكار تروتسكي أن نشير إلى شروحه لوجهة النظر الماركسية في المثل الأخلاقية، وسيما في مجال الممارسة السياسية، حيــث تنــاول تروتسكي ذلك الموضوع في مقال عنوانه "أخلاقهم وأخلاقنا"، حيث نشر بمجلة "الأممية الجديدة" بأمريكا عام ١٩٣٨، وفي مقال ثان نشر عام ١٩٣٩، واعتبر إتمامــاً للمقــال الأول، وكان عنوانه "الأ×لاقيون والمنافقون ضد الماركسية".

والذي يهمنا من هذه الشروحات مناقــشة "الغايــة والوســيلة" والتوافــق الديالكتيكي بالنسبة لهما، حيث يقول تروتسكي إن الوسيلة من الممكن أن تبرر بغايتها فقط، ولكن الغاية نفسها في حاجة إلى تبرير. ومن وجهة نظر الماركسية فإن الغاية التي تعبر نفسها في حاجة إلى تبرير. ومن وجهة نظر الماركسية فإن الغاية التي تعبر عن المصالح التاريخية للبروليتاريا تكون مبررة إذا ما كانت تؤدي في النهاية إلى سلطة الإنسان علــى الطبيعة وإلغاء سلطة الإنسان على الإنسان. وهنا نجد تروتسكي يتساءل ما إذا كان كل شيء مباحاً من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟ ثم يبادر بالجواب أ، المباح هو ما يــؤدي فعلاً إلى تحرير الجنس البشري. ومادامت هذه الغاية يمكن تحقيقها من خلال الثورة، فإن البروليتاريا المحررة ذات طبيعة ثورية بالضرورة. ومن قوانين تطور المجتمع تستنتج قاعدة السلوك، أي من خلال الصراع الطبقي بشكل رئيسي، وهو قانون جميع القــوانين! ثم

يوضح تروتسكي من خلال شرحه أن المادة الديالكتيكية لا تعرف الوسـيلة والغايـة، فالغاية المباشرة تضحى وسيلة لغاية أبعد. ويطرح تروتسكي سؤالاً بالنـسبة للإرهـاب الفردي ما إذا كان مباحاً أم لا. ويقدم الجواب بأن السؤال لا يقوم بالنـسبة للـدوافع الذاتية، لكن بالنسبة للدوافع الموضوعية. ويتجه تروتسكي لمخاطبة الإرهابي بأنـه مـن أعمال الاستعاضة عن الجماهير.

**(٤٢) القوميـــة:**

كان لفكر ساطع الحصري (١٨٨٠ – ١٩٦٠م) الاجتماعي مكانة بـارزة في تاريخ الفكر السياسي، سواء ما قام بإيضاحه من قضايا قومية، أم لما أثاره وناقشه مـن المسائل المتعلقة بها، حيث إنه أوضح أهمية أن تكون اللغة موحدة كأساس من الأسـس اللازمة لتكوين الأمة، مستأنساً في ذلك ببعض إيضاحات المفكرين الألمـانيين ضـمن حدود القومية الإنسانية، مناقشاً ما تثيره مسألة اعتبار وحدة اللغة من مسائل على ضوء أوضاع الدول الأمريكية التي يتكلم شعبها ثلاث لغات (الإنجليزية، الألمانية، الفرنـسية) وبلجيكا (الفرنسية – الفلمنكية) واختلاف اللهجات المحلية. ويقدم سـاطع الحـصري توضيحاً لأهمية الدور الذي يقوم به التاريخ في تكوين الوعي والشعور، واعتماد التاريخ أساسًا من الأسس القومية. كما نراه يناقش الفكرية التي تقول باجتياز الإنسان مرحلـة التنظيم القومي إلى التكتل الأممي، وما تفرع عنها من اعتبار أن عصر القوميـات قـد انتهى، وتبعه قيام العصر الأممي.

ونرى أن ساطع الحصري يجيب عن الدفوع والمسائل التي تثيرها بالنسبة لمسألة القومية من الدفع المتعلق بالمشيئة الاستقلالية، وذلك على ضوء مشكلة الألزاس والحرب الأهلية التي قامت في الولايات المتحدة. كذلك تناول القومية والحياة الاقتصادية لجهـة الفكرة القائلة بأن الرأسمالية كانت سبباً لولادة الحركات القومية. ثم يعالج مسألة الـدين وعدم اعتبار اختلاف الأديان أو المذاهب سبباً لافتقاد الأمة كيانها، حيـث استـشهد

ببعض أحداث التاريخ (حرب إيطاليا والنمسا وبروسيا وبافاريا). ويعارض ساطع فكرة مانشيني التي تعتبر أن الأساس المكون للأمة هو وحدة العرق أو الأصل، وكذلك اعتبار الأرض المشتركة.

وتقوم أهمية أفكار ساطع القومية في الفكر السياسي على أساس أخذه بالمحتوى الإنساني للقومية، منطلقاً وغاية، والتأكيد الذي أبداه على أهمية الرسالة الحضارية للقومية في الماضي والمستقبل.

وفي رأينا أن العقيدة التي تنادي بالقومية والوحدة العربية تدين بـــالكثير لآراء ساطع الحصري بهذا الصدد، خاصة من الناحية النظرية، حيث إنه رأى أنه يجـــب – في سبيل نشر الفكرة القومية – اعتماد جميع ضروب المعرفة والإيمان من تعريـــف وإقنـــاع وتذكير وترغيب، مع الأخذ بعين الاعتبار في الوسائل المعتمــــدة، اخـــتلاف الأفـــراد والجماعات من حيث السن ومستوى المعرفة والثقافة، والألوان المختلفة للتيارات الفكرية المؤثرة والتي تؤثر فيهم.

**(٤٣) المساواة والتكافـــؤ:**

ومن الضروري أن نشير إلى شعار "المساواة والتكافؤ" الذي نادى به جوزيف بروز تيتو، وأدى إلى أن يصطدام مع ستالين، وإلى تنبه المبكر للأهمية الكبيرة لحركـــات التحرر في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وفكرة الإدارة الذاتية والعمل على تكييـــف الدولة داخل التجربة الاشتراكية، ودعوته لفكرة التعايش السلمي. ولابد أن ننوه بالدور النظري لكارديل في هذا الصدد.

**(٤٤) الفابيون والفيلسوف الساخر:**

وفي عام ١٨٨٤ تأسست في بريطانيا جماعة من "المثقفين المهذبين" التي لـــولا انضمام برناردشو وسيدني ويب وكير هاردي إليهم ما كان لهم ذلك الأثر المرمـــوق في

تاريخ الفكر السياسي. وقد قامت هذه الجماعة باستعارة تكتيـــك القائـــد الرومـــاني فابيوس. وكان من أهم مميزات هذه الجماعة افتقارها الكلـــي إلى التنظـــيم والوحـــدة الفكرية. وقد قام برناردشو بإيضاح ذلك عندما قال: "كانت أمزجتنا مختلفة تماماً، فنحن أصحاب نزعة فردية. ولم يكن الواحد منا من القوة بحيث يفرض إرادته على الآخرين، ولم يكن من الضعف بحيث يترك الآخرين يتجاهلونه".

لقد كان الاتجاه الفابي من أكثر الاتجاهات الاشتراكية مرونة، وهـــي مرونـــة تحولت إلى ليونة تتنازعها المهادنات والشكوك. وبأي حال من الأحوال فـــإن الفكـــر السياسي يدين لهذه الجماعة بالأبحاث التي توزع الأعضاء مواضيعها بينهم، كالـــشرح الذي قدمه برناردشو لنظريات الاقتصاد الاشتراكي والاقتصاد الكلاسيكي، والتحليـــل الذي قام به كل من سيدني وبياتريس للتاريخ الاجتمـــاعي والنقـــابي والاشـــتراكي في بريطانيا، وكذلك تناول اوليفييه للجانب الأخلاقي في النظام الرأسمالي، ونقد كـــلارك لأسس النظام الرأسمالي.

وقد ظهرت نظريات من هذه البحوث، أو بمعنى آخر تعليقات على الماركسية والصراع الطبقي والسان سيمونية وميل والإصلاح الزراعي. وقد برزت بعض الأفكـــار حول الضرائب التصاعدية كحل تشريعي وحول التـــأميم والبرلمـــان. ومـــن أطـــراف التعليقات تلك التي أوردها جورج برناردشو في الحكومة والدولة: "ليس لهذه الحكومـــة القائمة في بلادنا أن تلقب نفسها بالدولة، أكثر من أن يكون لهذا الدخان الذي نجده في لندن أن يلقب نفسه بالسماء".

ومن الضروري لنا أن نقف عند الأفكار السياسية لبرناردشو، وذلك لما تنطوي عليه من دقة في الملاحظة وبراعة في التعبير.

ينظر برنـــاردشو إلـــى المساواة فيعتبر ان المشكلة ليـــست فـــي إتاحـــة الفرصة للجميع، ولا هـــى المساواة الرقمية في الدخـــل بين الأفـــراد علـــى أســـاس

الموهبة، بـــل هي مشكلة الحد الأعلى للأجور، وللدخل الجائز في مجتمع يعمل على بناء الاشتراكية. ومن أطرف أقواله بهذا الصدد ما ذكره في الفصل الـــسابع مـــن "الـــدليل السياسي للجميع"، حيث يقول: "لا يسع أي شخص مثلاً أن يقر الأوضاع التي تتـــيح لمستر جوليوس أن يكسب في خمس عشرة جولة، مدة كل منها ثلاث دقائق، أكثر ممـــا يكسبه أينشتين في خمسة عشر عاماً، وأن يصدق أن ما بذله جو من جهد يفوق ما بذله أينشتين بمائة وثمانين ألف مرة لمجرد أنه بطل العالم في الملاكمة. ويستحيل على أي شخص تحديد دخل الاثنين بحسب مزايا كل منهما".

"إن طبقة أصحاب الألوف قد أنهكها كسلها وتطفلها، وحرمهـــا ثراؤهـــا — بنفس الدرجة — من التزاوج الصحي مع العمال. هذا مع الملاحظة أنه لا وجود لمثل هذا الحرمان من التزاوج، أي الحرمان من فرصة اختيار الأزواج الصالحين بين طبقة أصحاب الألوف. ويتمتع أبناء طبقة أصحاب الخمسين ألف جنيه في السنة (أي طبقة المليونيرات) بنفس التعليم ونفس التربية ونفس النشأة. كما أن المستقبل مفتوح أمامهم علـــى قـــدم المساواة. فهم منضمون إلى نفس النوادي، ويأكلون نفس الطعام، ويرتدون نفس الأزياء، ويقطنون نفس الأحياء ونفس الشوارع في نفس الضواحي العصرية للمدن والعواصـــم. حقاً قد يملك بعضهم خمسة بيوت، ولا يملك آخرون سوى بيتين لكل منـــهم. ولكـــن الواحد منهم لا يمكنه أن يسكن إلا في بيت واحد في المرة الواحدة. إذاً ليست هناك غير ميزة تافهة جداً في أن يكون المرء أغنى من جاره عشر مرات".

ويعالج برناردشو من جملة ما يعالجه — في مقدمة مسرحية "ميجور بربـــارا" — مشكلة الفقر، حيث نراه يورد بهذا الصدد: "والآن لننظر في عبارة (فليبق فقيراً) ومـــاذا تعني. إن معناها أن يبقى الرجل ضعيفاً، جاهلاً، وأن يبقى نواة للأمراض وبؤرة للأوبئة. معناها أن يبقى معرضاً دائماً — لا تغلق أبوابه — للقذارة والدمامة. معناهـــا أن يبقـــى أطفاله مرضى بالكساح من سوء التغذية. معناها أن يبقى الذي لا يستحق لكي يـــصبح أقل استحقاقاً، وأن يبقى المستحق ليكدس لنفسه، لا كنوزاً في الجنة، بل فظائع وأهوالاً

في جهنم على ظهر هذه الأرض فإذا كان الأمر كذلك، فهل من الحكمة والعقل حقاً أن يبقى إنسان واحد فقيراً؟

**(٤٥) السوبرمـــان:**

ويكون السوبرمان، أو الرجل المتفوق الفذ التفكير والعمل!، هو حاجة سياسية في الاعتبار النازي الذي يرى أنه — وإذا كان هذا النوع من الرجال نادراً وجوده بسبب الفوضى التناسل — سوف ينتظم في المستقبل عندما ينشأ من العرق الآري — وهو العرق البشري الوحيد السامي — ذلك الجيل الذي تتوافر فيه الصفات البشرية العليا. ونظـــراً لوجود السوبرمان فإن الديمقراطية — وهي السلطة التي تقوم على رضى الشعب — غير صالحة، ذلك أن الجماهير قد لا ترضى بوجود حكومة تصنف التناسل وتعمـــل علـــى تنظيمه! ومن الضروري وجود دولة يندمج فيها الفرد اندماجاً كلياً، وتكون هي المثـــل الأعلى والعقل المدبر.

هذه هي أهم العناصر التي نادت بها النازية، حيث ظهرت ملامحهـــا الأولى في كتاب أدولف هتلر (١٨٨٩ — ١٩٤٥م) "كفاحي". ثم اتضحت حقيقتـــها نهائيـــاً في السياسة والحرب بين عامي ١٩٣٣ — ١٩٤٥. وفي الواقع فإن النازية لا تعتبر فلسفة ولا نظرية سياسية، ولكنها حركة سياسية واجتماعية. وقد قام ألبير كامو بتعليل الأســـباب التي أدت إلى هزيمة النازية كأيديولوجية، حيث قال إنها أيديولوجية ريفية، حيث إنهـــا تقوم على فكرة ساذجة في الأصل، وفي فكرة الجنس الآري. وقد حاول النازيون فرض هذه الفكرة الفردية الضيقة — التي تشبه الأفكار القروية — على إمبراطورية عالمية. وهذا هو التناقض والخلل الداخلي الذي أدى في النهاية إلى انكسارها فكرياً قبل أن تنكـــسر عسكرياً.

**(٤٦) معالجة التناقضات في صفوف الشعب والثورة الثقافية:**

تقوم مساهمة ماو تسي تونغ في الفكر السياسي والاشتراكي بمعظمهـــا علـــى النظريات التي تم استخراجها من الممارسة والتطبيق العملي الزمني والمكاني. ولكن هذا لا يمنعنا أن نقول إن ماوتسي قد خص الفكر السياسي بدراسة نظريـــة منـــها مؤلفاتـــه "الممارسة العملية" ١٩٣٧، "في التناقض" ١٩٣٧، "ومعالجة المتناقـــضات في صـــفوف الشعب ١٩٥٨".

وقد قام ماوتسي بالدعوة إلى الدراسة والتعلم وإعمال الفكر. وفي ذلك يقول: "تواجهنا في سبيل تحويل الصين الزراعية المتأخرة إلى قطر صناعي متقدم، مهام شـــاقة، ومازالت خبرتنا بعيدة عن المستوى المطلوب، لهذا علينا أن نجيد التعلم". "والمعرفة هـــي مسألة علم، لا يجوز معها أدنى شيء من الكذب والخيلاء، بل المطلوب هو العكس بكل تأكيد، هو الصدق والتواضع". وقد نبه ماوتسي إلى ما يجره الاعتداد بالنفس فهو عـــدو الدراسة" ومتى يكون باستطاعة الإنسان أن يتعلم شيئا ويجيده إلا إذا تخلـــص أولا مـــن اعتداده بنفسه. والموقف الذي يجب أن نتخذه هو "التعلم بلا ملل" بالنسبة إلى أنفـــسنا، "والتعلم بلا كلل" بالنسبة للآخرين.

ويقوم ماوتسي بتحديد كيفية البحث عن الحقيقة من الوقـــائع، فيحـــدد مـــا يقصده بالوقائع، وهو كل الأشياء الموجودة موضوعياً، وما يعني من الحقيقة، وهو مـــا يربط بين هذه الأشياء داخلياً، أي القوانين التي تتحكم فيها، أما البحث فهو الدراســـة والاستقصاء.

وكذلك نرى ماوتسي يحدد أساليب التفكير وأساليب العمل، حيث يـــرى أن الذي يحدد تفكير الإنسان هو الوجود الاجتماعي أما "من أن تنبع الأفكار الـــسديدة؟ فمن الممارسة الاجتماعية". وهي من أنواع ثلاثة: النضال من أجل الإنتـــاج، الـــصراع الطبقي، والتجربة العملية. والناس يزاولون النضال بمختلف أنواعه وأشكاله من خـــلال

ممارستهم الاجتماعية، حيث يستمدون التجارب الغنية من نجاحهم وفشلهم فيه علـــى السواء. والمعرفة تكون في بدايتها حسية، ثم تحدث قفزة إلى المعرفة العقلية، أي الأفكار، وذلك بعد أن يتراكم ما يكفي من المعرفة الحسية. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة الانتقال من الوعي إلى إعادة ثانية من الفكر إلى الوجود، حيث توضع المعرفة التي تم الحـــصول عليها من المرحلة الأولى موضع الممارسة الاجتماعية. ثم تحدث قفزة أخرى في معرفـــة الإنسان بعد أن تمر عبر التجربة في الممارسة العملية، وهي التي يمكنها إثبات صـــحة أو خطأ القفزة الأولى في تحصيل المعرفة.

وبرأي ماوتسي أن المثالية والميتافيزيقيا هي الشيء الوحيد في العـــالم الـــذي لا يكلف الإنسان أي جهد أو مشقة، حيث إنها "تتيح له أن يتشدق كما يـــشاء دون أن يستند إلى الواقع الموضوعي ودون أن يعرض أقواله لاختبارات الواقـــع. أمـــا الماديـــة والديالكتيك فهي تكلف الإنسان جهداً، إذ أنها تحتم عليه أن يستند إلى الواقع الموضوعي وأن يختبر أمامه، فإذا لم يبذل جهداً انزلق إلى طريق المثالية والميتافيزيقيا".

ويرى ماوتسي أن "العمل السياسي هو شـــريان الحيـــاة لجميـــع الأعمـــال الاقتصادية. وهذا بصورة خاصة أثناء تغيير نظام الاقتصاد الاجتماعي تغييراً جذرياً".

ويلاحظ ماو تسي أن "العمل الفكري والسياسي قد ضعف في الآونة الأخيرة بين المثقفين والطلاب الشبان، فظهرت بينهم بعض الانحرافات. فالـــسياسة ومـــستقبل الوطن والمثل العليا للإنسانية قد أصبحت في نظر بعض الناس وكأنها أشياء لا تـــستحق الاهتمام. وإزاء هذه الحالة يجب علينا الآن تقوية العمل الفكـــري والـــسياسي. ومـــن الضروري على المثقفين والطلاب على حد سواء أن يتعلموا بجد واجتهاد .. إن الإنسان إذا لم يتسلح بوجهات نظر سياسية صحيحة أصبح كأنه جسد بلا روح .. وعلى هـــذا فإنه يجب على جميع الدوائر والمنظمات أن تضطلع بمسئولية العمل الفكري والسياسي".

وعن الديمقراطية يقول ماو تسي إنه "ينبغي أن يسمح لأي شخص كـــان أن يعبر عن آرائه مادام هذا الشخص ليس من العناصر المعادية، ولا يقصد الطعن والتشنيع، ولا يهم إذا عبر عن رأي خاطئ، وواجب القادة في جميع المستويات أن يـــستمعوا إلى الآخرين، ويجب أن يراعى مبدآن في ذلك:

(١) قل كل ما تعرفه، وقله بدون تحفظ.

(٢) لا ذنب للقائل فليكن قوله تحذيراً "للسامع".

وبرأى ماوتسي بأن المقصود من الديمقراطية داخل الحزب، سواء في الجيش أو الهيئات المدنية هو تقوية النظام ورفع القدرة الكفاحية لا إضعافها. ويؤكد أنه من المتحتم القيام بالعمل التثقيفي عن الحياة الديمقراطية داخل الحزب، وذلك حتى يتمكن أعـــضاء الحزب من فهم الحياة الديمقراطية، والعلاقة بين الديمقراطية والمركزية، وكيفية تطبيق نظام المركزية الديمقراطية. ويحذر ماوتسي من الانزلاق في طريق الديمقراطية المتطرفـــة، أو في طريق الحرية المطلقة التصرف التي تخل بالنظام القائم.

ويوضح ماوتسي أن التناقضات المختلفة من حيث النوع لا يمكن الوصول إلى حلها إلا بطرق مختلفة نوعياً، ويأتي بأمثلة للدلالة على ذلك؛ فالتنـــاقض القـــائم بـــين البروليتاريا والبرجوازية يُحل بطرق الثورة والاشتراكية، والتناقض الذي ينشأ بين جماهير الشعب الفقيرة والنظام الإقطاعي يأتي عن طريق الثورة الديمقراطيـــة، والتنـــاقض بـــين المستعمرات والإمبريالية يُحل عن طريق الحرب الوطنية الثورية، والتناقض بـــين طبقـــة العمال والفلاحين في المجتمع الاشتراكي يُحل بجعل الزراعة جماعية وآلية، والتناقض داخل الحزب الشيوعي يُحل عن طريق النقد والنقد الذاتي، والتناقض بين المجتمع والطبيعة يُحل بطريقة تطوير القوى المنتجة.

وفي رأينا أن هناك ثلاث نقط مميزة لفلسفة ماوتسي تونغ: "أمـــا الأولى فهـــي تتركز على فكرة مدارها أ، التناقض صفة عالمية الطابع لجميع الظواهر والأشياء، فهو في

الطبيعة المادية وفي المجتمع البشري وفي فكر الإنسانية. وأما الثانية فهي لا ترى التنـــاقض قائماً بين الأشياء والظواهر والأفكار فحسب، بل هو موجود بداخلها كـــذلك. وأمـــا الثالثة فترى في جميع الأضداد والمتناقضات ضرورة لابد منها". وإذا كنا نجـــد للنقطـــة الأولى جذوراً ماركسية لينينية، فإن النقطتين الثانية والثالثة قد ابتكرهما ماوتسي، حيث إنه استخدمها من التراث الفلسفي الصيني.

وبنظر ماوتسي أن استخدام الأساليب الديمقراطية – أساليب المناقشة والنقـــد والتثقيف والإقناع – هو السبيل الوحيد للوصول إلى حل جميع المـــسائل ذات الـــصفة الفكرية، وجميع المسائل التي تجد اختلافاً عليها داخل صفوف الشعب. أمـــا بالنـــسبة للحرب – وهي في نظر ماوتسي امتداد للسياسة – فتراه يعلن أنه من دعاة القضاء على الحرب، وأنه لا يريد الحرب، إلا أنه من غير الممكن أن يتم القضاء على الحرب بـــدون فوضى الحرب.

**(٤٧) الدولـــة في النظرية والتطبيق:**

وإذا ما جئنا إلى هارولد لاسكي (١٨٩٣ – ١٩٥٠م) نجد أن جل اهتمامـــه انصب على دراسة قضايا الدولة والسيادة والديمقراطية والاشتراكية الديمقراطية. وفي هذا السبيل قام بوضع عدة مؤلفات، أهمها: "السلطة في الدولة الحديثة – ١٩١٩م"، "الفكر السياسي في إنجلترا من لوك إلى بنتام – ١٩٢٥م"، "قـــاموس الـــسياسة – ١٩٢٥م"، "الحرية – ١٩٢٥م"، "مقدمة في السياسة – ١٩٣١م"، "ثـــورات الغـــد – ١٩٣٧"، "الحكومة البرلمانية – ١٩٣٨م"، "النظام الرئاسي في أمريكا – ١٩٤٠م"، "تـــأملات في ثورات العصر – ١٩٤٣م"، "الإيمان والعقل والمدنية – ١٩٤٤م"، و"الحرية في الدولـــة الحديثة – ١٩٤٩م".

وقد أضاف لاسكي عدة إضافات مهمة إلى الفكر السياسي، منـــها تفـــسيره للديمقراطية الرأسمالية، الذي خرج منه بأن الازدهار هو قاعدة مصدر هذه الديمقراطيـــة،

حيث اعتبر أن التنازلات التي تبديها الرأسمالية عن بعض الحقوق للشعب مردها توسيعها وازدهارها، وأنها تبادر — حين تتعرض للأزمة — إلى سحب هـــذه الحقوق، وتنـــاقض الديمقراطية كما هو شأن الفاشية والنازيـــة. كما لفتت الأنظار الاستنتاجات التي قدمها لاسكي بالنسبة للنظام الرئاسي الذي يقوم بحكم الولايات المتحدة، حيث إنه لاحظ أن الحكومة الليبرالية التي تحكم بأقل تدخل ممكن لا تلائـــم التوسع الأمريكي. كما نجـــده ينبه إلى ظهور رجل قـــوي في البيت الأبيض يكون من نتيجته ظهور مقاومة شديدة من الكونجرس من الولايات التي تحرص — أشد الحرص — على إضعاف السلطة المركزيـــة للحكومة الفيدرالية.

والدولة — بنظر لاسكي — مجتمع متكامل تعلو سلطته الإرغامية علـــى كـــل الجماعات الأخرى. واعتمد لاسكي التفسير الماركسي لأهداف الدولة، واعتبر أن الدولة تأخـــذ الأهـــداف الاقتصادية التي تسعى إليها ونستخدم سلطتها للحفاظ عليها.

ويعتبر لاسكي من أوائل المفكرين الأوروبيين الذي تنبـــهوا إلى الإدارة المحليـــة واللامركزية والديمقراطية الصناعية، وإدارة العمال للمصانع، وكلها حلول ديمقراطية.

**(٤٨) الديمقراطية والاشتراكية:**

وقد جاء جواهر لال نهـــرو (١٨٨٩ — ١٩٦٤م) بنظريـــات وأفكـــار في الديمقراطية والثورة والقومية والأممية وفي الحرب والسلم، فالديمقراطيـــة عنـــده حكـــم الجماهير وسيادة الشعب تتجاوز معناها، متمثلة — من جملة ما تتمثل فيه — في حريـــة الانتخاب والرأي وغير ذلك من الحريات الديمقراطية، وهي مبـــدأ وســـلوك والتـــزام أخلاقي، ويقول نهرو: "إنني أقول إن الديمقراطية ليست سياسية أو اقتصادية فحسب، بل إنها شيء عقلي ككل شيء في النهاية. إنها تقتضي بالضرورة فرصاً متكافئة لكل النـــاس سياسياً واقتصادياً. إنها تعني حرية الفرد في أن ينمو وفي أن يعمل كل قدراته وإمكانياته.

إنها تعني عدم الضيق بآراء الآخرين وإن كانت معارضة لرأيك وأفكارك. إنهـــا تعـــني البحث الدائب عن الحقيقة".

ومع إيمانه بالحقيقة الاجتماعية، كان نهرو يرفض الاندماج الكلي في الكيـــان الاجتماعي، إذ يرى أن السعادة هي سعادة الأفراد، والبؤس هو بؤس الأفراد.

ونرى أن نهرو يتجاوز أساس المفهوم الفردي للديمقراطية، ذلك الأساس الذي بنته وأسسته كتابات مونتسكيو وفولتير وروسو وغيرهم، حيث يعتبره قد فقد صلاحيته في القرن العشرين، ولم يعد صالحاً بعد الثورة الصناعية. وعلى هذا فإن المساواة النظرية أمام القانون أو أمام صناديق الانتخاب لا تؤدي إلى المساواة الحقيقة، وأن ما تؤدي إليه الرأسمالية من عدم المساواة الاقتصادية واختلال توزيع الثروات تكـــون نتيجتـــه عـــدم استحالة المساواة. وبناء على ذلك يرى نهرو ضرورة وضع قيود على الملكية الخاصـــة، وتحقيق الملكية العامة لوسائل الإنتاج الأساسية حتى يقوم الحكم الديمقراطي العامل لصالح المجموع.

وبنظر نهرو أن بناء المجتمع والقضاء على المتناقضات فيه يكـــون عـــن طريـــق الديمقراطية البرلمانية المتفقة مع طبيعة الشعب، وهي السبيل لتحقيق التطور المطلوب نحو الديمقراطية والاشتراكية. ونجده يعبر عن ذلك في خطاب ألقـــاه أثناء زيارة له للاتحـــاد السوفيتي، إذ قال: "إننا نؤمن بالديمقراطية وبالمساواة، وبإزالة الامتيازات الخاصة، ولقـــد وضعنا لأنفسنا هدفاً أن نبني نموذجاً لمجتمع اشتراكي بالوسائل السليمة".

**(٤٩) الحافز المـــادي للإنتاج:**

وضع ليبرمان نظرية جديدة في الإنتاج الاشـــتراكي، وهـــي نظريـــة تـــوفير اللامركزية حتى يمكن إتاحة التصرف المستقبل والمريح لقياس الإنتاج، وذلك عن طريق توسيع اختصاصات مديري المؤسسات وأجهزة الإنتاج، واعتبار معدل الـــربح معيـــاراً أساسياً للكفاية الإنتاجية وعلى أساس علاقة معدل الربح لرأس المال الإنتاجي للمؤسسة

الاقتصادية. وبنظر ليبرمان أن التخطيط المركزي في ظل الاشتراكية لا يعـــني صـــدور الأوامر من السلطات العليا بشأن كل صغيرة وكبيرة في الإنتاج، بل على أساس تحديـــد الإجمالي الكلي للإنتاج على أساس تقدير القيمة المالية، وبعد تحليل عدة عوامل مختلفـــة مثل معدل زيادة السكان والقوة الشرائية، والمقدار الذي يخصصه الفرد من دخله لشراء كل سلعة منتجة، ومصادر المواد الأولية التي تتوافر للصناعة.

**(٥٠) معذبـــو الأرض:**

"إذا تركتم جعجعات سوريـــل الفاشـــل وجدتم أن فانـــون هو أول من يعيد مولدة التاريخ إلـــى النور بعد إنجلز. ولا يذهبن بكـــم الظن إلى أن دماً مسرفاً فـــــي الغليان، أو إلى أن إشقاء هـــو الذي يحب العنف حباً خاصاً. إن فانـــون يشرح الموقف لا أكثر من ذلك. ولكن هذا لا يكفي لأن يصور مرحلة مـــرحلة، ذلك أن الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبرالي هو الذي أنتجنا كما أنتجه".

ما سبق فقرات من الكلمة التي قدم بها جان بـــول سارتر كتـــاب "معـــذبو الأرض" لفرانز فـــانون (توفى عام ١٩٦١) المارتينيكي الـــذي قـــــام بالمـــشاركة في الثورة الجزائرية فعلياً.

وقد توجه فانون في كتابه إلى العالم الثالث عارضاً صورة إنسان البلدان المتخلفة اقتصادياً، حيث إنه حاول تفسير ضرورة وإمكانية الثورة وحتميتها في عالم لا يوجـــد أمامه ما يخسره غير قيوده.

والمسألة الأولى التي قـــام فانون بطرحها هي الكيفية التي مـــن الممكن أن تقوم بها الثورة في عالم لا وجود فيه للطبقة العاملة الصناعية. وبرأي فانون أن الفلاحين هـــم الطبقة القائدة للثورة في المستعمرات والبلدان الأفريقية. وهو بذلك يخالف ماركس مـــن جهة، وهـــو الذي اعتبر أن الطبقة العاملة التي تقوم بالثورة، كذلك نره يناقض ليـــنين الذي أدخل الفلاحين إلى الثورة، ولكن متحالفين مع العمال وتحت قيادهم. ولا يـــؤمن

فانـــون بقاعدة ديمومـــة الثورة وتحول قطاعات من الفلاحين إلى عمال في مرحلة البناء الاقتصادي والتصنيع اللاحقة بمرحلة الاستقلال الوطني الذي تنتهي به — عادة — الثورة على الاستعمار.

ويثير فانـــون موقف الأحزاب البرجوازية في البلاد المتخلفة من الثورة، حيث إنـــه يرى أن سعيها الوحيد هو لاستلام الحكم، وأنها لا دور تضامنياً إيجابياً لها لمصلحة الثورة.

**(٥١) فلسفة الثورة وميثاق العمل القومي:**

صاغ جمال عبد الناصر (١٩١٨ — ١٩٧٠) في كتابه "فلسفة الثورة" أهداف الثورة السياسية والاجتماعية. وقام في (ميثاق العمل القومي) بتحديد النهج الاقتصادي ونظام الحكم.

وقد أوضح عبد الناصر فـــي "فلسفة الثورة" أن قصص كفاح الـــشعوب لا توجد فيها فجـــوات يملؤها الهباء، وكذلك لا مفاجآت لها تقفـــز إلى الوجـــود دون مقدمات. إن كفاح أي شعب جيلاً بعد جيل عبارة عن بنـــاء يرتفع حجراً بعد حجر. وكما أن كـــل حجر في البنـــاء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعـــدة يرتكـــز عليهـــا، فكذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب، كل حـــدث منها هو النتيجة للحـــدث الذي سبقه، وهـــو — في الوقت — مقدمة لحدث مازال في ضمير الغيب.

وقد أكد عبد الناصر على اقتران الثورة الاجتماعية بالثورة السياسية، حيـــث اعتبر أن لكـــل شعب من شعوب الأرض ثورتين: ثورة سياسية يسترد فيها حقه فـــي حكم نفسه بنفسه من يـــد طاغية فرض عليه من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه، وثـــورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته، ثـــم يستقر الأمر على ما يحقق العدالة لأبنـــاء الوطن الواحد. وقد رأي أن شعب مصر قد امتحن بتجربة هائلـــة، وهـــي أن تعـــيش الثورتان معاً في آن واحد. وقد وضع عبد الناصر في الميثاق (١٩٦٢م) الخطوط الأساسية والضرورية التي يقوم عليها العمل القومي وهي:

- اعتبار المواطن الحر هو الأساس المهم للمجتمع.
- اعتبار القيم الروحية التي انبثقت من الأديان تكفي لأن ترشد الإنسان، وأن تضيء حياته بالإيمان، وأن تثير في نفسه طاقات وافرة من أجل الخير والحق والمحبـــة، وأن الرسالات جميعها هي من الناحية الإنسانية ثورات هادفة لتحقيق الكرامة ...
- العمل على استبعاد العنف.
- استبعاد خضوع طبقة لطبقة أخرى من طبقات المجتمع.
- العمل على إزالة الاستغلال وتوزيع الثروات توزيعاً عادلاً، بالإضافة إلى أن ضمان تكافـــؤ الفرص لجميع أفراد الشعب، والقضاء على المشاغل والقلق بالنـــسبة إلى المستقبل المادي.
- شرعية الملكية الخاصة والوارثة، على ألا يترتب عليهمـــا أي اســـتغلال أو سيطرة شخصية.
- العمل على تشجيع وتنمية الملكية الزراعية والرأسمالية الوطنيـــة الخاصـــة، ولكن ضمن حدود معينة، وعلى ألا يؤدي التشجيع والتنمية إلى الاستغلال.
- اعتبار العمل حقاً وواجباً وشرفاً للمواطن.

وقد قـــدم الميثاق تعريفاً موجزاً لكل من الديمقراطية والاشتراكية، حيث ذكر أن الأولى تعني الحرية السياسية، والثانية هـــي الحرية الاجتماعية. وذهب إلى أنه لا يمكن الفصل بين الاثنتين، وذلك باعتبارهما جناحي الحرية الحقيقية، وأنه بدونهما، أو بدون أي منهما، لا تتمكن الحرية من أن تحلق إلى آفـــاق الغد القريب.

وقد حدد عبد الناصر في الميثاق الضمانـــات التي من شأنها تحقيق الديمقراطيـــة بالنسبة للمواطن، وهي: أن يتم تحريره من الاستغلال، وأن يعطي الفرصة المتكافئـــة في نصيب عادل من الثورة الوطنية، والقضاء على قلقه الذي يعتريه بالنسبة للمستقبل، فقد

اعتبر أن المخرج الوحيد الذي يؤدي إلى التقدم الاقتصادي والاجتمــاعي هــو الحــل الاشتراكي، وهو الطريق إلى الديمقراطية بكل أشكالها السياسية والاجتماعية. أما تحقيق الاشتراكية فيكون عن طريق خلق قطاع عام وقادر، يــؤدي إلى التقــدم في المجــالات جميعها، ويتحمل المسئولية الرئيسية في خطة التنمية، بالإضافــــة إلى وجــود قطــاع خــاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال، على أن يراقــب الشعب القطاعين ويسيطر عليهما معــاً.

ولكي تتحقق الاشتراكية يــرى عبد الناصر أنه لابد من المرور بمرحلة التحول، حيث اعتبر أن الدولة هي أداة الثورة. ونجده في خطاب له ألقاه في افتتاح دورة مجلــس الأمة المصري في نوفمبر ١٩٦٤م يقول: "إننا لم نصبح دولة اشتراكية، ولا نــستطيع أن نقول اليوم إننا دولة اشتراكية. نحن في مرحلة انتقال من الرأسمالية إلى الاشــتراكية، لأن الاشتراكية ليس معنــاه أن نؤمــم بعض المصانع فقط". وفي حــديث لــه إلى الهيئــة البرلمانية للاتحاد الاشتراكي في مايو ١٩٦٥م يقول: مجتمعنا اليوم يمر بمرحلــة دقيقــة في تاريخه، وهي مرحلة التحول من الرأسمالية والإقطاع إلى الاشتراكية. وفي هذه المرحلــة يقابل تغيير العلاقات الاجتماعية مشاكل كثيرة، لأن رواســب أو بقايــا العلاقــات الاجتماعية التي تكونت في زمــن النظام الرجعي الإقطاعي والرأسمالي لازالت باقية، ولا يمكن أن تتحول إلى الاشتراكية تحولاً أوتوماتيكيــاً في سنة أو سنتين أو عشر".

"وقد أكد الميثاق أن الحاجة ماسة إلى خلق جهاز جديد داخل إطار الاتحــاد الاشتراكي العربي يجند العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودهــا ويبلور الحوافز الثورية للجماهير ويتحسس احتياجاتها، ويساعد علــى إيجــاد الحلــول الــصحيحة لهــذه الاحتياجات".

وفي حديث له إلى مجلس الأمة في نــوفمبر ١٩٦٤ ينبــه عبــد الناصــر إلى البيروقراطية التي تظهر في مرحلة الانتقال، حيث يقول: "إن البيروقراطيــة في مرحلــة

الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية ستعمل بكل الطرق على أن تحصل على أكبر قدر من السلطة، حتى تتمكن من أن يقوم بدور حاسم في الإنتاج وفي العلاقات الاجتماعية، وتحتكر هذا الـــدور. وبفضل هذا الدور تأخذ مكان الاشتراكية".

**(٥٣) الإنسان ذو البعد الواحد:**

وإذا ما جئنا لهربرت ماركوز نجد أن السؤال الذي واجه فكره السياسي هـــو: كيف أن الثورة لم تتحقق؟! بل إنها أضحت شبه مستحيلة في البلدان المتقدمة صناعياً — أمريكا مثلاً — بالرغم من أن البيروليتاريا الصناعية — وهي طاقة الثورة — قد تكونـــت فيها منذ أكثر من قرن، فهو ينظر إلى المجتمع المعاصر المتقدم الذي هيمنت فيـــه الطاقـــة الهائلة للتكنولوجيا والصناعة على الفـــرد — وهي طاقة عقلية — هيمنة تعدت السيطرة اللاعقلانية التي مارسها المجتمع القديم بأشكالها المختلفة على الأفراد، ولم يعد من مجـــال للقول بأن بإمكان الإنسان واستطاعته أن يكبح جماحها أو أن يعمل على تعديلها كمـــا كان بوسعه أما سيطرة المجتمع القديم. فالمجتمع الجديد باستطاعته — ظاهرياً — بالتقـــدم التقني، أن يحقق التطور الاجتماعي تلقائياً بما يتمتع به من قدرة على الإنتـــاج وتحقيـــق الرفاهية لأفراده. وقد اعتبر ماركوز — من خلال هذه الظاهرة — أن المجتمع الجديد هو مجتمع أحادي البعد بتجريده معنى كل محاولة لمناهضته، بتلبيته حاجـــات الناس ورفـــع مستوى حياتهم. وهنا يبرز سؤال: هل الحاجات التي يلبيها هذا المجتمع هي حاجـــــات حقيقية أو كاذبـــة؟ هل هي حاجات إنسانية حقاً وتلقائية أو حاجــــــات مـــصطنعة اصطناعاً ومفروضة فرضاً؟ ونرى أن الواجب بالنسبة لماركوز لا يعتريه أي التباس: فهي حاجـــات وهمية صنعتها الدعاية والإعلان ووسائل الاتصال بين الجماهير. وإذا كـــان المجتمع يحرص كل الحرص على أن يلبي هذه الحاجات المصطنعة، فليس ذلك لأنها شرط لاستمراره ونمو إنتاجيته فحسب، بل أيضا لأنها أفضل وسيلة لخلق الإنسان ذي البعـــد الواحد الذي يقبل المجتمع ذي البعد الواحد ويتكيف معه. والإنسان ذو البعد الواحـــد\ هو الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية. وإذا كان الإنسان يتوهم بأنه حرر لمجرد أنـــه

باستطاعته أن يختار ما يناسبه من بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلـها له المجتمع حتى يستطيع تلبية احتياجاته، فما أشبهه من تلك الزاوية بالعبد الـذي يظـن ويتوهم أن حر لمجرد أنه منحت له حرية اختيار سادته.

ومن هنا نرى أن ماركوز يدعو إلى حتميـة التغـيير الـسياسي في المجتمـع التكنولوجي الصناعي المتقدم، وعند هذه النقطة يحدث الانفصال بين ماركوز والنظريـة الماركسية، حيث إنه يعلن أن الطبقة العاملة لم تعقد قادرة، ولا هـي عامـل التغـيير الاجتماعي، والديالكتيكية بنظره — مع التسليم بصحتها — قد فقدت قدرتها الإيجابيـة والعملية. ويلاحظ أن ماركوز لم يوضح أو يبين ما هي القوى الاجتماعية القادرة على أن تقود حركة التغيير السياسي، معلناً أن السبيل إلى التغيير غير ممهد في الوقت الراهن.

ومن الضروري أن نلاحظ أن المجتمع التكنولوجي المتقدم الذي يعنيه مـاركوز ليس المجتمع الرأسمالي وحده، بل والمجتمع الاشتراكي أيضاً.

ويقترن ذكر ماركوز بذكر حركات التمرد الطلابية في أوروبا، حيث اعتـبر ماركوز بمثابة الأب الروحي لها، ولا جدال أن مرد ذلك إلى ما ينطوي عليه تفكيره من تبرم واحتجاج واستياء، هذا التفكير الذي لاقى هوى في نفوس بعض جماعـات هـذه الحركات إنما في الواقع أن الكثيرين قد اعتبروا أنه لا يمكن أن نرد بواعث هذه الحركات جميعها إلى تفكير ماركوز وحده.

**(٥٣) ثـورة في الثـورة:**

ولعل أفضل المؤلفات لعرض الأفكار السياسية لفيدل كاسترو وأرنستو جيفارا وريجي دوبريه هو مؤلف الأخير الذي يحمل عنوان "ثورة في الثورة".

أ- وقد كتب كاسترو تحت عنوان "كوبا الاشتراكية" سنة ١٩٦٥: "إننا نؤمن بعقيدة ثورية جدلية، لا بعقيدة تحمل صفات الجمود .. وعلى هذه العقيدة أن تكـون

دليلنا في العمل الثوري، لا أن تثقل علينا كعقيدة جامدة. إن محاولة سجن الماركسية داخل نوع من الديانة هو بحد ذاته عمل مضاد للماركسية.

ونرى أن هذه الفكرة تلخص — إلى حد ما — تفكير كاسترو السياسي، حيث إنه لا ينكر ماركسيته، إنما يعتبر أن اختلاف الأوضاع من شأنه أن يفسح المجال لوجود عدة تفسيرات مختلفة نوعاً ما، وأنه يمكن أن يسمى أصحاب التفسير الصحيح بالثوريين. وبرأي روبير ميرل أن كاسترو يقف في منتصف الطريق بين الموقف الصيني الذي بني على الحوافز المعنوية، والموقف السوفيتي المبنى على الحوافز المادية للجماهير، ريثما تسمح ظروف التطور بالاستغناء عنها، والحوافز المعنوية للصفوة التي يتم اختيار كادرات الثورة وقادتها منها.

ب- أما بالنسبة لجيفارا (١٩٣١ — ١٩٦٧) فقد بحث قضايا الحزب والثورة، الحربو الطبقة، الكفاح المسلح والشرعية، علاقة الماركسية بالمجتمع الاشتراكي، حيث يعتبر أن الثورة المسلحة هي التي تصنع الحزب، ويذهب جيفارا إلى أن حزب الثورة هو حزب الفلاحين، وأن الطبقة العاملة في المدن ما هي إلا رديف لهؤلاء. وبنظر جيفارا أن القرى هي نقطة انطلاق الثورة، وهي — دون غيرها — القادرة في بلدان العالم الثالث. وفي كتابه "حرب الغوار" يقول: "إن المغاور هو قبل كل شيء ثائر فلاحي". وقد رفدت الثورة الكوبية الحركة الثورية في أمريكا بثلاث إسهامات" الثالثة منها تقول: إنه ينبغي في الانحاء المختلفة في أمريكا اتخاذ الريف ميداناً أساسياً للنضال المسلح. وهذا ليس يعني أن جيفارا أهمل دور المدينة، إذ يقول: "لقد أبخس النضال في منطقة المدينة قدره كثيراً، إلا أنه في غاية الأهمية. إن العمل الجيد واسع النطاق بإمكانه أن يشل الحركة التجارية والصناعية في هذا القطاع شللاً شبه تام، ويتسبب في إحساس جميع الشعب بعدم الاطمئنان والقنوط والقلق، بحيث يتمنون أن تقع حوادث عنيفة حتى يمكنهم الخروج من هذا الانتظار، فإذا ما جرى — منذ ابتداء الحرب — التفكير بالمستقبل وتم

تكوين اخصائيين لهذا النمط من القتال، فسوف يتم عمل أكثر سرعة، وبالتالي اقتـــصاد ثمين للأمة في الأرواح والزمن".

ويركز جيفارا – بالنسبة للشرعية والكفاح المسلح – على اعتبار أن الانتفاضة المسلحة لا الأحزاب هي التي بإمكانها أن تحسم الأمور. أما بالنسبة لموقفه من الاشتراكية والماركسية فهو يطابق رأي كاسترو الذي ألمحنا إليه سابقاً.

ج- وإذا ما جئنا لريجي دوبريه، فسوف نجد أنه اعتبر أن النضال الثـــوري لا يمكن أن يكون آلياً لصيغ ثابتة مجردة هي حصيلة نضال ثوري آخر. وفي كتابه "ثورة في الثـــورة" ينادي بالفصل بين النظرية والتطبيق دون أن يرفض عمل الـــسياسة لحـــساب العمل العسكري، أو اقترانهما في تنظيم "الجيش الشعبي" الذي يشكل نواته المغاوير. وهو – كجيفارا وكاسترو – يعتبر الحزب وليد الثورة. ويقول في شرح ذلك: إنه لـــيس في ذلك معادلة ميتافيزيقية بين الثوار والحزب، وإنما علاقة ديالكتيكية بين مهمة محـــددة – المهمة التاريخية للثوار – وبين شكل تنظيمي محدد – الحزب - علاقة ناجمة عن ظروف تاريخية ومتعلقة بها. وبنظر دوبريه فإنه لابد الأخذ بعين الاعتبار مضمون كل وضع وجه التحديد. ويعتبر – كجيفارا – أن القرى هي مصدر انطلاق الثورة.

**(٥٤) الإنسان العلمي وأتوبيا المسقبل:**

أتوبيا المستقبل هي الحكومة العالمية التي دعا إليها برتراند راسل، انطلاقاً مـــن السؤال: "هل يستطيع الإنسان العلمي أن يعيش؟". ويستدرك راسل: "نحـــن لا نعـــني بالمسألة ما إذا كان سيعيش لعشر سنين قادمة أو حتى لمائة سنة، فقد يستطيع – إذا واتاه الحظ – أن يحيا خلال فترات الخطر الماحق بأن يهاجر، أو أن يسانده الحظ مرة أخـــرى بالتغلب عليها. بيد أن الحظ السعيد لا يمكن أن يدوم طويلاً، وستتمكن المخاطر الـــتي تركناها تعيش بيننا من القضاء على الإنسان إن آجلاً أو عاجلاً".

وبنظر راسل أن الإنسان العلمي — ويعني به الإنسان المعاصر — لـــن يعـــيش طويلاً إذا ظلت الأوضاع الدولية الحالية على حالها، ومادامت القوات المـــسلحة تحـــت تصرف دول مفرقة، أو مجموعات من الدول لها السلطان المطلق الذي لا راد له علـــى الدنيا، ومادام أنه من المؤكد أن تنشب الحروب بين هذه الدول أو التكتلات عاجلاً أو آجلاً، ومادام التكتيك العلمي موجود، فإن الحرب ستكون نتيجتـــها دمـــار للبـــشرية جميعها. ومن هنا يدعو راسل إلى أن تكون أسلحة الدمار الهائل وكل أســـلحة الفنـــاء الجماعي تحت سيطرة سلطة واحدة حتى تصبح نتيجة لهذا الامتياز في قوة لا تنافس، وأن هذه القوة هي التي تستطيع الحفاظ على استمرار الحياة في عالم تـــسوده التكنولوجيـــا والصناعة الهائلة. وثمة طريقة مقبولة للحفاظ على السلام العالمي، وهي الاتفاق طواعيـــة على إخضاع الجيوش لسلطة دولية. قد يبدو هذا أملاً بعيداً وأتوبياً مأمولة، ولكن هناك كثيراً من السياسيين المحنكين يعتقدون أنه واقعي".

ويعلن راسل أنه من الممكن إنشاء ما يسميه "حكومة عالمية" يكون لها ســـلطة تشريعية وسلطة تنفيذية، بالإضافة إلى جيش لا يقهر. ولا ينشأ الجيش الذي لا يقهر إلا بعد أن تقوم الدول بتخفيض حجم جيوشها، بحيث تصبح مجرد قوة كافيـــة للأعمـــال البوليسية، ومنع حيازة الأسلحة النووية أو أي نوع آخر من الأسلحة أو القوى التي تدمر أي شيء يقف في وجهها، والحكومة لها الحق في أن تصنع في أي بلد من البلدان.

ويعتبر دستور الهيئة التشريعية الفيدرالية بحيث تكـــون الدول مستقلة ذاتيـــاً في كل شيء إلا في شئون الحرب والسلام. أما بالنسبة للتصويت فـــإن مـــشكلة الـــدول الصغرى والكبرى يمكن حلها عن طريق إيجاد اتحادات فيدرالية ثانويـــة بـــين الـــدول الصغرى. وتتناول سلطة البرلمان العالمي الاتفاقيات التي عقدت بين الدول بحيث يكـــون العمل بها معلقاً على إقرارها منه. وتتناول النظم التعليمية بحيث يمنع تلك الـــتي تـــشكل خطراً على السلام. وتكون السلطة التنفيذية مسئولة أمام السلطة التشريعية وتشرف على

القوات المسلحة. وهناك قانون عالمي تقوم محكمة دولية عليا بتطبيقه. كمـــا أن هنـــاك قانوناً جنائياً دولياً.

وينهي راسل مشروعه بالقول: "وأخيراً أعتقد أننا لو أردنا لمثل هذه الحكومـــة النجاح في محو المشاعر والدوافع التي تؤدي للحرب، فعلينا أن نـــدفعها للعمـــل علـــى المساواة الاقتصادية في مستويات المعيشة في الأجزاء المختلفة من الدنيا، لأنـــه مادامـــت هناك دول غنية ودول فقيرة، سنجد مداً في جانب وقدرة على الضغط الاقتـــصادي في جانب آخر. وعليه يجب أن يكون هناك عمل مطرد للوصول إلى المساواة الاقتـــصادية كجزء من العمل على بسط السلام الدائم.

(٥٥) الغلاسنوست والبيريسترويكا الجديد للاتحاد السوفيتي والعالم أجمع:

**ماهية البيريسترويكـــا:**

"بيريسترويكا" لفظ روسي تعني (إعادة البنـــاء) اســـتخدمها جورباتـــشوف (١٩٣١م) في كتابه الذي صدر عام ١٩٨٧م، الذي كان عنوانه "بيريسترويكا" لمفهوم لا يقف عند هذا المعنى، بل يضيف معنى آخر هو (عملية تجديد متعددة الجوانب متعددة الأهداف).

وانطلاقاً من اعتبار الشعب – بل الإنسان تحديداً على قول جورباتـــشوف – هو الوجه الرئيسي للتاريخ، وعلى ذلك فإن مهمـــة البيريـــسترويكا الأولى وشـــرطها الضروري ومكمن نجاحها تقوم على إيقاظ الإنسان ودفعه ليكون ناشطاً وذا مـــصلحة حقيقية والوصول إلى أن يشعر كل فرد أنه مالك البلاد، وأن مكان عملـــه ومـــصنعه ومعمله هي جميعاً مؤسسات يملكها. هذا هو الأمر الرئيسي.

**غايــة البيريسترويكا:**

وكما كتب جورباتشوف فإن هدف البيريسترويكا النهائي واضح من البداية. وهذا الهدف هو في الداخل تجديد معمق لجميع أوجه حياة البلاد وإعطاء الاشـــتراكية أحدث أشكال التنظيم الاجتماعي والكشف الكامل عن الطابع الإنساني لنظامنا (الاتحاد السوفيتي) في كل أبعاده ودلالاته الحاسمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والخلقية.

"وفي الخارج في مجال العلاقات الدولية ومستقبل العالم، بما أن العالم لا يعيش في جو الخطر النووي فقط، بل إنه يعاني من فشله في العثور على حلول لمسائل اجتماعيـــة وضغوطات جديدة ولدهما الثورة العلمية التقنية واحتدام المعضلات ذات الطابع العـــالمي الشامل، حيث إن البشرية قد وجدت نفسها في مواجهة مهمات وصعوبات لم يسبق لها أن واجهتها، هذه المهمات التي إن لم تبذل الجهود المشتركة لحلها، فإنها – أي البـــشرية – ستكون على موعد مع مستقبل غامض مبهم، فاتصال جميع البلـــدان الآن بعـــضها ببعض كما لم يسبق لها أن اتصلت فيما تراكم الأسلحة – وخصوصاً الصاروخية ذات الرءوس النووية – يجعل من نشوب حرب عالمية – وإن لم تكن مقصودة – أمراً كـــبير الاحتمال متسماً بالمصادفة سواء كان ذلك بخطأ تقني، أم بسبب خلـــل نفـــسي، أمـــا الضحية لذلك فسيكون كل ما هو حي على وجه البسيطة.

ولعل الجميع قد يوافق – في وقتنا الراهن – على أنه إذا نشبت حرب كهـــذه فلن يكون هناك منتصر أو مهزوم، كما أنه لن يكون هناك من يسلم منها، إنه خطـــر كبير ومميت يلحق بالجميع. ويقول جورباتشوف:

"إن أفق الموت النووي هو الأفظع بين "السيناريوهات" التي يمكن أن تتطـــور وفقها الأحداث. ولكن المشكلة تكمن في أمر آخر، فالسلم التصاعدي لسباق التـــسلح بالنماذج مع الوقائع السياسية العسكرية في العالم والتقاليد السائدة للتفكير السياسي لمـــا قبل النووي تمنع جميعها إرساء ذلك التعاون بين البلدان والشعوب الذي لا يمكن دونـــه

لدول الأرض حفظ الطبيعة أو استخدام ثرواتها وإعادة إنتاجها بتعقل. وهذا أمر يتفــق حوله الشرق والغرب يعني أنه لن يكون بوسع الإنسان أن يعيش كريماً عزيزاً".

وعلى هذا يعقب جورباتشوف:

"أجـــل .. إن العالم اليوم ليس كعالم الأمس، والمشكلات الجديدة لا يجوز أن تحل على أساس من نموذج تفكير سياسي موروث من القرون السابقة. ومن عجب فهل يمكن في الوقت الراهن التمسك بالموضوعية التي تقول بالحرب بوصفها استمراراً للسياسة ولكن بوسائل أخرى؟

"إن السياسة يجب أن تبنى على وقائع، والواقع الأهم في عالم اليوم يكمـــن في تركيز ترسانة أسلحة هائلة بما فيها الأسلحة النووية في أيدي الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي تحديداً، وهذا يلقى على بلدينا مسئولية مميزة إزاء العالم بأجمعه، فنحن عندما يحركنا هذا الوعي إنما نسعى مخلصين إلى تنقية أجـــواء العلاقـــات الـــسوفيتية — الأمريكية ونرغب في الوصول إلى حد أدنى من التفاهم المتبادل الضروري لحل المـــسائل التي يتوقف عليها مصير العالم".

**الغلاسنـــوست:**

وقد استدعى طرح البيريسترويكا اعتماد المجاهرة والمصارحة والعلنية، وهو مـــا يعبر عنه بالروسية بكلمة "غلاسنوست" التي نوه عنها جورباتشوف، حيـــث يـــرى أن الغلاسنوست لا تنفصل — اليوم — عن المناخ الروحي والأخلاقي الطبيعي في المجتمـــع، وهي تعطي الإنسان الفرصة في أن يفهم — بعمق — ما كنا عليه في الماضي وما نحن عليه اليوم وإلام نطمح أن نكون عليه، وماذا يوجد بين أيدينا من خطط. ولهاذ فهي تقـــدم المساعدة على المشاركة الواعية في البيرويسترويكا.

وبفضل تطوير الغلاسنوست — تحديداً — تزداد سرعة إشاعة الديمقراطيـــة في المناخ الاجتماعي والتقدم عن طريق التحولات الاقتصادية والاجتماعية. وغني عن البيان أن السياسة التي ينتهجها الحزب هي التي تقوم بتشكيل أساس هذه العملية. وإذا لم يكن النهج السياسي مفهوماً لدى الجماهير، فإننا لن نتمكن من إحراز أي تقدم. فيجب على الجماهير أن تكون على علم ومعرفة بكل تناقضات الحياة وتعقيداهما، يجـــب عليهـــا أن تطلع على الإنجازات، وأن تعرف ما الذي يعرقل حركة النمو وماذا يؤخره أو يقف في طريقه، فمن الضروري أن يمتلك الكادحون المعلومات الوافية والموثوقة عن كل ذلك.

**البيريسترويكا واللينينية والستالينية:**

وقد أورد جورباتشوف في التقرير الذي ألقاه في ٢٢ أبريل ١٩٨٣ في الجلسة الافتتاحية للاحتفالات بذكرى مولد لينين الموضوعات التي أثارها لينين حـــول ضرورة الأخـــذ بعين الاعتبار المتطلبات التي تنجم عـــن القـــوانين الاقتـــصادية الموضـــوعية، وكذلك الموضوعات التي تتعلق بالتخطيط المبني على نظام الإدارة المستقلة، والاستخدام الأمثل للعلاقات السلعية النقدية والحوافز المادية والأخلاقية.

وقد تحددت فترة الانعطاف نحو البيريسترويكا وتأسيس مفهومها، وذلـــك في اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التي انعقدت فـــي أبريل عام ١٩٨٥م.

وفي كتابه "البيريسترويكا" يلاحظ جورباتشوف أن غنى الأفكار اللينينية حول الإدارة والإدارة الذاتية ونظام الإدارة الاقتصادية المـــستقلة حـــــول تـــرابط المـــصالح الاجتماعية والشخصية في ظـــل ظروف كهذه لم تحظ بالاستثمار المطلوب و لم تكـــن موضوع تطوير. ونرى جورباتشوف يعلق على ذلك بقوله إن ذلك واحد فقـــط مـــن الأمثلة حول تحجر الفكر الاجتماعي وانسلاخه عن متطلبات الحياة الواقعية.

ونجد أن جورباتشوف ينبه إلى أنه لم يتم الاسترشاد الكامل بأفكار ليـــنين في الفترة التي تلت وفاته، وفي ذلك يقول إن "الأشكال والطرائق التي اعتمـــدت في البنـــاء

الاشتراكي والتي فرضتها أوضاع عكست ظروفاً تاريخية ملموسة ســادت في بلادنــا قوننت ونمذجت ورفعت إلى مرتبة الأفكار العامة التي لا تمس، وبنتيجة ذلك تكون نمطاً فقيراً وتخطيطياً للاشتراكية تغلب عليه سمة الإدارة المركزية ويفتقــر إلى تقــويم تنــوع اهتمامات الناس وغناها كما لا يولي الأهمية اللازمة لدور الجماهير في الحياة الاجتماعية مع ما رافق ذلك من ميول تسووية جلية.

ويقول جورباتشوف "ولنعط مثلاً على ذلك بالحــديث عــن أواليــة إدارة الاقتصاد. إن الوضع التاريخي الملموس الذي تطور خلاله الاتحاد الــسوفيتي في جــوهر الأمر، ثم الظروف المتطرفة القاهرة لم تستطع إلا أن تترك بصماتها، ومن ذلــك خطــر الحرب والحرب نفسها، وهما الأمران الأشد قسوة وتدميراً في تاريخنا الذي لم يكن يخلو دونهما من المآسي وما استدعياه من إعادة بعث الاقتصاد الوطني مرتين من بين الأنقاض. من الطبيعي أن يؤدي كل ذلك إلى مركزة صارمة للإدارة، مما جــر وراءه ضــموراً في قواعدها الديمقراطية.

**وقد خرج جورباتشوف من ذلك إلى التعليق قائلاً:**

"وهكذا بدأ ضيق القواعد الديمقراطية التي يقوم عليها نظــام الإدارة المتكــون ينعكس سلباً وبقوة في الظروف الجديدة، إذ لم يكن فيه سوى مكان صــغير للفكــرة اللينينية القائلة بإدارة الكادحين ذاتياً وبدا كما لو أن الملكية الاجتماعية أخذت تبتعــد بالتدرج عن مالكها الحقيقي، ألا وهو الكادحون. وغالباً ما كانت تتوزعهــا وتفتتــها الدواوينية وضيق الأفق المكتبي حتى أصبحت سائبة مجانية مفتقرة إلى مالك فعليّ، وبــدأ يبرز أكثر فأكثر تغرب الإنسان عن الممتلكات الشعبية العامة وانعــدام التــرابط بــين المصلحة الاجتماعية ومصلحة الكادح الشخصية. وفي هذا تكمن العلة الأساســية لمــا حدث .. أصبح نظام الإدارة الاقتصادية المتكون في الماضي عملاً كابحاً لتطور الاشتراكية وتقدمها إلى الأمــام".

### البيريسترويكا والديمقراطية والشرعية:

وبرأي جورباتشوف أن الديمقراطية جزء لا يتجزأ من الشرعية، فمن موانـــع البيريسترويكا العريضة والمبدئية، وانطلاقاً من جوهرها إشاعة الديمقراطية نتجه إلى تأمين الشرعية المتماسكة وتحسين الهيئات التشريعية، ولا يمكن أن توجـــد الـــشرعية بـــدون الديمقراطية التي بدورها — لا تستطيع أن تستمر وتتطور دون أن ترتكز إلى الشرعية، إذ إنها مدعوة لحماية المجتمع من سوء استخدام السلطة، وكذلك هي مدعوة إلى ضـــمان حقوق المواطنين وحرياتهم، بالإضافة إلى حقوق منظماتهم وتجمعاتهم العماليـــة المنتجـــة وحرياتها.

### البيريسترويكـــا والقانـــون:

وقد ذهب جورباتشوف إلى أنه من الواجب إجراء تحولات جذرية في مجـــال التشريع وفي تحديث التشريع الاشتراكي عموماً. كما ينبغي إحداث التغيرات العميقة في أوالية إدارة الاقتصاد والتنمية الاجتماعية. ويشكل ذلك أيضاً جزءاً عضوياً من إشـــاعة الديمقراطية في جميع نواحي حياة المجتمع. فالإجراءات التي تتخـــذ في مجـــال التـــشريع والقانون ستشكل دعامة لعملية البيريسترويكا، ويكون القيام بهذا العمل مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالإصلاح الذي يتم في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، مع الأخذ بعين الاعتبار رغبات الكادحين ونتائج دراسة الرأي العام.

وتفرض البيريسترويكا متطلبات أكبر فيما يتعلق بمضمون المراسيم التـــشريعية أيضاً. ويجب أن يضمن القانون — بحزم — الإجراءات التي من شأنها أن تكفـــل حمايـــة مصالح المجتمع، والوقوف في وجه كل من يمكن أن يلحق بها الضرر. والقانون — إذ يضع هذه الأطر الصارمة والحازمة — مدعو في الوقت نفسه إلى إفساح المجال الكـــافي أمـــام مبادرة المواطنين والتجمعات العمالية المنتجة والمنظمات. وفي إطار القانون، فإن النشاط والمبادرة يجب أن يلقيا الدعم والتشجيع بكافة الوسائل الممكنة.

ويذهب جورباتشوف إلى أن البيريسترويكا تطرح مهمات جديدة حتى أمـــام الممارسة السياسية والفكر الاجتماعي، فالقضاء على تحجر العلم الاجتماعي وفتح مدى واسع أمامه والقضاء نهائياً على عوائق ذلك الاحتكار المفروض على النظرية، والذي ميز مرحلة عبادة الفرد، أي عندما تكونت أشكال تطور المجتمع السوفيتي في ظل ظـــروف متطرفة قاهرة، فجعلت — أي الأشكال — من شخصية ستالين شيئاً مطلقاً. كل ذلـــك رؤي إليه بوصفه الممكن الوحيد بالنسبة إلى الاشتراكية.

وقد كان من الضروري أن يذكر جورباتشوف توافر كل الأسس للإعلان — خلال يناير ١٩٨٧ — وأثناء اجتماعات اللجنة المركزية عن كون النهج الـــراهن مـــن حيث جوهره العميق وجسارته البلشفية وتوجهاته الاشتراكية الإنسانية استكمالاً مباشراً للإنجازات العظيمة التي بدأت تتحقق على يد الحزب اللينيني في أكتوبر ١٩١٧، بل إنـــه ليس استكمالاً فحسب، وإنما هو تطوير لأفكار الثورة الأساسية وتعميق لها.

**شمولية البيريسترويكا والغلاسنوست:**

وبالنظر إلى البيريسترويكا والغلاسنوست نجد أنهما يمتدان إلى جميع المجـــالات ويشملانها بفعل ما تنطويان عليه من تجديد ديمقراطي، فعملية إشاعة الديمقراطية لا نجـــد انعكاساتها في المطبوعات فحسب، بل نجدها تتناول نشاط وسائل الإعلام الجمـــاهيري كلها. ويلاحظ جورباتشوف أنه في ظروف البيرويسترويكا وإشاعة الديمقراطية إنما يتغير أيضاً طابع النقد ومقياسه، فالنقد هو مسئولية في الدرجة الأولى، وكلما كان النقد أكثر حدة كان عليه أن يكون مسئولاً، والمقالات والكتابات التي تتناول المواضيع الاجتماعية ليست مجرد تعبير ذاتي شخصي أو أنه مجرد انعكاس للآراء الخاصة، بـــل إنهـــا قـــضية اجتماعية. وتدخل عملية إشاعة الديمقراطية تعديلات جوهرية في العلاقات المتبادلة بـــين الناقدين والمنتقدين. ويجب أن تتحول هذه العلاقات إلى علاقة شراكة، وأن تبنى علـــى قاعدة المصلحة المشتركة. وهنا نجد أن الحوار سيكون أكثر جدوى، ولا حاجة مطلقـــاً

إلى التوبيخ أو الموعظة أو التحدث بلهجة القضاء. وهذا ما نصادفه حتى عند كتاب على درجة كبيرة من الحرفة والاحترام. فليس لأحد الحق في أن يتخيل أنه المرجـــع الأخـــير للحقيقة.

وهناك مشكلة واحدة لا جدال فيها، وهي أن النقد يجب أن يقوم دائماً علـــى الحقيقة، وهذا يكون اعتماده على ضمير الكاتب والمحرر، وعلى شـــعورهما بالمـــسئولية حيال الشعب.

**البيريسترويكا والمثقفون:**

وقد دعا جورباتشوف في لقاء سنة ١٩٨٦م مع العاملين في جهـــاز اللجنـــة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى العمل مع الطبقة المثقفة بأسلوب جديد، لأنه — كما ذكر في كتابه بيريسترويكا — قد حان الوقت للكف عن توجيه المثقفين وإصـــدار الأوامر إليهم، وذلك لأن هؤلاء — كما وصفهم — يعتبرون الجزء العضوي من المجتمـــع ذي الشعور الوطني الراسخ حيال وطنه الاشتراكي. هم إنجازنا العظيم، ولعله الإنجـــاز الفريد في نوعه، إنهم يؤلفون الرأسمال الروحي الذي لا يقدر بثمن.

**البيريسترويكا والإصلاح الاقتصادي:**

وقد تجلت البيريسترويكا في المجال الاقتصادي عملياً في الإصلاح الاقتـــصادي الذي قام جورباتشوف بالدعوة إليه وذلك في دورة اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي عام ١٩٨٧م، وقد أشار إلى ذلك في كتابه بيرويـــسترويكا، حيـــث أوضح أن مفهوم الاقتصادي الذي وضعه وحمله في دورة يوليو، إنما يحمل طابعاً شموليـــاً تركيبياً لا يترك أياً من جوانب الموضوع دون تغيير عميق وجذري، حيث يتضمن تحويل المؤسسات إلى النظام الاقتصادي الذي يتمتع بالاستقلال التام (الحساب الاقتـــصادي) وإعادة البناء الجذورية للقيادة المركزية للاقتصاد، والتغيير الجذري للتخطيط وإصـــلاح نظام تشكل الأسعار وأوالية التمويل والإقراض وإعادة بنـــاء العلاقـــات الاقتـــصادية

الخارجية، وتشكيل بنى تنظيمية جديدة للإدارة وتطوير الأسس الديمقراطية للإدارة بكافة السبل المتاحة والتطبيق الواسع لمبادئ الإدارة الذاتية.

وقد طرح جورباتشوف المشكلة التي عانت منها المركزية "إن الأمور عنـــدنا على النحو التالي: هناك الكثيرون ممن يطالبون بتعزيز المركزيـــة، حيـــث إن المـــوازين والنسب والتناسب بين دخول المواطنين وكمية السلع وحجم الخدمات والسياسة البنوية ونفقات الدولة والدفاع، كل ذلك يقتضي اعتماد مبدأ المركزية المتينة. إن على جميـــع جمهورياتنا وشعوبنا أن تشعر بأنها تملك – جميعاً – ظروفاً وإمكانيات متساوية للتطور. وهذا ما يشكل ضمانة استقرار المجتمع السوفيتي، ولذا فإننا لا نريد إضعاف دور المراكز، وإلا فإننا قد نحرم من حسنات الاقتصاد المخطط.

"ولكنه من الواضح في الوقت نفسه أن المركـــز ينوء تحت عـــبء القـــضايا الثانوية. إننا سنحرره من العمل التطبيقي لأن من شأن ذلك أن يشغله عـــن القـــضايا الاستراتيجية".

ويضيف جورباتشوف قائلاً: "إن إعادة تنظيم الجهاز المركزي ووظائفه سوف تجري كما سبق وأشرت وفقاً لقانون المؤسسة الحكومية المنتجة للمشروع الحكـــومي، والمركزية في ظروف البيريسترويكا لا تمت بأدنى صلة إلى الترتيب البيروقراطـــي لحيـــاة التجمعات العمالية المنتجة والعلمية، وهي التي تعنى بالتصاميم الهندسية، ويجـــب علينـــا كذلك أن نقسم وظائف المركز والفروع وأن نقوم بتغيير طبيعـــة عمـــل الـــوزارات ووظائفها نفسها.

"ونحن الآن في صدد رسم نهج إشاعة الديمقراطية في التخطيط والبرمجة. وهـــذا يعني أن إعداد الخطط سوف يبدأ فعلاً لا شكلاً من المشروعات والمؤسسات نفسها، من التجمعات العمالية المنتجة، فهي بالتحديد التي ستضع خطط إنتاجها السلعي انطلاقاً من

الاحتياجات الاجتماعية المتمثلة في الأرقام الموجهة والطلبيات الحكومية والاتفاقـــات الاقتصادية المباشرة مع المستهلكين.

"ويترتب على لجنة التخطيط الحكومية أن تتخلى بصورة حاسمة عن التحديـــد التفصيلي والتنظيم الجاري لعمل الوزارات والدوائر. وعلى الأخيرة أن تقـــوم بالـــشيء نفسه تجاه المشروعات والمؤسسات وسوف يجري تنظيم نشاط المؤســـسات (صـــناديق الأجور، توزيع الأرباح والمساهمة في الموازنة العامة، الخزانة ... إلخ) بمساعدة المعـــدلات الاقتصادية ذات النشاط طويل الأجل، أي أن ذلك سيكون في الواقع تنظيماً ذاتياً.

وقد لاحظ جورباتشوف توسيع الغلاسنوست في جميع مراحـــل التخطـــيط، وتطبيق المناقشة العريضة للقضايا الحكومية العامة والإقليمية والاقتصادية والاجتماعيـــة والتقنية العلمية والبيئية. كما سيستخدم مبدأ التغاير والتفارق بهدف إيجاد الحلول المثلى في نظام التخطيط والبرمجة.

ويخلص جورباتشوف إلى القول "وباختصار سوف يجري توحيد مزايا التخطيط بدرجة متنامية مع العوامل التي تحفز السوق الاشتراكية. ولكن لك ذلك سيتم في نطاق الأهداف والمبادئ الاشتراكية لإدارة الاقتصاد".

البيريسترويكا الاجتماعية:

وفي مجال البيريسترويكا الاجتماعية يظهر بوضوح مفهوم متطـــور متجـــدد، وذلك عندما تحدث جورباتشوف عن العدالة الاجتماعية التي تم طرحها في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي السابع والعشرين — على أن الأساس التي تقوم عليه في المجتمع هـــو العمل، وأن عمل الإنسان فقط هو الذي يحدد له مكانه الحقيقي في المجتمـــع ووضـــعه الاجتماعي، ومادام أن الأمر هكذا، فلا مكان إذاً للتسوية المسطحة على الإطلاق.

ويستدرك جورباتشوف معقباً على هذا الطرح "إن التراعات التسووية مازالت تطل برأسها حتى الأن، فبعض المواطنين استوعبوا الدعوى إلى العدالة الاجتماعية علـــى ألها مساواة مطلقة بين الجميع، ولكن ثمة مطلباً يطرح بإلحاح في المجتمع، وهو مطلـــب التطبيق الحازم لمبدأ الاشتراكية في الحياة.

**جورباتشوف وآفـــات الإنسانية:**

وما يلفت نظرنا عند تناول جورباتشوف مسألة القوميات التي تجاهر بالنضال ضد الصهيونية " من تقاليد حزبنا النضال المبدئي ضد جميع تجليات التعـــصب القـــومي والشوفينية والانعزالية الصهيونية ومعاداة السامية مهما تعددت أشكالها.

**التفكير الجديد للعالـــم أجمع:**

وخلال المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي طرحـــت نظريـــة "العالم المتناقض"، وفي الوقت نفسه العالم المترابط ذي العلاقات المتبادلة المتفاعلة معـــاً، ووضعت نظرية إقامة نظام شامل للأمن الدولي توجه فيها الحزب إلى العالم بأســـره وإلى الحكومات والأحزاب والمنظمات والحركات الاجتماعية. ومن الإشارة إلى هذه النظرية ذهب جورباتشوف إلى القول في كتابه "بيريسترويكا".

"أجل، إننا نبقى مختلفين فيما يتعلق بالخيار الجمـــاعي والمعتقـــدات الدينيـــة والقناعات الأيديولوجية وأسلوب الحياة، وبالطبع سيظل هذا الاختلاف قائماً. ولكن ما الضير في ذلك؟ هل سننتحر بسبب هذا الاختلاف؟ ! أليس من الأصح أن نتجاوز مـــا يفرقنا في سبيل المصالح، مؤكدين على التفكير السياسي الجديد عن طريق البيانات الملزمة والأعمال والتصرفات الملموسة.

"لقد سئمت الشعوب التوتر والمجابهة، إنها تتوق إلى عالم آمن، عالم يصون كل واحد فيه أفكاره الفلسفية والسياسية والأيديولوجية ونمط حياته".

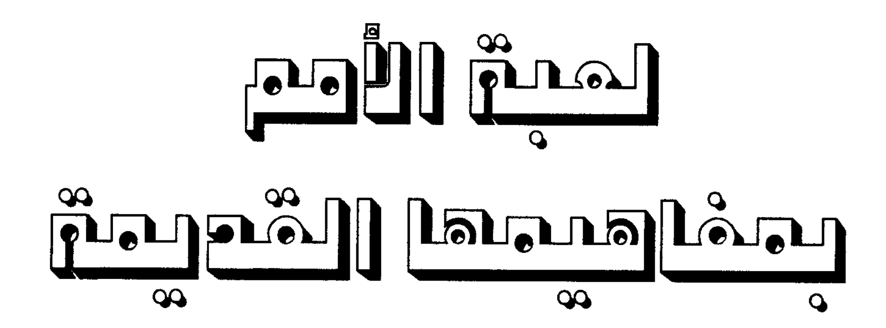
وفي موضع آخر من كتاب "بيريسترويكا" يقول جورباتـــشوف: "إن مبـــدأ الانطلاق الأساسي للتفكير السياسي الجديد بسيط، إن الحروب النوويـــة لا يمكـــن أن تكون وسيلة لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية وأيديولوجية، أو أي أهداف أخـــرى. وتكتسب هذه الخلاصة في الحقيقة طابعاً ثوريا كونها تعني قطعاً نهائياً مـــع التـــصورات التقليدية حول الحرب والسلم، فالوظيفة السياسية للحرب كانت دائماً تبريرها ومغزاها أو جورها العقلاني. أما الحرب النووية فهي عقيمة وغير عقيمة في التراع النووي العالمي. لن يكون هناك رابحون وخاسرون، لأن الحضارة العالمية سوف تفني فيه حتماً. إن التراع النووي ليس حرباً بالمعنى التقليدي، بل هو انتحار. ثم إن تطور التقنية الحربية قد ارتدى طابعاً تصبح معه حتى الحرب غير النووية بنتائجها المميتة مساوية للحرب النووية. ولهذا يصح أن نعزو التقديرات التي خلصنا إليها بشأن الحرب النووية إلى هـــذا النـــوع مـــن الصدام المسلح بين الدول الكبرى".

"ومن هنا يبدو الوضع مختلفاً تماماً، فنمط التفكير ونمط العمل القائمان علـــى استخدام القوة في السياسة العالمية قد تكونا عبر قرون، بل آلاف السنين. وقد اســـتويا على ما يبدو مسلمتين ثابتتين. أما اليوم فهما يفتقران إلى أي معنى عقلاني. إن معادلـــة "كلاوزفيتس" الكلاسيكية في حينها والتي تقول إن الحرب استمرار للـــسياسة ولكـــن بأساليب أخرى قد عفى عليها الزمن، و لم يعد لها من مكانة إلا في المكتبـــات فقـــط. ولأول مرة في التاريخ أصبح هناك حاجة حيوية لإدراج المعايير والقواعـــد الأخلاقيـــة الجمالية العامة في أساس السياسة الدولية وأنسنة العلاقات الدولية".

والأساس المبدئي للأمن عند جورباتشوف هو عندما تصل عملية التجديـــد إلى التعايش الإنساني على مستوى الشعوب والدول، ويقول في كتابه "بيريـــسترويكا": "إن الأساس المبدئي للأمن في عصرنا هو الاعتراف بحق كل شعب في اختيار طريق تطـــوره الاجتماعي بكل حرية، والامتناع عن التدخل في الشئون الداخلية للـــدول الأخـــرى، واحترام الآخرين المقرون بنظرة موضوعية نقدية ذاتية إلى كل مجتمع بعينه. ومن حـــق

الشعب أن يختار الرأسمالية والاشتراكية، وهو سيد هذا الحق ولا يمكـــن للـــشعوب ولا ينبغي لها أن تتبع مشيئة الولايات المتحدة ولا مشيئة الاتحاد السوفيتي، إذ يجـــب فـــصل المواقف السياسية عن التعصب الأيديولوجي".

***


لعبة الأمم
بمفاهيمها القديمة

# الأنظمة الثورية ومشاكل السلطة

**رفع هذا التقريرر إلى الحكومة المصرية في عام ١٩٥٣ جيمس ابخليزغر خبير وزارة الخارجية الأمريكية بالأنظمة العسكرية في الدول النامية.**

## مقدمة

إن جوهر الحكم هو القوة فالحكم ليس محرد اقتراح اجراءات عامة أو إصـــدار أحكام قضائية . ولكنه " اضطلاع " بهذه الإجراءات و " تنفيذ " لتلك الأحكام .. ولهذا كانت المحافظة على السلاطة هدفا في حد ذاتها . لا يختلف في هذا نظام عن نظام . مهما تعددت الأسماء وتابدلت الصور . وأما النجاح في تحقيق ذلك فيبقى رهينا بانتقاء أكثـــر الوسائل ملاءمة وأضمنها نتيجة .

ففي الأنظمة الدستورية تلعب التقاليد و " القوانين الأساسية " دورا هامـــا في فرض القيود على الوسائل المتبعة للمحافظة على السلطة . فالحكومة في النظام الدستوري لا تملك ا، تقوم بإلقاء القبض على زعماء المعارضة لمجرد أسباب سياسية . لكن الأنظمة السائدة ليست كلها من هذا القبيل . فهناك أ،ظمة لا تخضع في تصرفاتها لقيود واضحة المعالم محددة المعاني . بل ولا تجد حرجا في اتباع كل المسالك التي تضمن لها الـــسلطة . وتؤكد لها البقاء . ويشتهر هذا النوع باسم " حكومات الثورة " أو " الأنظمة الثورية ".

ويعرض التاريخ لمبدأين أساسيين للمحافظة على السلطة تجميعها فيبد الحكومة

● فالمبدأ الأول يقول باعتماد السلطة في بقائها على اجراءات القمع والإرهاب . أو باعتمادها على سياسة البناء والإصلاح . ويتجسد هـــذان القـــولان في شـــكلين متناقضين من أشكال أنظمة الحكم . فالقول الأول يتمثل في نظام ظالم وحكم مـــسبد، يفرض نفسه على الشعب عنوة. ويرسم للمواطنين ما عليهم أن يسلكوه وينجـــزوه ، دونما رأى منهم أو مشورة . وأما القول الثاني فيتمثل في نظام شعبي وحكـــم مقبـــول " دون اشتراط الشكل الديمقراطي له " ، يستمد قوته في التنفيذ من رضى الأمة به وتأييـــد المواطنين له .

● ألا أن القولين لا يمثلالان سوى نوعين من أنواع الحكم التي هي على طـــرفي نقيض . بل وأننا لا نجد في التاريخ ذكرلاا لنظام حكم ألتزم حرفيا بواحد منهما واتخذه سنة له وهديا ، دون شذوذ أو خروج . ولذا فأن من أولى المهام التي تواجهها أنظمـــة الحكم الثورية ، هي انتقاء مسلك معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط . فاختيـــار أنـــسب المسالك وأضمن الوسائل مهمة غير يسيرة . عوعلى أهداف الثورة وغاياتها أن تحدد ذلك وتقرره .

فالثورة التي لا تطمع أن تكون مجرد نظام حكم ديكتاتوري ساذج ، التي تطمح . في الوقت نفسه . أن تكحون أكثر من مجرد دسائس ومؤامرات تحـــاك في ردهـــات القصورة ودهاليزها . يتوجب عليها أن تحدد أهدافها على أساس من النقطتين الرئيستين التاليتين :

( ١ ) فمن واجبها أ، تجد الحلول لكـــل المـــشاكل الـــسياسية والمعـــضلات الاجتماعية الملحة .، التي اقتضت قيام الثورة نفسها ، وجعلت نجاحها ممكنـــا ، وبهـــذه الطريقة . دون غيرها . نتمكن الثورة من إزالة آثار نظام الحكم السابق ، الذي أخفق في تشخيص الداء ووصف الدواء .

(٢) ومن واجبها أن تكون قادرة على تطوير نظام دســتوري جديــد يخلــد منجزاتها ، ويحافظ على مكتسباتها . دون خوف من ردة . أو خشية مــن عــودة إلى سيئات الماضي وآثامه.

فعندما تتوفر هذه الغايات ضمن الأهداف الأصلية للثورة . فإن النظام الثوري لن يجدد نفسه مضطرا إلى الاعتماد كليا على وسائل القمع والإرهاب لبقاء حكمه إذا ما تبنى وسائل الإصلاح وسياسة البناء . ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالقمع – بكل مــا يعني من مخابرات ومباحث و أمن عام – لا يمكنه البقاء طــويلا . وإن كــان أحيانــا ضروريا . ويجب أن تحل الإصلاحات محله تدريجيا وأن تطرده أعمال البناء أمامها نهائيا . دون رجعة أو عودة .

● والمبدأ الثاني الذي يذكره التاريخ لنا ضمن وسائل المحافظة علــى الــسلطة وبقائها . هو أن كافة إجراءات الحكومة منجزاتها تؤثر- عاجلا أم آجلا – على " قاعدة الحكم " التي تتخذها أساسا لها ومرتكزا ، فمن ناحية أولى ، فإن عبارة " قاعدة الحكم " تعني مدى قدرة الحكومة على الصمود في وجه المعارضة وكبحها لجماحها . ومن ناحية أخرى . فإنها تعني مدى رضى الشعب بالحكومة وتأييده لها . وتتجسد قدرة الحكومة في الوقوف في قاعدة القمع والإرهاب . وبعبارة أخرى ، فإن قبول الــشعب بالحكومــة يتجسد في قاعدة الإصلاح والبناء التابعة لها . وهكذا يتضح ألآن ما ذكرناه سابقا مــن أن كافة أجراءات الحكومة ومنجزاتها تؤثر – عاجلا أو آجلا- على " قاعدة حكمها " ، فسياسة الحكومة أعمالها الإدارية تقرر – مباشرة وغير مباشرة - مــدى حاجتــها إلى استعمال وسائل الشدة والإرهاب وتحدد كل زيادة فيها أو نقصان .

إن الإجراءات الحكومية التي لها تأثير مباشر على " قاعدة الحكم " تهدف أساسا إلى المحافظة على اسلطة وعلى ضمان استمرارها . وكمثال على الإجراءات المباشرة التي تخص قاعدة القمع والإرهاب فإننا نذكر تلك الإجاراسات التي من هدفها زيادة فاعلفية الجيش ، ورفع درجة ولائه . وضمان إخلاص أجهزة المخابرات والأمن العام . وغيرها

من الأجهزة الحكومية التي لها صبغة عسكرة . وكذلك تلك الإجراءات التي تنص علــى اعتبار بعض أصناف النشاط السياسي غير قانوينة وبالتالي يتعرض العــاملون فهــا إلى الاضطهاد والتعذيب . وكمثال على الإجراءات المباشرة الــتي تتــصل بقاعــدة النــاء والإصلاح . فإننا نذكر تلك الإجراءات التي تشجع على ممارسة بعض أصناف السياسة الموالية للحكومة ، ويعتبر من هذسا القبيل أيضا إصدار بعض التسهيلات الدستورية مثل قانون الانتخابات الذي يجب أن يمنح بعض الميزات والمنافع للفئات والطبقــات الموالـيــة لنظام الحكم القائم والمؤيدة لأهدافه.

إن كل ما يتخذه نظام الحكم القائم من تدابير ذات أهداف بعيدة – مثل تقوية الحالة الإقتصادية – له تأثير غير مباشر على " قاعدة حكه " كما لا ينكر مدى تأثيرهــا على الوضع السياسي العام في البلاد . فعندما تقوم الحكومة بوضع الصعاب في طريــق أحدى الفئات المتمتعة بوضع اقتصادي قوي بغية شلها أو تصفيتها . فإن هذه الفئة تصبح بحكم الواقع منبوذة . بل وخارج " قاعدة الحكم " الموالية للنظام القائم . كما تــصبح أيضا مرتعا خصبا لنمو الشعور المعادي له . وبالمقابل فإن أي تحسن فيالوضع الاقتصادي لإحدى الفئات أو الطبقات نتيجة تدابير حكومية " سواء تحقق ذلك آنيا أو كان علــى شكل وعود مأمولة الإنجداز " فإن تلك الفئة أو الطبقة تنتقل تلقائيا من صف المعارضــة إلى صف الموالين " لقاعدة الحكم" النظام القائم حتى ولو كانت منبوذة سياسيا فيالعهــد السابق ومعادية له . ومع أن الغاية الرئيسية من إنشاء المشاريع العامة ليست سياســية . لكنه لا يجوز إغفال ما لها من آثار سياسية هامة . فتكتيلها للفئات الشعبية في المناطق التي تنفذ فيها ول النظام القئم يعتبر مددا حساسا " لقاعدة حكمه " ودعما جيــدا لوضــع حكومته . ولا يقل عن هذا إي إصلاح أو تعديل فينظام فرض الضرائب أو فيالأنظمــة الإدارية الأخرى . ولا يخلو أن يكون لبعض الإجراءات تأثير مباشر على " قاعدة الحكم " .

وفي الوقت نفسه تأثير غير مباشر ولكنه مضاد للأول . فمثلا . وجود أعـــداد كبيرة من أفراد الجيش والأمن العام . أعضاء في تنظيم سياسي غير قانوني . له تـــأثير مضاد وغير مباشر . على متانة ولاء أجهزة القمع والإرهاب للنظام القائم.

وعلى وجه التقيب . فإن كافة التقارير الإدارية والإجراءات الحكومية تتمخض عن نتائج سياسية مهاما كانت غايتهال الأساسية . ولذا فإن عبقرية زعمـــاء الثـــورة وقادهما تنعكس دائما في الدقة المتوخاة عند محاولتهم تقرير سياسة الحكومة حجسب حاجات الشعب الذي يبقى دائما وأبدا مصدر الدعم الرئيسي للثورة. ومع أن زعماء الثورة لا يميلون إلى إتباع سياسة غير سياسة البناء والإصلاح ، فإنهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اللجوء إلى أقصى وسائل البطش والإرهاب حال إحساسهم بضرورة ذلك.

فإذا استوعبنا ما سبق ذكره. وأدركنا مقاصد معانيه ومراميهـــا. وجـــدنا أن الإحتفاظ بالسلطة وضمان بقائها يتطلب الإلتزام بقاعدتين أساسيتين هما :

١- على حكومة الثورة أ، لا تضع سياسة ما . أو تزمعغ على اتخاذ إجراء ما ، حتى تحدد تأثير ذلك المباشر وغعير المباشر على قاعدة حكمها .

٢- وعلى حكومة الثورة أن تعطي الأولوية لإنشاء " قاعدة حكم " متينة لدعم سلطتها . حتى لا تجد نفسها مضطرة . تحت ضـــغط الجمـــاهير . لإتبـــاع سياســـة الإنحراف والمساومات .

ومن الصعب العثور على أية نظرية محددة المعالم . مضمونة النتائج ، لتساعد قادة الحكومات الثورية في معرفة الإجراءات والأعمال التي لها تأثيرات سياسية مطلوبة . أو لتساعده في تكوين " قاعدة حكم " تلائم النظام القائم وتحافظ عليه . أ، نجـــاح الحكم الثوري في خطواته وامتلاكه " قاعدة حكم متينة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالوفضع السائد في داخل البلاد . كما يعتمد على بعد نظر القادة أنفسهم . واتساع أفقهـــم ، وخصوبة مخيلتهم . وفوق كل هذا وذاك . فإن سر نجاحهم في هذا كله . يكمـــن في

قدرتهم على الأخذ بزمام المبادرة . وفي مواجهة المواقف بجرأة وشجاعة . ومهاما كان فالمرء لا يعد أن يرسم بعض الخطوط العريضة العامة . ومنها:

١- إن اللجوء لأساسليب القمع أمر لابد منه . وخاصـــة في المرحلـــة الأولى للثورة .

٢- يجدب أن لا يكحون من ضمن أهداف النظام اثوري مجرد الحصول علـــى التأييد اشعبي . فالتأييد الشعبي أمر مؤقت بل وزائل . ودخول النظام القائم في ميـــدان منافسة كهذا . مع بعض الفئات " أو حجتى الأفلاد " الذين لا يعدمون فرص دخوله . سيجعل الثورة في خطر أن تجد نفسها تابعة غير متبوعة . أن الشهوة الجارفة في نفـــوس قادة الثورة لمجرد الحصول على تأييد الجماثير وضمان هياجها لصالحهم، تعتـــبر بـــادرة خطيرة ، بل وقاتلة . ف٦هي لا ترمز إلا إلى الضعف والانهيار في " قاعدة الحكم " التي يعتمد عليها النظام القائم ،

٣- أ، نظام الحكم الذي يود كسب تأييد الشعب له . بناء على سياســـته في الإصلاح والبناء ، يجب أن يعتمد على دقة تخيط سياسة الحكومة وعلى حسن تطويرها " وهذا عكس مجرد الحصول على الشهرة الشعبية" ، مستخدمة في ذلك كـــل وســـائلها وأجهزته . مباشرة وبصراحة ، لإثارة عواطف الفئات والطبقات الكبرى من الـــشعب لصالحها. والظهور بمظهر الحريص على مصالحا والمحافظة على حقوقها.

٤- إن لإجراءات السلطة تأثيرات غير مباشرة على " قاعدة حكمها ، لا تقل أهمية عن تأثيراتها المباشرة عليها.

٥- أن للتنظيمات الشعبية . غير التابعة مباشرة لنظام الحكم، أهمية خاصـــة في إنشاء وتكوين ، " قاعدة الحكم" المؤيدة والعاملة في سياسة الإصلاح والبناء أثناء عهـــد الثورة القائم ، وأثناء مرحلة الانتقال إلى الشكل الدستوري للدولة .

٦- أن الشكل الدستوري الجديد للنظام يجب أن يعتمد مباشرة علـــى قـــوة سياسة الثورة في الإصلاح والبناء.

٧- أن قوة أجهزة المخابرات والمباحث، وحسن تنظيمهـا . وابتعـاده عـن الارتشاء والعبث . وعوامل جد أسياسية لتنفيذ تدابير قمع فعالة ، وللقيام بتحليل دقيـق للقواعد الجماهيرية المؤيدة لنظام الحكم.

## -٢-

## العهد الثوري

بعد كل هذا الاستعراض للخطوط العامة . أصبحنا ألآن في وضع ملائم لبدء تفحص المشاكل التي تواجه النظام الثوري في احتفاظه بالسلطة واستمراره بالحكم كما هي على الطبيعة حقيقة . ولا مانع من إلقاء نظرة عميقة على المعطيات التي يحاول النظام الثوري الإعتماد عليها في تصرفاته المباشرة . أو غير المباشرة . ولقد سبق أن أبرزنا أهمية هدفين أساسيين لكل ثورة تطمح أن لا تجعل من نفسها مجرد حكم ديكاتاتوري ساذج ، وهما :

١- عليها أ، تقوم بإيجاد الحلول للمعضلات السياسية والاجتماعية الملحة الـتي قضت بوقوع الثورة .

٢- وعليها أن تطور وضعا دستوريا جديدا ليحافظ على منجـزات الثـورة ومكتسباها أو ليخلدها.

ومع أ، هذين الهدفين يقتضيان وجود مرحلتين للثورة . فمن المـستحيل تحديد نهاية الأولى وبداية الثانية . وبوضوح أكثر ، فالتمييز بين هاتين المـرحلتين لا يتضح إلا من خلال التباين في طريقة إظهارهما والتشديد عليهما . فنهايـة العهـد الثوري تتداخل بصورة غير ملحوظة مع بداية عهد النظـام الدسـتوري الجديـد .والحقيقة أنه لا فائدة من تحديدهما بوضوح إلا لهدف المناقشة وتحليل الأحـداث .

وسنقترب من هذا ( في سياق تقريرنا ) دون أن ننسى أن مرحلة وضع الدستور الفعلي تبدأ مع أول مراحل سياسة الإصلاح والبناء التي تقوم بها الثورة . وإن استمرار بعض إجراءات القمع والإرهاب ، لفترة طريقة بعد تدشين العهد الدستوري الجديد، أمر لابد منه، وسنرمز إلى المرحلة الأولى للثورة باسم " العهد الثوري" ، وللمرحلة الثانية باسم " عهد ما قبل الدستور " .

ولابد للثورة من أن تقوم بإلغاء بعض أو كل المؤسسات السياسية المنتشرة في البلاد التي ثبت عدم قدرتها على حل المشاكل السياسية والاجتماعية الملحة التي اقتضت قيام الثورة . وهذا هو أنسب الأوقات وأصلحها لإحداث تطورات سريعة ، تفقد بموجبها بعض الفئات والطبقات قوتها كمؤسسات سياسية ، وتوضع في موقف حرج تضطر معه إلى الدفاع عن نفسها وذلك بسبب التيار الجارف لطبيعة الانقلاب الجديد التي تقف وراءه القوات المسلحة . كما أن النجاح السريع لنظام الحكم ، في تكتيل الجماهير الغوغائية المؤيدة له تحت شعارات الإصلاح والبناء ، له أكبر الأثر في تدعيم الخطوة السابقة، ثم لا تلبث مرحلة " التدعيم والتعزيز الثوري " أن يأتي دورها بعد تلك الخطوات السابقة وبعد أ، يكون الحكم الثوري قد اتخذ شكلا أوليات يؤهله لأن يخوض هذه المرحلة بكل ما يكتنفها من صعاب فعليه في نواحي الإدارة وتخطيط السياسة .

وف٦ي أثناء هذه المرحلة ، تبرز الأخطاء المضادة للثورة في أقوى مظاهرها . وتنتج من أحد المصادر الثلاثة التالية :

١- من أولئك الذين كانت لهم مصالح ضخمة في نظام الحكم السابق . أو من مؤيديه ، أو ممن تطغى عليهم عاطفةى جامعحة في تأييده .

٢- من أولائك السياسيين الانتههازيين الذين يحهاولون الاستف٦ادة باستمرار من الاتجاته الطبيعي نحو الاضطراب وعدم الاستقرار الكامن في الوضع الثوري.

٣- من أولئك الساسة الهدامين الذين يحاولون سرقة الثورة وتـــسخيرهاه لأهدافهم ومآربهم ، كالشيوعيين مثلا.

ومن هذه المصادر الثلاثة — مجتمعة أو منفصلة — تبرز الأخطاء الثلاثة التالية :

١- انقلاب عسكري يقع نتيجة ارتباطات بين عناصر في الجيش وقـــوى الأمن الداخلي ، وبين بعض الزمر والجماعات الموجودة داخل حكومة الثورة نفسها .

٢- انقلاب عسكري مضاد يحدث نتيجة ارتباطات بين بعض العناصر من الجيش وقوى الأمن الداخلي ، وبين القوى السياسية في الخارج وخاصة تلك التي تملك القدرة على إثارة هياج ومظاهرات شعبية .

٣- تسلل عناصر مناوئة لأهداف حكومة الثورة . ونجاحها في الوصـــول إلى إحدى النتائج التالية :

أ- تحريف خبيث لبرنامج حكومة الثورة .

ب- إتلاف كامل لبرنامج حكومة الثورة .

ت- إضعاف قدرة الحكم على الاحتفاظ بـــسلطته وبالتـــالي التحـــضير للإطاحة به نهائيا.

وبالضرورة ، فليس هناك من وسيلة بمجابهة مثل هذه الأخطـــار ، ســـوى استخدام سلطات الحكومة — علنا ودون تحفظ أو تقصير — لقمعها أو الحيلولـــة دون وقوعها واستفحال شرورها، ولقد نوهنا سابقا ، أن اللجـــوء إلى إجـــراءات القمـــع والإرهاب أ/ر لابد منه في المرحلة الأولى لثورة ، على أن تحل سياسة الإصلاح والبناء محلها فيما بعد كأساس لاستمرار سلطة النظام القائم ، وهذا هو التعاقـــب الـــصحيح لمراحل تقدم الثورة وتطورها . ومن العجب أن يتبع عدد غير قليل من الثورات عكس هذا الاتجاه . فمن الخطأ أن تعتمد الثورة . في مرحلتها الأولى بإفراط علـــى سياســـة الإصلاح والبناء ، ومن ثم تلجأ إلى إجراءات القمع والإرهاب كعامل حاسم لـــسحق

أعدائها. أن هذا السلوك . بعينه ، هو ذالك المرض الخبيث الذي تعاني منه الثورات ، وهو الكفيل بالقضاء عليها قضاء مبرما .

والتحليل الموضوعي لما سبق ذكره هو كما يلي : يضطر قـــادة الثـــورة إلى انتهاج سياسة الانجراف والمساومات شيئا فشيئا ، لأن الثورة لا تتمكن من إحكـــام قبضتها على أجهزة الدولة في بداية عهدها . ولأفنها لا تملك منح ثقتها لأجهزة القمع والإرهاب لشكها في كفاءة تلك الأجهزة ونفوذها ، وستحاول قيـــادة الثـــورة أن تحافظ على السلطة عن طريق كسب الشهرة الشعبية ، وإثارة أزمة نفسية لا تنتـــهي حيال طريقة توجيه شؤون الدولة ومصالحها، وهكذا تكون الثورة قد وضعت أهدافها جانبا ، أو تركتها تحت رحمة الظروف والمناسبات نتيجة جهودها الخاطئة في المحافظـــة على السلطة وفي ضمان بقائها . ولكن سرعان ما تفقد سياسة الانجراف والمساومات فرصها كلما اتضح إفلاس الثورة ، وبان للعيان فشلها ، وهنا تضطر حكومة الثورة إلى اللجوء إلى رسائل القمع والإرهاب ، كما تضطر إلى تشكيل الأجهزة المنفـــذة لـــه وتطويرها بسرعة وطيش ، ولو افترضنا أن التطوير السريع لأجهزة القمع والإرهـــاب كان ناجحا ، اضطرت الثورة عندما للإعتماد على القمع والبطش بإفراط ، ولكـــن يحدث ذلك في الوقت الذي يجب على الثورة أن تكون منصرفة فيه تنحو منح البلاد عهدا دستوريا جديدا'، وهكذا تكون الثورة قد تفسخت حقيقة ، وانقلبت إلى متجرد نظام ديكتاتوري وحكم مستبد ، أما في حال عدم نجطاح قيادة الثـــورة في تطـــوير أجهزة للقمع بالسرعة الضرورية وبالكفاءة اللازمة ( وهذا ما يحصل عـــادة بـــسبب التأخير ) . فإن حنكومة الثورة ستجدح نفسها مضطرة إلى الانتقال انقلابيا إلى نظام دستوري جديد ، دون أن تكون قد استكملت بعض أو كل مقوماته ، أو حققـــت بعض أو كل أهدافه . وهذا هو أهون الشرين وأخف الضررين ، أما إذا جرت الرياح عكس ما تشتهيه الثورة وتتماناها ، فإن النظام الثوري بأكمله سيقع ضـــحية ثـــورة مضادة لا تبقي ولا تذر .

ويتضح من هذا كله ، أن سياسة الانحراف والمساومات هي حليفة الثورة المضادة ، كما أنها جرثومة فتاكة في داخل جسم الثورة نفسها. فعنـــدما يتـــذكر المواطنون أن سياسة حكومة الثورة لا تختلف عن سياسة حكومة العهد البائد التي كانت السبب المباشر لقيام الثورة ضده والإطاحة به – هذا أن لم تكن نسخة مماثلة له – فإنه يصبح مؤكدا أن سياسة حكومة الثورة الحالية ستشكل دافعا مشجعا لكل أولئك الذين يتطلعون إلى نسف الثورة وسحقاها دون رحمة أو هوادة .

إن قاعدة القمع والإرهاب التي يجب على حكومة الثورة أن تلجأ إيها عند الضرورة تتألف في هيكلها مما يلي :

١- الأنظمة والقوانين
٢- قوى الأمن الداخلي
٣- أجهزة المخابرات والمباحث ذات الكفاءة العالية .
٤- وسائل الندعاية .
٥- قوة عسكرية بكفاءة عالية أو الجيش .

- أنظمة والقوانين :

إن الاستعانة بالأنظمة القوانين لتحقيق الاستقرار السياسي خلال الفتـــرة الأولى من حكم الثورة أمر ضروري لابد منه . وليس الهدف من ذلـــك تنحـــريم النشاطات السياسية المنظمة التي لا ترغب السلطة الحاكمة بها فحسب ، بل الهدف منها أيضا إضفاء صبغة اللاشرعية على كل النشاطات الهدامة الداعية إلى الـــشغب والفوضى . وأفضل الإجراءات في هذا المضمار ، هي مراجعـــة كافـــة الأنظمـــة والقوانين القائمة التي لها علاقة بتلك الموضوعات ، وتعديل ما يلزم منهعا حـــسب الظروف الجديدة ، ثم توضيحها وجمعها في مرسوم واحد " أو مجموعة مراســـيم " وتعميمها على أوسع قدر ممكن ، وهكذا تصبح هذه التشريعات أساسا للمحافظة

على أمن الدولة . كما أنها تقوم بتحديد مهمة قوى الأمن الداخلي وأجهزة المباحث " وزارة الداخلية " ، وتوضح كذلك واجبات المواطنين وحقوقهم . وفي الوقـت الذي يجب أن تكون هذه التشريعات واضحة قدر المستطاع ، فإنها يجب أن تبقـى أيضا عامة حتى لا تعييق الحكومة نفسها ، وتسلب رجال السلطة حرية التـصرف المطلوبة . كما يجب أن لا تظهر هذه التشريعات على أنها لصالح فئة — أو طبقة — وضد أخرى ، أو أنها تعطل بعض الحريات العامة كحرية التعبير والانتقاد وغـير ذلك . ولكنها بنفس الوقت يجدب أن لا تكون عقبة كأداء في وجه سلطة النظـام القائم ، أو أن تحول دون اتخاذها الإجراءات اللازمة لحماية نفسها ، وعلى هـذه التشريعات أن تحقق غايتها المرجوة ألا وهي اعتبار كافة أعمال التآمر — كقلـب نظام الحكم ، أو تأييد الذين يفكرون بهذا والدفاع عنهم ، أو تـرويج الـشائعات الكاذبة ، أو بث الذعر بين الناس ، أو إشاعة تجو الكآبة مما يحرض النـاس علـى أعمال العنف ، أو الإدلاء بأسرار الدولة الرسمية ، أو القيـام بأعمـال التجـسس والتخريب — أعمالا غير قانونية تستحق العقوبة الجزاء ، كما يجب عليها أن تمـنح قوى الأمن الداخلي الحق في تحريم الاجتماعات العامة والتجمعات التي تبلغ حـد الخطر في الشوارع ، وتفرض الحصول على إذن مسبق لإقامتها . ومن المسلم بـه جدلا ، خضوع السلطة القضائية برمتها — دون استثناء — لإرادة حكومة الثورة . كما أن كافة الأحكام الصادرة بحق المخالفين لأنظمة أمن الدولـة . يجـب أن لا تكون — بأي حال من الأحوال — مخالفة لرغبة حكومة الثورة وانشراح صدرها.

- **قوى الأمن الداخلي :**

يجب على قادة حكومة الثورة إعطاء أجهزة قوى الأمن الداخلي ( الشرطة والمباحث والأمن العام ) الأولوية على سائر الأجهزة الأخرى في الدولة . فقـوى الأمن الداخلي تعتبر بمثابة الدرع الحامي لنظام الأمن في الدولة وضمان اسـتتباب

الأمن والنظام في الأزمات التي لا تبلغ حدا خطيرا يتطلب معه استدعاء الجـــيش . ولهذا يتوجب القيام بتفحص وتحري كامل هيئة قوى الأمن الـــداخلي وعملياتهـــا باستمرار حتى يضمن ولاؤها . ويحافظ على حسن أدائها لمهماتها. وعلـــى قيـــادة الثورة منح رئيس قوى الأمن ومساعديه ثقتهم التامة . كما عليهم أن يولوا تطوير فاعلية تلك الأجهزة في حفظها للأمن عنايتهم الشخصية والمباشرة . وهـــذا يعـــني بالضرورة إضفاء الصبغة السياسية على كافة أجهزة قوى الأمن الداخلي . لتكون عند الضرورة يدا موالية لحكومة الثورة بصفة شبه عسكرية.

أ، من مهمات أجهزة المباحث التابعة لقوى الأمن الداخلي ما يلي :

تجميع كافة المعلومات الماسة بوضع الأمن في الدولة عن طريق إنشاء شبكة واسعة للتحريات ، وإجراء التحقيقات السريعة في قضايا الأمن بممارســـة الطـــرق العادية للمراقبة والاستنطاق والتسلل إلى المستويات الدنيا لكافة الجماعات المشكوك في ولاؤها للثورة ، كما أن عليها القيام بتطوير جهاز فعـــال ضـــد المظـــاهرات والاضطرابات.

- **أجهزة المخابرات :**

أن دماغ كافة أجهزة الأمن لنظام حكم ثوري ( أو حتى لأية دولة أخرى) . والمركز الحساس بها . هو ذاك الجهاز الذئي هو على غاية من السرية . والذي لا يعرف تفاصيل وجوده سوى رئيس النظام الحاكم ومن حوله من زعمـــاء الثـــورة القياديين ، ويطلق على ذاك الجهاز اسم " المخابرات " . وتقع على عـــاتق هـــذا الكيان المتغلغل فيكافة أرجاء أجهزة الحكومة ودوائرها " وحتى خـــارج أجهـــزة الحكومة " مسؤولية تزويد رئيس الدولة بالمعلومات الهامـــة والـــضرورية للقيـــام بإجراءات فعالة وفورية ضد الأخطار المضادة للثورة . كما يجب على هذا الكيـــان

أن يزود رئيس الدولة وكبار رجالها بالمعلومات الكافية لتخطيط سياسة أ/ن عامة . ومن مهام هخذا لكيان أيضا معرفة كامل النشاطات المعادية للدولة والضارة بأمنها ، سواء القائم منها فعلا أو المبتدئ حديثا ، وسواء الواقع داخل نطاق الحكومــة أو خارجها ، وسواء الشامل منها لوزراء الدولة أو لضباطها في القوات المسلحة والأمن الداخلي .

ولتحقيق هذه الأهداف وإنجاز تلك المهمات لابدلهذا الكيـــان أ، يتمتــع بالحرية المطلقة في الإطلاع على كافة انتاج أجهزة الأمن الداخلي وأجهزة المباحث والمخابرات الأخرى " وسمى عندئذ هذا الكيان باسم الجهاز الخاص " . كما يجب أن تكون لديه القدرة على الإشراف — عن طريق وسائله، المعروفة منا أو السرية — وبصورة خاصة ،على أهم أجهزة الأمن الداخلي ، وفوق كل هذا وذاك ، فإن من أخص مهام أجهزة المخابرات عامة امتلاك المعطيات اللازمة والقدرة الكاملة بغيــة التسلل إلى أعلى المراتب والمناصب في كافة النشاطات المشكوك في ولائها للثورة .

- **الدعاية والإعلام :**

من الخطأ اعتبار الدعاية سلاحا أساسيا لضمان أمن الثورة . فالدعايـــة في حد ذاتها لا تعدو كونها سلاحا مساعدا لاستمرار السلطة وبقاء النظام . كمـــا أن الاعتماد على الدعاية كليا يعتبر مخاطرة غير قليلة . وذلك لأنهـــا تـــدفع بـــساسة الحكومة إلى وضع تجد معه نفسها موجهة من قبل احتياجات الدعاية بدلا مـــن أن يكون العكس ، وهذا هو أقصر الطرق المؤديـــة بـــالثورة إلى سياســـة الانحـــراف ولمساومات ، وعنلى حكومة الثورة أن تقوم بشن حملات دعائية مركزة تهدف إلى إعطاء تبرير مقنع لاستمرار استخدامها لوسائل القمع والأرهاب . كما من أهداف تلك الحملات كشف النقاب عن أعداء الثورة وفضح النشاط اليساري .

ويجب أن تستحوذ مسألة الدعاية المضادة — التي تقوم القـــوى المعارضـــة للثورة بينها — على اهتمام خاص . بسبب ما يمكن أن تثيره من مـــشاكل . مثـــل مطا=لبتها بحرية الصحافة التعبير عن الرأي . كما أنه يتعر إيجاد حل لمشكلة مراقبة الصحافة خلال العهد الثوري دون أخذ بعـــض المـــشاكل والظـــروف الأخـــرى بعينالاعتبار . ومهما كان . فعلى حكومة الثورة أن تكون مستعدة لفرض المراقبـــة على الصحافة حال احساسها بضورةرة ذلك . ألا أنه يمكن ضـــبط الـــصحافة في غالب الأحوال من خلال ممارسة بعض الضغط من قبل الحكومة . بأشكال عديدة . ودون اللجوء إلى المراقبة الصريحة . فيكفي مثلا تعيين مستشار لكل هيئة من ثيئات تحرير المجلات والصحف ، وذلك بقصد إبداء الرأي بكل ما هـــو معـــد للنـــشر كلقصص والأخبار . ولإعطاء النصينحة والتوجيه بخصوص المواد الـــصحفية الـــتي تعهالج القضايا العامة المهمةو ويمكن إصدار بعض المراسيم — التي يمكن أن توصف بأنها مرتبطة بوضع الأمن داخل الدولة — بغية تدعيم سلطة أولئك المستشارين عند الضرورة . كما يمكن تحقيق ذلك عن طريق التهديد بتنفيذ بعض الأنظمة المتعلقـــة بإثارة الشغب وتهديد الأمن . وكذلك بالتهديد بزيادة الضرائب والرســـوم علـــى الصحف والمجلات ، وفرض غرامات مالية كبرى عليها.

- **القوة العسكرية :**

في الوقت الذي لا يجوز التقليل من أهمية وجود قوة عسكرية ذات كفاءة عالية وولاء تام للنظام الحاكم ، فإنه لا يجوز أيضا اعتبار وجودها ذا أهمية مسلم بها جدلا ، فمن أكثر الأمور أهمية ، توفر جهاز فعال جدا للمخابرات ضـــد التـــآمر والنشاط الهدام في داخل القوات المسلحة . ومن المستحسن وضع بـــرامج ثقافيـــة سياسية وتلقينها لكافة أفراد الجيش ، ومن المهم ، فوق كل هذا وذالك ، إدخـــال

التحسينات على أسلحة ومعدات وتدريب القوات المسلحة ، كمـــا يجـــب دفـــع المرتبات بانتظام وسخاء حتى تكون أحسن المرتبات في الدولة . وحتى يصبح ذلك الجيش — باختصار — " جيشا مواليا تملأ الغبطة قلوب أفراده ، ويغمـــر الـــسرور نفوس ضباطه" .

أن اجتماع كل هذه الأجهزة التي استعرضناها آنفا . يعطي الثورة جهازا ضخما لحماية أمنها ، وتأمين استمرارها ، وإذا ما تمت استخدامه بحكمـــة كافيـــة وعقل راجح فإنه لا يوفر حماية كافية للثورة ضد أعدائها فحسب ، بـــل ويـــزود حكومة الثورة برصيد مهم يؤمن لها حاجتها من الاستقرار السياسي ، والضروري للبدء بتنفيذ سياسة الإصلاح والبناء ، وفي مثل هذه الظروف فقط تتمكن الثورة من إرساء قواعد جديدة للحياة السياسية في الدولة ، وذلك على أســـاس مـــن تلـــك الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الهامة التي تنجزه١٨ نتيجة إجراءات مباشرة أو غير مباشرة ، وهكذا ، فإن إرساء مثل هذه القواعد للحياة الـــسياسية المقبلـــة — ويمكن أن تبدأ الثورة هذا الإرساء منذ أيامها الأولى — هو بعينه " فترة ما قبل العهد الدستوري " الذي تطمح الثورة لبلوغه بصحة ونشاط.

***

# عهد ما قبل الدستور

يجب على زعماء الثورة أن يتطلعوا من ذ اليوم الأول لحركتهم إلى تطوير الثورة وتحويلها إلى نظام دستوري جديد ، فالثورات الأصلية والمنبثقة من ضمائر الـــشعب لا تنوي إطلاقا إقامة أنظمة ديكتاتورية مستبدة ، بل تعمـــل جاهـــدة لإعـــادة الوضـــع الدستوري والحيوي لاستقرارها، في أقرب وقت ممكن – وعلى الأقل – عـــن طريـــق إعطاء العهود وبذلك الوعود ، ولكن تبقى هناك مسشكلة التعاقب بين العهد الثـــوري والعهد الدستوري ، والطكريقة التي يخلف العهد الثاني الأول بها ، ويحل محله دون تقهقر أو هزيمة ، فزعماء الثورة لن يخلدوا ، وحماسة الشعب للثورة لن تبقى للأبد بل ستضعف وتذبل ، ولهذا كانت أنجع الوسائل لإجراء عغملية التعاقب بشكمل منتظم ومـــستقر ( ودون الحهاجدة للقيام بثورة أخرى ) ، هي تلك التي تستخدم أي نوع مـــن أنـــواع " الانتخابات النيابية " التي غالبا ما تقوتند إلى عهد ذي صبغة دستورية مهما كان مـــشوه الحقيقة ممسوخ الفاعلية .

وبما أن زعماء الثورة والمؤيدين لها ، يرغبون في تخليد منجزاتها ، فمن الضروري إذن و التنبؤ بمصادر الخطر الجديدة والتنبه لها . ويحدث ذلك كنتيجة لمحاولة أعداء الثورة التسلط ثانية على السلطة السياسة في العهد الدستوري الذي يعقب العهد الثورة . وغالبا ما يتم هسذا بسهولة تامة إذا ما أخفقت الثورة في تدعيم ادور تلك الفئات والطبقات – التي حققت الثورة خدمات ومنافع لها – وتقوية فاعليتها ، كما يقع نفس الشيء إذا ما عجزت الثورة عن تتطوير نظام دستوري جديد ، يضمن لتلك الفئات والطبقات أكثرية عظمى . وما هخي بعض تلك الأخطار :

١- أن الأحزاب السياسية القديمة سوف تنتعش ثانية ، ولا يـــستبعد أن تملـــك القدرة اللازمة لإعادة أعداء الثورة إلى السلطة .

٢- ربما تظهر إلى الوجود أحزاب سياسية جديدة ، وعـــن طريقهـــا ســـتعوتد الشعارات القديمة والأهتداف السابقة للتدوال . وعندما تمتلك هذه الأحزاب القـــدرة اللازمة لإعادة أعداء الثورة إلى السلطة ، فإنها لن تتأخر في فعل هذا أبدا.

٣- ربما تتم السيطرة لبعض السياسيين ( الذين يخالفون الثورة في أهدافها ) على أي حزب ثوري يمتد وجوده إلى العهد الدستوري . وذلك نتيجة ما لديهم من قدرات وخبرات سياسية فائقة تخلفت عندهم من العهد البائد قبل الثورة أو اكتسبوها حديثا ، وهكذا ، فمع وجود حزب ثوري على رأس السلطة فإن مصالح أتباعه وأشياعه لـــن تكون موضع اهتمام حقيقي أو تنفيذ بناء.

٤- ويجب على النظام الدستوري الجديد أن لا يتخذ شكلا يشجع ظهور عـــدة أحزاب متعادلة القوة تقريبا ، ذلك أ وضعا كهذا ، لن ينتج عنه سوى عدم الاستقرار السياسي لوجود أحزاب بشعارات قديمة ولكنها في موقف قوي لإجبار غيرها علـــى إتباع سياسة المساومات والحلول الوسطى ، وبهذا يتحقق لها الانقضاض على بعـــض منجزات الثورة أو كلها.

ومن الممكن تفادى كل هذه الأخطار إذا قامت حكومة الثورة بالاستفادة مـــن الميزات الفريدة — التي يمنحها إياها احتكارها الكلي للنشاط السياسي القـــانوني في ا، وائل عهدها — في وضع أسس لنظام دستوري جديد. يسود فيه حزب واحد ، هـــو وحده وريث الثورة الشرعي في العهد الدستوري الجديد ،. وله وحده الدور الحاسم في تسيير دفة الأمور .

وللوصول الوضع نموذجي كهذا ، يتوجب على حكومة ، الثورة أن تخلق منظمة شعبية تتدرج بدقة وانتظام حتى تصبح نهائيا حزبا سياسيا ، وهـــي بـــنفس

الوقت ، توفر للمنتمين لها من المقترعين والسياسيين الثوريين مجالا جيــدا لإجــراء التمرينات والتجارب على الحياة السياسية ومعضلاتها ، وعندما يحين الوقت لمــنح البلاد الدستور الجديد ، فإن على حكومة الثورة أن لا تنسى أن تصوغه بــصورة تعطي الحزب الثوري فرصا مطلقة لا منافسة فيها .

**المنظمة الشعبية :**

- **ما هي :**

مهما تمددت الأسماء واختلفت ، فإن النوع الذي يعنينا في مجال المنظمات الشعبية هو ذاك النوع الذي يبقى خارج نشاط الحكومة الرسمي ، ففي هذا النوع من المنظامات الشعبية يقوم زعماء الثورة ، بالتعاون مع بقية مــوظفي الحكومــة ومستخدميها ، بإنشاء منظمة شعبية تشترتك فيها جماهير غفيرة من المواطنين غــير الرسميين ، تندعى هخذه المنظمة أهدافا وشعارات مثل تلك التي تنادي بتدعيم الثورة والمحافظة على مكتسباهاوزياادة منجزاها ، وعنلى هذه المنظمة أن لا تظهر بمظهـــر حزب سياسي أثناء الفترة التي تكون الانتخابات فيها معلقة ، والأحزاب السياسية منحلة ومحرمة قانونيا ، دون أن يؤدي هذا إلى إغفال تنظيمها على غرارؤ حــزب سياسي ، لتكون مستعدة لانتخابات تجري في المستقبل عاجلا أم آجلا ، وكنتيجة لهذا يجب أن تكون لها قادات محلية .، إقليمية وقطرية ومسؤولون متفرغون لرســم مختلف احتمالات سيرها وتخطيط سياسيتها ، كما يجب أن يتوفر لها جهــاز إداري عامل وآخر للإنضباط ، وعنلاوة على كل ذلك ، فإن قيام أمانة عامــة لهخــا ، متفرغة لشؤوها ، مع لجان متعددة لمتخلف المهام ، مثل الدعاية والنشر ، أمر حيوي لقائها في الطليعة متماسكة ومهيمنة .

- **غايتها :**

لا يجوز الإفصاح عن الغاية الحقيقية لإنشاء مثل تلك المنظمة ، وكل ما يشاع عن أهدافها هو أنها وجددت لتوثيق الروابط الأخوية بين العناصر المؤيدة للثورة وأهدافها ، ولكن هدف إنشائها حقيقة ، إيجاد

جبهة للدعاية لصالح النظام الحاكم ، ومن ثم تطورها إلى حزب سياســي – الحزب الثوري – يمارس مهام الحكم في المستقبل ، ويتم ذلك عن طريــق اســتقطاب قواعد وطبقات جديدة من الشعب ، وغمسها في نشاط سياسي مدعم وبدون انقطاع ، وتوفير التدريب الضروري لها على هذا النوع من النشاط ، ومحاولة إقناعهــا بفائدتــه وبأهميته في حصول الفرد على أحسن مردود لحياهم ( داخل مجتمعه ودولته ) عن طريق إظهار وقائع عملية ملموسة لتلك الفائدة والأهمية .

- **كيف يمكن تحقيق هذه الغايات:**

إن سر نجاح هذه المنظمة هو بقاؤها بقرب السلطة الحاكمة ، واســتمرار إشراف الثورة عليها ، إشرافا غير رسمي ، كما أن مفتاح بقائها هو عــدم سمــاح الثورة بظهور أي منافس لها ، فهي وحيدة في الميدان ، عزيزة على قلب الثورة التي تصبر عليها ، وتتقبل النقد منها بكل رحابة صدر وسعة . أما كبار قادها ، فيجب أن يكونوا نموذجا طبق الأصل عن كبار زعماء الثورة ، وقادة الحكم ، في معظــم نواحي تفكيرهم وحياقم ، وعندما تتوفر مثل هذه الظروف في المنظمة الفتية . فإن جماهير الشعب ، التي قامت الثورة برعاية مصالحا ، وتأمين حاجاتهــا ، ســتظهر عواطف جيا=شة تنم عن ولاء تام للثورة وقادها . ثم لا تلبث أن تج نفسها تحــت تأثير إغراء متزايد يجذبها للانضمام إلى عضوية المنظمة والانخــراط في ســلكها ، تشكل الخدمة المدنية معينا لا ينضب للملكات " الكادرات " العاملــة في هــذه المنظمة ، وكمثال على هذا ، فإن التحاق موظفي الدولة ومستخدميها بالنشاطات

التابعة لفهذه المنظمة ، كشرط لاستمرار خدمتهم في سلك الحكومة ، يمتد المنظمة بأفواج ضخمة من المنتسبين إليها والعاملين فيها ، وعلاوة على كل هذا ، فإن مـــا تتمتع به الحكومة من حرية إدارية واسعة ، وسلطات غير محدودة في مجـــال إنجـــاز المشاريع العامة ، توفر لها طاقة ضخمة سهلة التسيير والتسخير ، لخدمـــة أهـــداف المنظمة الشعبية وغاياتها ، " كما تعتبر هذه فرصة رائعة للعمل غير المباشر في مجـــال بناء المرتكزات الشعبية للثورة " ، ويجب أن تكون المناصب في المنظمة بمثابة المكان الذي توضع فيه الجماعات والأفراد الراغبون في التأثير على النظام القـــائم موضـــع المراقبة والامتحان — ضمن حدود إدارة فعالة وسياسة وطنية صـــحيحة — وحـــتى تعرف طريقة تعاملهم مع كبار الرسميين المسئولين عن الـــشؤون العامـــة ونوعيـــة الصفقات التي ينوون الدخول معهم فيها.

إن الحكومة تملك نعما كثيرة تستطيع من خلال تسييرا لـــشؤون الدولـــة .الإدارية الروتينية إسباغها على العاملين في مثل هذه المنظمة ولاسيما عندما يقـــع بعضهم في ورطات يصعب التخلص منها أثناء تنفيذ القوانين والأنظمة المختلفـــة ، ولهذا يجب أن يكون واضحا ( دون أن يعلن عن ذلك رسميا) أن التأييـــد النـــشيط للمنظمة الدعوة المتواصلة لها هما من أضمن الطرق للحصول على التبرعات الماليـــة بسهولة أكثر ويسر أوفر ، وعندما يتضح المفهوم الأساسي لمثل هذه المنظمة الشعبية في الأذهان فإن الشكل الدقيق لنشاطها ، بحدوده العملية كلها . سيكون منـــاظرا تماما لحالة الثقافة العامة داخل البلاد، كما سيكون وجه الن=شاط في انسجام مـــع الحالة الاقتصادية والاجتماعية للفئات والطبقات التي تؤيد المنظمـــة وتـــساندها ، وسيتصاعد نشاط المنظمة اطرادا مع مدى تشرب أفرادها أفكار الثورة الـــسياسية ، ومدى انفعالهم عاطفيا معها ، ممع التسهيلات التي تقدمها والمساعدات التي تبـــذلها الحكومة لهم ، إن قائمة نشاطات منظمة كهذه ستحيط بعدد كبير من المـــشاكل

والواجبات ، ويشمل ذلك النشاط الثقافي " كإلقاء التوجيهات الأولية في الحقوق المدنية والتربية الوطنية والإجراءات الانتخابية وتنظيم جهـــاز الحكومـــة التـــاريخ السياسي إلخ" واصدار الصحف وتنظيم المظاهرات والمؤتمرات الجماهيرية ، كمـــا يشمل تقديم العونن المباشر للحصول على وظيفة في سلك الحكومة ، وإلى غير ذلك من النشاطات التي لا عد لها ولا حصر .

ويجب أن لا تغيب عن البال قطعيا تلك الحقيقة الهامة ةوهـــي أن هـــذه المنظمة الشعبية جزء من المرتكزات الشعبية لظام الحكم الثوري و وأنها ستبقى على المسرح بعد انتقال امتيازات الحكم الخاصة بحكومة الثورة إلى النظـــام الدســـتوري الجديد ، كما أن هذه المنظمة ستصبح الحزب السياسي الوحيد ، الذي سيـــضطلع بحمل تقاليد وأعراف الثورة للأجيال المقبلة التي لن تنظر إليها بعين الرضـــي ، وأن تتردد بمعاكستها على شكل ردود فعل ضدها .

## الدستور الجديد:

إن نفس الصعوبة التي برزت سابقا عند محاولة شرح وتحديد هيكل ونـــشاط المنظمة الشعبية بالدقة اللازمة ، ستبرر ثانية عند محاولة رسم صـــورة دقيقـــة للنظـــام الدستوري المثالي الذي يجب أن يخلف عهد

الثورة . ولكن هناك ظاهرتين هامتين جدا يجب أن تتوفرا في الدستور الجديد إذا كانت القاعدة الشعبية لنظام الحكم الثوري راغبة بالبقاء لمدة طويلة ودون نقص في فاعليتها ، وهما :

١- يجب أن يتألف الدستور الجديد المدون من نصوص ومبادئ عريضة ، مع ترك الترتيبات الجزئية للقوانين العادية لتوضيحها والتفصيل فيها ، وحيث أن الحـــزب الثوري سيكون القوة السائدة والمسيطرة ، فمن الضروري إذن ترك المجال واسعا أمـــاه

لكتابة الدستور وتعديله حسب مقتضيات زمانه وخبرة زعمائه ، وترك مرونة كافية له المواجهة الظروف والحالات الطارئة حديثا.

٢- ويجب أن يفسح الدستور المجال أمام ظهور سلطة تنفيذية قوية . تتمتـــع بشعبية واسعة تنتيجة انتخابها من قبل الأغلبية، كما يجب على الحـــزب الثـــوري أن يتأكد من سيطرته على السلاطة التنفيذية كشرط أساسي لاستمرار تفوقـــه العـــددي وفاعليته التنظيمة إلى أقصى الحدود الممكنة ، وبالوقت نفسه فعلى السلطة النفيذية أن تكون في مركز قوي تجاه السلطة التشريعية .

ومن المستحسن التذكير ثانية بأهمية الأقتراحين السابقين : أولهما أن الدستور المدون يجب أن لا يتضمن أكثر من مبادئ عامة وخطوط عريضة وثانيهما أنه يتوجب على الدستور أن يتيح ظهور سلطة تنفيذية قوية . أن الدستور المدون يجب أن يبقـــى وثيقة دائمة هدفها تحديد وتنظيم طبيعة وشكل النظام السياي للبلاد ، ويجب عىـــل النظام القائم ، بعد الموافقة على الدستور والتبديل ، إن لم يكن هذا مستحيلا ، وعندما يتضمن الدستور مجموعة من التفاصيل الدقيقة إلى جانب المبادئ العامة ، فمن الواجب عندئذ إظهار تلك التفاصيل أيضا بنفس مستوى قدسية المبادئ العامة . ومهما يكن ، فإن لهذه النقطة خطورة خاصة لسببين : أولهما ، يجب أن تتمتع تفاصيل نظام الحكم بمرونة كافية تبيح تعديلها عند تغير الظروف ، وثانيهما فعندما يتضمن الدستور المدون هذسه التفاصيل ، فإن هذسه الأخيرة تكتسب صفة ديمومة الدستور نفسه مما يجعلـــها صعبة التغيير والتعديل ، وعنلاوة على هذسا ، فإن ودود فقرات مفـــصلة ونـــصوص مشورطة في الدستور يترك سلاحا في يد الأقلية غالبا ما تتمكن به مهن هزم إ÷راد=ة الأكثرية وخاصة في بعض القضايا السياسية الحيوية ، والمثال التالي خير توضيح لما سبق ذكره ، فغالبا ما يظهر أثناء مناقشة الدستور للموافقة عليه وتبينه رسميا اتجـــاه نحـــو اشتراط تأمين أغلبية ثلثي الأصوات بدل الاكتفاء بالأغلبية البسيطة في المجلس النيابي " البرلمان " عند التصويت بالموافقة على إصدار بعض أنـــاع خاصـــة مـــن القـــوانين

والتشريعات ، ولكن قد يحدث ، مع مرور الزمن وتبدل الظروف ، أن نوعا من أنواع تلك القوانين والتشريعات لم يعد يتلائم والأوضاع الجديـــدة ، وأن هنـــاك ضـــرورة لتعديله أو تغيير ، لكن ، في حالة كهذه قد تنبري الأقلية البرلمانية " وبما بدافع أهداف خاصة " لتقف في وجه إرادة الأغلبية محتجة بتفاصيل الدستور وشروطه ، فلو كانـــت تلك التفاصيل مجرد قوانين لا أكثر — وليست نصوصا في وثيقة الدستور — لما كـــان هناك داع بظهور مثل هذه المعضلات .

إن الإعداد لقيام سلطة تنفيذية قوية وقادرة — بحسب الدستور — له أهميـــة فائقة . أن أشد الأرزاء التي تصيب الحكومات ، التي تواجه سلطة تشريعية متفوقة علها بسلطاتها وصلاحياتها . هي عدم الاستقرار السياسي ، الذي ينتج عن تشرذم البرلمـــان إلى عدة أحزاب وتكتلات صغيرة ، وحيث أن الحزب الواحد ط ولو كـــان الحـــزب الثوري " لا يتمكن من فرض سيطرته على كل شيء بأغلبية مطلقة إلا نـــادرا. فـــإن السلطة التنفيذية تبقى دائما تحت رحمة إتجاهات الإئتلافات البرلمانية ، والتي غالبا مـــا توصل إلى سياسة الانحراف والانجراف.

وبالمقابل ، فعنندما تكون السلطة التنفيذية أقوى من السلطة التشريعية — أو على الأقل بقوتها " وهذا ما يحدث في الحالات التي تكون السلطة التنفيذيـــة منتخبـــة انتخابا مباشرا وليست معينة من قبل البرلمان ، مثل انتخاب رئيس الجمهوريـــة مـــن الشعب مباشرة " — فإن الوضع يكون عندئذ متوازنا ، وعندما تتوفر سلطة تنفيذيـــة قوية كتلكح ، فإن الحزب الذيب يملك أغلبيبة أصوات الناخبين يتكمحكن عندئذ من السيطرة على كل من السلطة التنفيذية الغالبية البرلمانية . وبهذه الطريقة . دون سواها ، يتهيأ للبلاد جو من الاستقرار السياسي ، ملازم لطبيعة النظام السياسي وتركيبه .

وخلاصة الكلام : أن على نظام الحكم الثوري تقديم دستور للبلاد يتـــصف بالواقعية . فالوثائق اللرسمية الصادرة عن لجان وضع الدستور والمؤلفة مـــن أســـاتذة الجامعات والقضاة ، غالبا ما تسود فيها وجهات النظر المعروفة في كتب القانون الـــتي

تهتم بالمفاهيم الممتدة لأجهزة الحكومة والتفاصيل الدقيقة لنظيات القضاء . إلا أنها نادرا ما تتطرق إلى النواحي العملية والواقعية للحياة السياسية الحقيقية في داخل البلاد . والتي لأجلها ، دون سواها ، تسن الأنظمة وتوضع الدساتير.

**الخاتمة**

لقد كان واضحا تماما منذ بداية هذا القرير ، أن المحافظة على السلطة هـــي هدف في حد ذاتها . لا يختلف في هذا نظام عن نظام ، ولكي يتيسر هذا فلابد مـــن توفير القوة السياسية لهذا النظام ليصبح حكما ذا فاعلية جيدة . وتتوفر عادة هذه القوة السياسية في كل المجتمعات مهما كان وضع تنظيمها وحالته . ألا أنها إما أن تكـــون علنية ، أو تبقى كامنة في المجتمع مدخرة فيه ، لكن النقطة الحاسمة في هذا المجال هـــي أن القوة الكامنة تبقى في معظم مراحل الحكم أكثر بكثير من تلك التي تظهـــر علنـــا وتصبح أمرا واقعا . ففي الدولة الدستورية ، تجد اعتبـــارات الـــشرعية أو القانونيـــة نشاطات الحكومة في تشكيلها للقوة السياسية ، بنفس النسبة التي تجد نشاطات أولئك الذين تتعارض مصالحهم مع النظام القائم ، أما نظام الحكم الثوري ، فإنه لا يقيم وزنا لمثل تلك الاعتبارات ، وذلك لأن اسم " الثورة " نفسه وتعريفها لا يملكان أيـــا مـــن معاني الشرعية أو القانونية . وهذا هو مصدر ضعف الثورة باستمرار. وكما أن عـــدم شعرية الثورة وقانونيتها لا يضعان أي قيود لنشاط

ها لتوفير القوة السياسية اللازمة لها . فإن كل ما عجزت الثورة عن تجنيـــده وتسخيره من القوى السياسية المدفونة في المجتمع لا يخضع إطلاقا في نشاطه وتفجـــره لاعتبارات الشرعية أو القانونية ولذلك يبقى بحقيقته خطرا كامنا يهدد باستمرار أمـــن الثورة وبقائها.

وهكذا يبقى أمام نظام الحكم الثوري طريقان لا ثالث لهما لمعالجة هذا لخطر المهدد لكيانه . فأمول هذين الطريقين ذو نهاية خطيرة ، مع أن بدايته تبـــدو للوهلـــة الأولى على أنها أساس النفعية ،، والتروع إلى جر المغانم بأية وسيلة كانت وهـــذا مـــا أطلقنا عله آنفا اسم " سياسة الانجراف والمساومات " التي غالبا ما تحرص علها بعض الحكومات الثورية ، بغية توطيد أركانها عن طريق الظهور المظهر الشعبي ، الذي تلتف حوله الجماهير الغوغائية ، وذلك بدل جعل قوتها السياسية أمرا واقعيا ومحققا .

وثاني الطريقين نحو ذلك الطريق الذي نصحنا آنفا بإتباعه ، وهو الذي يقود حقا إلى ثورة فعليه تدرك بعمق كاف النظرية الأساسية التي يقوم عليها الحكم الثوري ، وبمبادرة أخرى ، فإن على نظام الحكم الثوري أن يتخذ كل ما يراه ضروريا مـــن التدابير لإيجاد قوة حقيقية له سواء أكان ذلك باللجوء إلى إجراءات القمع والإرهاب أم إلى سياسة الإصلاح والبناء ، وعليه كذلك أن لا يغفل عن تلك القوة الكامنـــة في المجتمع ويتركها د=ون السيطرة عليها وتجنيدها له .

ومن المأمول أن يكون هذا التقرير مفيدا ومساعدا للثورات في إتقان عملها ، وأن يكون مقدمة لها إلى ما يسمى " الضرورات ، وفن تنفيذها ".

***

# مركز لعبة السلم في واشنطون

(لا يمكنك الربح إن
لم تكن عضوا في الفريق)

بعد ظهر أحد الأيام الباردة في أوائل عام ١٩٥٦ ، انتشر خـــبر في واشـــنطن مفاده أن هاز إرسال كهربائي صغير على شكل " صدفة " قد اكتشف مدسوسا تحـــت إحدى مناضد الاجتماعات في دوائر وزارة الخارجية الأميركية في واشنطن ، كان ذلك في يوم جمعة ، وكانت السماء تنذر بعاصفة ثلجية ، والموظفون يستعدون للانـــصراف باكرا بتشوق ولهفة..وفجأة صدرت الأوامر لأقل عدد ممكن من المـــوظفين بالبقـــاء في الأقسام التي تضم معلومات سرية لمساعدة رجال الأمن الذين أخذوا يجوبون جميع غرف الوزارة بحثا عن المزيد من هذه الأجهزة الحساسة، وآثار هذا الحادث موجة من القلـــق والحذر . فالجهاز المكتشف لا يتجاوز في حجمه علبة عيدان الثقاب ويعمل دون الحاجة لتمديد أي أسلاك كهربائية . كما يمكن لصقه تحت أي منضدة من قبل أي من أولئك المستخدمين أو صغار الموظفين الذي لا يعيرهم الإنسان أي اهتمام أو انتباه .

جرى تفتيش ": مركز اللعب" "مركز التخطيط السياسي" عند حوالي الساعة الثامنة مساء وهو وقت انتهاء الجلسة المبكرة ، فالدوام الرسمي في المركز يبدأ من الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر ويمتد حتى منتصف الليل . وفي تلـــك اللحظـــات كـــان المشتركون في تلك الجلسة المبكرة ينظرون من خلال نوافذ الطابق الثاني عشر إلى تلـــك الصفوف من السيارات المتلاحقة في شارع " كونتكيت " ، وهم مرتدون لباس السهرة

، ويتبادلون أطراف الأحاديث التي تدور أثناء سهراقم في جورج تاون ، وفي تلك الأثناء أيضا . كان أفرغد الفريق الآخر الذين وصلوا لتوهم لحضور الاجتماع المتأخر لمركـــز اللعب . يخلعون معاطفهم ويشمرون عن سواعدهم استعدادا لمساء حافل بالعمل المضني والجهد المستمر. وفي خلال ساعة من الزمن كان رجال الأمن قد أنهوا تفتـــيش كافـــة أرجاء بناء الوزارة دون أن يعثروا على أجهزة أخرى . ألا أن احتمالية العثور على أنواع منها بقيت قائمة وأثار هذا الحادث – العثور على جاهاز الإرسال تحت المنضدة – فينا يملا إلى التندر حول تلك المعهلومات التي يحرص أحد أجهزة المخابرات الأجنبية علـــى الحصول عليها ،عن طريق دس ذاك الجهاز المرسل تحت تلك المنـــضدة بالـــذاتت – لا غيرها – وما عساه أن يستفيد منها .

كانت الأوراق مبعثرة بين الملفات الكثيرة التي غطت سطح المنضدة .وحـــول تلك المنضدة بالذات . كان يجلس مجموعة من الموظفين تملكهم السأم ولاملـــل . تـــارة يهمسون في آذان بعضهم البعض ، وأخرى قمز أصواقم أرجاء القاعة وهم يتبـــادلون الأدلة والبراهين ، كما تجدهم أحيانا غارقين في صمت عميق ينصتون بشغف وذهـــول إلى أحدهم وهو يلقى عليهم بعض البيانات أو التقارير . وفي زوايا القاعـــة انتـــشرت أجهزة الهاتف بعيدا عن منضدة الاجتماعات . بعضها ترن أجراسه دون التفاتا من أحد أو انتباه ، وأخرى تمسك أيدي بعض الرجال بسماعاقا وهم يرتدوةن أكماما إضافيةى على سواعدهم ، ومجمعين أكفهم حول الجزء اللاقط للكلام منها علهم يتمكنون مـــن إسماع المتكلمين معهم وسط ذاك الهرج والمر . كما ترى الساعدين وأمناء السر مقـــبلين ومديرين وبين الفينة والأخرى تجد أحد المجتمعين يدعى للرد على الهـــاتف أو يـــضطر لمغادرة القاعة ليحل محله آخر ما يلبث أن يترلق في مقعده وينثر الأوراق أ/امه بكـــل خفة ورشاقة .

ولن تتعدى اتلمقتطفات التي تتسرب من القاعة عن طريـــق ذلـــك الجهـــاز اللاسلكي المدسوس تحت طاولة الاجتماعات النماذج التالية :

" هل قام أحد منكم بمراجعة تالك الأمور مع أولاد الكرملين ؟ "

" أين ذلك السمج ديجول ؟ كان يجب أن يكون حاضرا هنا منذ ساعة مـــن الزمن " . " سنكون قد أضعنا نصف أوروبا قبل أن يفطن تيتو إلى آثار زيـــارة ناصـــر لموسكو " .

ومن الصعوبة بمكان أن يفطن أولئك الذين يصتون إلى ما ينقله إليهم هذســـا الجهاز إلى أن " تيتو " هذا ليس أكثر من إنسان يرتدي بذلة إميركية الصنع ، ويقـــص عره على طريقة البحارة ، وله في ياقة قميصه بكلة أمريكية الشكل والصنع ، كما أن " ديجول " هو إنسان اسمه "بتر سيلر" ، و " اتوني إيدن " هو " سيدني غرين ستريت" ، و " كونراد أديناول " هو تلك الفتاة الجملة التي تسحر شعرها للخلف ،وتعقده بـــشكل حزمة ورد أو كعهكة جميلة ، وتضصع على عينيها نظارات واسعة ذات إطار عريض . وأ/ا أولاد الكرملين فقد وصلوا مؤخرا وفي أيديهم حقائب جلدية فاخرة . وهم أفـــراد من الجوقة الموسيقية لجامعة " ييل " ، عنلى وشك أن يحجزوا غرفا في فندق " ســـتاتلر" بغية تمضية عطلة الأسبوع في مشاهدة إحدى مباريات كرة القدم .

كان كافة العملاء والجواسيس الأجانب متشوقين للتنصت على ما يـــدور في جلسات " لعبة السلم" ، وسرعهان ما قاموا بعد سنوات بمحاكاة تلـــك الاجتماعـــات والمناقشات ولكن بشكل مضحك وهزيل وتحت اسم " تقرير من جبل الحديد " ، وفي " مركز اللعب" . كانت هناك مجموعة منتقاة من أبرع الخبراء الـــذين تعاقـــدت معهـــم حكومة الولايات المتحدة للقيام بتمثيل اتجاهات السياسة العالمية وأزمتها . محاولين معرفة نتائجها وتقييمها على حقيقتها .، وبالاستعانة بالتقارير والمعلومات التي كانـــت تـــصل تباعا من وزارة الخارجية ، والمخابرات المركزية ، والبنتاجون " وزارة الدفاع" ، وغيرها من المؤسسات والوكالات الأميركية ، كانت عدة مجموعات من الخبراء، كل يمثل دولة من دول العالم ، تحاول تحديد مواقف تلك الدول .، والخروج بحلول مناســـبة للأزمـــة

الطارئة على الموقف بشكل اقتراحات عمل على مستوى الأمة والدولة . وتنقل تلـــك النتائج والإجراءات المقترحة بشكل مذكرات تذكر أن ذاك اللاعب " خبير أو مجموعـــة خبراء " الذي يمثل دور تيتو أو ديجول أو عبد الناصر يظن أن تيتو الحقيقي " أو ديجـــول أو ناصر ط سيتحركون تحت ظروف مماثلة في هذا الاتجـــاه أو ذاك . وســـتكون ردود أفعالهم في الشكل هكذا أو كذلك ، ويحاول ذاك اللاعب " الخبير " أن يذكر أي١ضا في سياق تقريره أن كان يتوقع أكثر من حل واحد للقضية الواحدة مع احتمال أســـبقية حل على آخر . وتوضع هذه الاقتراحات والحلول ضمن ذلك السيل مـــن المعلومـــات الواردة لتوزع بدورها أما إلى العقول اللإلكترونية . أو تترك فـــوق مكاتـــب بعـــض المسؤولين الذين أتقنوا دراسة صفات الشخصيات العالمية . وأجادوا تمثيل أدوار الزعماء والقادة إلى الحد الذي لا يخطئون في توقعات أفعالهم وردود فعلهم إلا نادرا جدا.

أما القواعد والأسس المتبعة في هذه " اللعبة " فهي :

أولا: الالتزامات الإخلاقية التي تؤخذ بعين الاعتبار هي تلك التي لا تتعـــارض مع القواعد الإخلاقية لمختلف الدول الممثلة في " اللعبة " . أما قواعدنا الإخلاقية فـــلا نعنيرها اهتماما إلا عندما نحاول تحديد اتجاهات حكومتنا وردود فعلها ، وليس للقاعدة الشهيرة " أن الخير هو الخير إينما ذهبت . وأن الشر هو الشر أينما حللت " التي رددها رجال الكنيسة أي اعتبار في تخطيطنا هذا لقد أنفقنا الساعات الطوال محاولين التعـــرف على الأسس الإخلاقية التي كانت تكمن حقا خلف اتجاهات وت=حركات أي مـــن الزعماء الوطنيين ، فما كنا لنتكل فق على أقوال رجال الدين والـــسياسة أو تكهنـــات رجال الصحافة . ومع كل هذا فلم نكن لنهتم بهذا كثيرا كما لم نكن لنفكر في نعـــت هذا " بالخير " ووصم ذاك " بالشر " .

ثانيا" وكان الرأي السائد أن اوغل أهداف أي زعيم وطني هو البقاء في السلطة ، وفيب حال تعذر ذلك . فإنه يحاول أن نعتزل الحكم بأقل ما يمكـــن مـــن التـــضحية

بسمعته وشهرته٨ه الشخصية . إلا أن هذا لامقياس لا ينطبق علىتلك الحفنـــة مـــن الزعماء المخلصين الذين يضحون بأرواحهم . وحتى بشهرتهم ~، دون تردد في ســـبيل مصلحة أوطانهم العليا . إلا أنهم نزر يسير لا يسبب لنا أي ارتباك في دراستننا وتقديراتنا . وغالبا ما تعطينا النظرة الواقعية لزعامة الإنسان نتائج أفضل من تلك التي تعطينا إياها النظرة المثالية لها.

ثالثا : ونفترض — إلا إذا ثبت العكس- أن تصرفات أي زعيم وطني تـــصدر عناعتقاده المطلق أ،ه بهذا إنما يخدم وطنه ويحقق أهداف أمته . كما يظن مخلصا أن قضيته قضية عادلة ومحقة . وعله أن يقلها للعالم الذي سيصغي إليه باهتمام وانتبـــاه . ولعـــل القارئ يذكر أحد أعضاء الكونجرس الإميريكي عندما صفت العاطفة الوطنية عليه وهو يلقي إحدى خطاباته . فاتهم ديجول بأنه " غير أميريكي " . وهكذا يجـــب أن يكـــون العرف السائد حول ديجول ونحن نمارس " اللعب" . أن نعت ديجول بهذه الصفة لا يعني تصنيفه في عداد " الأخيار " أو " الأشرار " . فماهيم الخير والشر لا تحظى بأي اهتمام منا . إذ ليس عندنا رجال " أخيار " وآخرون " أشرار " ، وكل ما يراه المرء هو مجموعة من خبراء التخطيط " اللاعبين " منهمكين في رسم خططهم ، وإحراز النجاح بالطريقة التي تمليها عليهم ظروف تلك الدولة الممثلين لدورها أو مفاهيم ذاك الزعيم الذين يلعبون دوره في " مركز اللعب" .

ولا أظن أننا نحتاج لقواعد أكثر من ذلك . فلخبير الممثل للأدوار " اللاعب " يزود بكافة الاحقائق والمعلومات — التي يفترض معرفتها من قبل الدولة التي يمثل دورها — حول وضع ما . وبناء على هذه المعلومات المتوفرة لديه . وضمن القيود المفروضـــة عليه . فإن الخبير الممثل سيقترح إجراءات محدودة وواضحة لاتخاذهـــا في مثـــل تلـــك الظروف . وقبل أن يصدر الخبير رأيه النهائي ، فإن عليه أن يكون قد ألم تماما بنقـــاط القوة اوضعف عند ذاك الزعيم ، كما يكون قد أدرك تماما خفايا سلوك ذاك الـــزعيم ،

وتقصي جميع الحقائق الازمة لانتحال دوره في " مركز اللعب " . وتصدر الآراء النهائية بشكل تقارير ومذكرات ،ومن ثم تخضع للتنسيق مع المعلومات الأخرى الواردة باستمرار من وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية ، ووزارة الدفاع . وغيرها من المؤسسات الرسمية . لتكون كلها جاهزة بشكل " حقائق ومعلومات للقرارات " يعتمد عليها الخبراء أنفسهم لاستكمال خطواقم اللاحقة .

ومن الصعوبة بمكان الادعاء بصحة كامل المعلومات والدلائل الناتجة عن هذه " اللعبة " ، إن بني الإنسان . ومنهم كبار رال الدولة والسياسة . يسلكون مسالك يصعب على الآخرين التنبؤ بهاه مسبقا . كما أفمم قد يتحولون عن سلوك طرق يتراءى لغيرخهم أنه لا مناص لهم من سلوكها. لقد أعطت " لعبتنا " هذه نتائج جيدة حيال توقع وتقرير نتائج تحركات السوفييت في أوروبا ، والتحركات المضادة لها من قبل الشعوب الأوروبية .. كما كانت " لعتبنا " موفقة في تحديد معالم الصراع الروسي الصيني ورسم أبعاده : هكذا ستتحرك الصين . وهكذا سيكون الرد السوفييتي عليها . وهكذا ســتكون ردود الفعل العالمية تجاه كلا التحركين ، وعلاوة على كل هذا ، فإن نسبة النجاح والتوفيق في " لعبتنا " لا تتجاوز ٨٥ بالمائة " وهي نفس نسبة نجاح تنبؤات مرصد جرينتش للتقلبات الجوية " . وهذه النسبة كافية لتضع دراساتنا في طليعة غيرها من الدراسات التي نحـــصل عليها بطرق شتى .

كانت كامل دراساتنا لتحركات الدول الأوروبية . وتوقعاتنا لردود فعلـــها – ومن ضمنها الاتحاد السوفيتي – سهلة وموفقة، لقد اقتصر عملنا في هذا المضمار علـــى تغذية العقل الالكتروني بكافة المعلومات الحديثة والصحيحة حول الشؤون الاقتـــصادية واتجاهات الرأي العام السائدة في تلك البلدان . وحول بعض العوامل المتغيرة باستمرار ، ثم تركه يتمثل تلك المعلومات ليصدر اقتراحات وقرارات ، ولكن الأمر كـــان عكـــس ذلك تماما بخصوص٣ دراساتنا وتخطيطنا للأوضاع في الدول الإفريقية والأسيوية، فلـــم يكن الاعتماد على العقول الالكترونية سهلا وذلك لافتقاد عنصر العقل والنظام في هذا

الجزء من العالم ، وكان اللجوء إلى اعتبارات العواطف والتزاعات الفطرية بني الإنـــسان التي لم نوفق إلى ألآن إلى طريقة تضعها في شكل يمكن نقله للعقول الإلكترونيـــة أمـــرا ضروريا لابد منه لرسم معالم المستقبل.

لقد كان الهيار نظام نكروما فوق طاقة أي عقل الكتروني للتنبؤ به . " فاعتقدنا أ، الجيش الغاني أضعف من أن يقوم بحركة كتلك " ، وكانت الأدلة كلها تشير إلى أن حكومة نوري باشا في العراق تتمتع بمناعة ضد انقلاب كالذي قام به عبد الكريم قاسم . كما كانت تشير إلى عدم قدرة الفيتكونج على الاستمرار في القتال . وظلت النتـــائج خطأ بخطأ حتى بعد تزويد اللاعبين الممثلين لأدوار أولئك القادة — الآنف ذكـــرهم — بكامل المعلومات المتوفرة حول عواطف ونزوات شعوبهم . ومع أن الدراســـات الـــتي أنجزت في " مركز اللعبة " لم تخرج بنتائج صحيحة . إلا أنها كانت من العوامل الرئيسية المساعدة لنجاح محللي وكالة المخابرات المركزية في إيجاد الأســـباب الرئيـــسية لهـــذه الأحداث إن رجال وكالة المخابرات المركزية يملكون أدق المعلومات وأحدث التفاصيل السرية حول الكثير من شؤون قادة العالم الحاليين وتحركاتهم ، وحول نيـــات زعمـــاء المستقبل، إلا أن هذه المعلومات السرية لم تكن تحت تصرف اللاعبين في مركز التخطيط ولهذا فم يكن في وسعهم الوصول إلى نفس النتائج الدقيقة التي وصل إليها رجال وكالة المخابرات ، والتي كان ينبغي أن ينتهي اللاعبون إليها قبلهم .

وعلى العموم ، فلقد أخفقت أحسن الوسائل المعروفة لتحليل المعلومـــات في الوصول إلى دراسة عميقة تساعد على التنبؤ الصحيح حيال نيات وتحركات زعمـــاء بلدان إفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية ، لقد كانت تواجه هذه الوسائل بأمثل المخابرات المركزية ووزارة الخارجية وجهاز " اللعبة " وما شابه ذلك — أوضاع اقتصادية يائسة في تلك البلدان وهوة سحيقة تفصل بين الحقائق والأماني لا يمكن ردمها. كما أن شعوب تلك المناطق من العالم تعاني من خيبة أ/ل مريرة تجعل بقاء الزعماء في الحكم أمرا غاية في الصعوبة . إلا إذا اعتمدوا على الأساليب الغوغائية . أو ابتكروا أساليب جديدة لابتزاز

المساعدات من الدول الغنية . وباستثناء أولئك الزعماء الذين يعولون كليا على الأساليب الغوغائية وبالتالي يسهل التنبؤ بتحركاهم فإن البقية الباقية من زعماء شعوب تلك المناطق من العالم لا تخضع ممارستها لأدوارهم في " اللعبة " لأية قواعد ثابتة وإنما يختلقون قواعد خاصة بهم ومميزة لأوضاعهم . وعلى سبيل المثال ، فإن الرجل الذي يمثل دور ديجول في مسرحيات " اللعبة " ظن مرة أنه يلعب الشطرنج " وهي لعبة تعتمد على التفكير العميق والقواعد العليمة الثابت " مع أحد زعماء الدول النامية المتخلفة" .ولكنه أدرك فجأة أنم تخصمه يلعب معه بعقلية مختلفة تماما . إنها عقلية لعبة "التشكن "" لعبة الجبان " وليست عقلية لعبة الشطرنج .ففي لعبة " التشكن "يتسابق الأحداث المراثقون بسيارتين تتجهـــا نحو بعضهما البعض على طريق واحدة وبالسرعة القصوى ، والفائز في هذه اللعبة هـــو ذاك المراهق الذي يبقى مسيطرا على أعصابه حتى اللحظات الأخيرة دون جبن أو خوف . وعندما يدرك تصميم الآخر على المواجهة . ينعطف بسيارته جانبا قبل الاصطدام بـــه بلحظات مخليا له الطريق بأكمله . ففي هذه اللعبة تنعدم الفرص بالنسبة اللاعب الذكي الاستراتيجي . وتبقى سانحة بأكملها لذاك المجنون المعتوه . الذي قرر أن يركب رأســه ويستمر بالمغامرة حتى لحظات الاصطدام . وهكذا فإن ديجول " اللاعب " يبقى حــائرا حتى يكتشف هو وأمثاله من المشتركين في اللعبة طرقا جديدة للنجاح عنــدما تكـــون الأطراف الأخرى " خصومهم " من نوع لاعبي لعبة " التشكن " التي – على عكـــس غيرها من الألعاب كالبوكر والحرب والتجارة – ليس فيها أي مجال لاســتخدام فـــن الخداع والمناورة .

إن السبب السابق كان في طليعة الأسباب التي تقلل من جـــدوى " اللعبـــة " كوسيلة فعالة في معالجة القضايا التي تمت بصلة إلى المناطق الواقعة خارج مجال " العـــالم الغربي " وفي تحديد التحركات فيها . وأما السبب الثاني فهو أن سيطرة الحقد والتحيـــز والجهل على بعض كبار المسئولين تؤثر تأثيرا بالغا على قراراهم النهائية . مما يجعل أفعال حكومتنا وردود فعلها . صعبة التوقع . شاقة التحديد .عسيرة الفهم . فقد يستحيل على

جهاز " اللعبة " أن يطرق موضوع التراع العربي الإســرائيلي أو مــشكلة فيتنــام أو روديسيا بنفس اعتبارات الهدوء والاهتمام التي يتدبر بها التحركات السوفيتية في مناطق نفوذها. وكمثال على هذا ، فإنه من الصعوبة بمكان استخدام العقل الالكتروني " الذي يعمل وفق قواعد علمية ثابتة " للوصول إلى نتائج واضحة لمباراة تجري بين جون فوستر دالاس ومال عبد الناصر بنفس الطريقة التي يستخدم بها للتنبؤ بنتائج مباراة تجري بــين جو لويس ومحمد علي كلاي " أبطال ملاكمة" .

ومما يزيد في غموض الطريق وتعقيد الأسلوب عند معالجتنا لــشؤون العــالم الإفريقي والآسيوي هو ازدياد شكنا في طبيعة تحركات حكومتنا وردودها تجاه ما يظهر من تصرفات زعماء دول ذاك الجزء من العالم والتي لا تخلو مــن الحــيرة والارتبــاك . وعلاوة على كل هذسا فإن أسبابا أخرى تمنعنا من اتخاذ الموقف الصحيحة التي تمليهــا علينا الدراسات التاي يقوم بها جهاز اللعبة في مواجهة أمثال المشاكل السابقة إلى حد يدفع باعتباراتنا للمصلحة الوطنية على المرتبة الثانية بدل أن تكــون في الطليعــة . أن مسايرة الرأي العام ، الخضوع لضغوط بعض الفئات الانتهازية . واضــطرار رجــال الكونجرس إلى كسب تأييد دوائرهم الانتخابية عن طريق الإباحة بالمعلمــات الحرجــة أمامهم أو تركها تتسرب إلى رجال الصحافة ، كل ذلك يدجخل ضمن عداد تلــك الأسباب المعوقة والمعرقلة ولهذا يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كل التصرفات الخاطئة لحكومتنا عند تحديد نتائج دراساتنا وتحركاتنا المقترحة ومن هنا ننطلق في تحديد مــدى تأثير تحركاتنا على غيرنا ، وفي التنبؤ بطبيعة ردود فعلهم تجاهها . وفي اقتراح الإجراءات المضادة التي علىحكومتنا القيام بها . وبالتأكيد . فإننا ننجز كل ذلك آخــذين بعــين الاعتبار والاهتمام تلك المفاجآت التي تثيرها الأسباب الآنفة الذكر وقاطعين عليها فرص إفساد مخططاتنا في اللحظات الأخيرة الحرجة .

ومهما كانت العقبات التي تقف في سبيل كبار المــسئولين مــن " صــانعي القرارات " " كتلك التي يثيرها الر~أي العام الجاهل أو الغبي أو التي تصدر عن بعــض

الفئات بدافع من مصالحهم الخاصة أو التي تنشأ عن تمسك رجال الكونجرس بمناصبهم " فليس في نيتهم على الإطلاق ترك مستقبل وجودنا في إفريقيا وآسيا وغيرها من منـــاطق العالم تحت رحمة أولئك الزعماء الذين أجادو ممارسة لعبة "التشكن " وتفوقوا فيها . إن النظام الديمقراطي يضع قيودا عديدة على سلوك حكوماته تجاه العوائق الداخلية وعلـــى الأساليب التي تنتهجها الحكومات لمعالجتها ، ولكن ليس هناك أي من هذه القيود على السلوك أو الأساليب المتبعة خارج بلادنا ، ولا يبقى في هذا المجال سوى يقيد واحد ألا وهو " اعتبارات الفاعلية والنجاح " فكل ما تتوفر له فرص النجاح فعلناه ، وإلا تخلينـــا عنه ، وعندما يأتي دور " المبادئ الأخلاقية " على مسرح الأحداث ، فـــإن تعـــديلات طفيفة نظرا على ذلك القيد دون أن تقتلعه من بجذوره أو تطيح به بعيدا ، عندها يتخذ التساؤل هذا الطابع: " هل يمكننا أن ننجح بالتنفيذ دون أن نخوض غمار معركة افتضاح وتعري " . إن كافة التوجيهات التي يزود بها رجالنا في السلك الدبلوماسي تبرز أهميـــة اتباع وسائل تعكس المبادئ الديموقراطية والقيم الأخلاقية للأمة كفامل أساسي لنجـــاح أية محاولة من مجالات الضغط على الحكومات الأجنبية .

أن الكشف عن نياتنا صراحة وعدم الدخول في معاهدات لا نزمع على الألتزام بها يجب أن لا يعني سوى حقيقة واحدة وهي أننا للم نعثر على أية مصلحة لنا في اتباع مثل هذا السلوك ، وبالمقابل فإننا سنبذل المستحيل لكتم نياتنا الحقيقية أو للتحايل علـــى نصوص أية معاهدات وقعناها سابقا إذا ما لمسنا أن ذلك يحقق لنا مآربنا وتوصلنا إلى غ اياتنا ، شريطة أن ننجح في هذا دون الوقوع في مآزق محرجة أو التـــورط في مواقـــف فاضحة .

أنني لا أحاول البتة أن أقف موقف المدافع عن مثل هذا النفـــاق والخـــداع ، فالحقيقة أنني لا أملك شعورا واضحا حياله وإن كنت متأكدا من وجوده تماما أن كـــلا من اللعبة التي نمارسها في " مركز اللعب " في واشنطن تحت ظروف مفتعلة . و " لعبـــة الأمم " التي يقوم رجالنا في السلك الدبلوماسي وجنودنا بتنفيـــذها عـــبر البحـــار —

باستمرار وكيفما اتفق — تعتبران من أبرز الشواهد على صدق كلامي ، ولعل أبرز مثال على سلوكنا المزدوج ، واستراتيجيتنا ذات الوجهين " الأخلاقي واللا أخلاقي " هـــن تلك الطريقة التي تعاملنا بها مع عبد الناصر . رئيس بالجمهورية المصرية .

أن من أول العناصر التي لمسنا ضرورة وجودها في مسرحيتنا توفر شخصية مـــا مثل عبد الناصر بالذات . وبعبارة أخرى ، فإن " ناصرا ما " كان من ضمن الفعناصـــر الحيوية للمسرحية التي عمزمنا على إخراجها . ولقد تأكد هذا الشعور جليا عند=مـــا بدأنا نؤدي أدوارنا حول طاولة الاجتماعات . وكنت يومها أقوم بتمثيـــل دور ناصـــر نفسه . لقد بان لكل من يملك أحساسا مرهفا أن غياب دور ناصر سيفقد المـــسرحية توازنها ، وستبدو عندئيسذ كتمثيلية " هملت " وقد اختفى منا دور " بولينوس " .

كان يتملكني شعور خاص ، وأنال أجمع شتات قصة ناصر وأعمـــل جاهـــدا لوضعها في صيغة قوانين ذات تطبيق عالمي . أن نموذجا كجمال عبد الناصر كان مـــن الأهمية بمكانبخصوص " اللعبة " وإننا كنا ملزمين بالبحث عن مثيل له فيما لو لم يكـــن على قيد الحياة . أو أن زعيما مثله . لا محالة . سيبرز إلى الوجود آجـــلا أو عـــاجلا . وعلى الأقل . لاستكمال أدوار "اللعبة " . ولقد تملك ناصر نفسه هذا الشعور بالـــذات عندما تحدث في كتابه "فلسفة الثورة " عن " دور على المسرح ينتظر لاعبا ليؤديـــه" . وعن محاولته لتأدية ذلك الدور . وسألته مرة عن رأيه في نتائج محاولته تلك فأجابني : " أنني لم أنجح بعد في تأدية ذلك الدور" . ومع أن جوابه كان صحيحا فإن المهم هنا ليس نجاحه في تأدية الدور قدر نجاحه في تحديد معالم الدور نفسه . ولقد قطع ناصر شـــوطا بعيدا في محاولته لتحديد معالم ذاك الدور بالرغم من إعطائه وصفا مضللا في كتابـــه " فلسفة الثورة " . ومهما كان فإن معالم الدور قد أصبحت ألآن في وضع لا لبس فيه ولا إبهام .

والأمر الثاني هو أن " ناصرا " واحدا لم يكن يكفي لسد الفراغ على المسرح . فقد كانت " اللعبة " تقتضي ظهور أكثر من زعيم واحد من " طراز ناصــــر " وذلـــك لتأدية جملة أدوار في عدد من الدول الإفريقية والآسيوية . و لم يخامرني شـــك في أن أي تقدم نحرزه في مسرحيتنا سيبقى رهينا لمدة غير قصيرة بتوفر لاعب من هذا النوع . فقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التخلف المريع في جميع أبعاد الحيـــاة في البلـــدان الإفريقيـــة الآسيوية هي إما ظهور قائد وطني رافعا لواء التحرر من الاستعمار . معتمـــدا علـــى الغوغاء لضمان البقاء في السلطة في الوقت الذي تتجه كافة الأوضاع داخل القطر نحو الانهيار والخراب ، أو ظهور قائد من النموذج العملي فيحاول الاعتماد على المساعدات والحماية الأجنبية له . إلا أن الغوغاء ستنعته بشتى الصفات وأبـــسطها " أنـــه عميـــل للاستعمار" أو " صنيعة لموسكو". ومنذ عام ١٩٦٠ ، كان يستبعد بقاء أي زعيم مـــن هذين النوعين السابقين في الحم لمدة طويلة . فبعد أن شهد العـــالم ســـقوط نكرومـــا وسوكارنو وفشل العديد من القادة السوريين والعراقيين ظهر أن العامل المؤثر في صمود أي من أولئك القادة في ظروف قاسية كالظروف السائدة في أقطارهم يعتمد على النسبة المئوية لتشابه أنظمتهم مع " طراز ناصر في الحكم" وكمثال على هذا . فإن ناصرا نفسه كان متمثلا " لطراز ناصر فغي الحكم " بنسبة تسعين بالمائة وهي نسبة أعلى من تلـــك التي تتطلبها ظروفه الخاصة التي كان يحاول الصمود فيها . وأما نكروما فلم يتمثل أكثر من سبعين بالمائة من " طراز ناصر في الحكم " . إلا أ، ظروفه كانت في حاجة إلى نسبة أعلى من تلك . ولهذا لم يتمكن من الصمود أمامها . ومن هذا النوع .كان كل مـــن سوكارنو في أندونيسيا ، وعبد الكريم قاسم في العراق . وكثير غيرهم . وأمـــا الملـــك حسين في الأردن فإنه لم يحاول أن يتمثل أكثر من أربعين بالمائة من " طـــراز ناصـــر في الحكم " . إلا أن ذلك كان أكثر مما تطلبه ظروفه الخاصة . وهذا ما ساعده على البقاء في السلطة حتى كتابة هذه السطور . ومع أن المثال الذي يتمثل مائة بالمائة من " طـــراز ناصر في الحكم " لم يتحقق بعد على الإطلاق . فقد أظهرت الدراسات " التي شملـــت

ناصرا نفسه " أن مدى تمثل الزعماء " لطراز ناصر في الحكم يؤثر كثيرا على قـــدرهم على البقاء في الحكم ، وعلى استمرار مشاركتهم الفعالة في " لعبة الأمم " . والأهم من ذلك أن طريقة ممارستنا لعبة مع ناصر نفسه " وحتى هذه اللحظة " يجب أ، تلقنا دروسا قيمة في إستراتيجيتنا لمعاملة أمثاله.

والأمر الثالث هو أنه بالرغم من الاعتراض الذي أظهره الوزير جون فوســـتر دالاس على الزعماء الذين عليهم مسحة من " طراز ناصر في الحكم " ، فقد اقتنعـــت حكومتنا أخيرا أن وجود هذا النوع من الحكام في السلطة أخف ضررا على مـــصالحها من وجود أي نوع آخر منهم مهما كان شكله .

لقد اعتادت حكومتنا على احترام استقلال الدول الإفريقية والأسيوية إلى حد كانت تتغاضى في كثير من الأحيان عن سلوك بعضهم الطائش ما دام ذلـــك لم يمـــس مصالحنا بسوء . أما إذا كانت نتائج التزامنا بالمبادئ الأخلاقية خسارة مصالحنا وضياعها فإن موقفنا سيكون العكس . وستون التضحية . بدون شك . على حساب تلك المبادئ الأخلاقية وليست على حساب مصالحنا.

وبصراحة أكثر ، فعندما كنا نضطر في بعض الأحيان لإزاحة حاكم ما ثبت أ، وجوده يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ مخطط لنا في أحد تلك البلـــدان الإفريقيـــة أو الآسيوية " وهذا ما كان يحصل فعلا في مركز " اللعب " في واشنطن في أحوال نفـــرض حتمية وجود جميع أولئك الحكام الأصدقاء منهم والخصوم " فإننا كنـــا لا نتـــردد في اللجوء لمثل هذه التدابير مهما كانت فداحة المخالفات الأخلاقية .

ومن البديهي جحدا أن يكون خلفية الحاكم المخلوع على استعداد تام للـــسير وفق الخط الذي يضمن مصالحنا هناك . ولقد اتفق الأميركيون والبريطانيون على معالجة

شؤون الدول الإفريقية والأسيوية من خلال هذه النظرات والمواقف ، فكان الحكام من " طراز ناصر " يعطون الأولوية على غيرهم لأن استيلاءهم على الـــسلطة يـــوفر أفـــضل الفرص — أو أقلها سوءا — لنجاح " لنجاح " لعبتنا " ، فكنا لا نعتبر نجاحنا في استمالة أي من أولئك الحكام الغوغائيين الذين جاؤوا إلى السلطة في سوريا أكثر من مجرد نصر أجوف ، ذلك أنه سرعان ما يطاح به ليعقبه من هو أسوأ منه. ألا أن ناصرا كان مـــن نوع آخر تماما ، لقد اعتاد أن يتأقلم إلى حد ما مع كل " ربح " نجنيه لصالحنا من خلال عدم اعتباره على أنه " خسارة " له . وعلاوة على هذا فإن لدى ناصر القدرة علـــى أن يتخذ قرارات حاسمة في المواقف الحرجة " تحقق لنا وله . بعض المكاسب والمغانم دون أن يدع المجال لجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها . وكمثال على هذا . احتمال التوصل إلى اتفاق ما مع الإسرائيليين . فالمبدأ القائل إن عدوا عاقلا ( كيفما كان ذلك ) خير من صديق جاهل هو ذاك المبدأ الذي نحرص عله كل الحرص بل وبعض عليه بالنواجذ.

لقد أثار تمثيل دور ناصر فيّ اهتماما وتعلقا وليس فقط بالشكل لاذي كنـــت أؤديه في ناطحة السحاب بواشنطن " وزارة الخارجية " بل وبالشكل الذي كان ناصر يؤديه بنفسه على الطبيعة في العالم . لقد قمت بتمثيل دوره في " مركـــز اللعبـــة " في واشنطن مرارا وتكرارا وعلى فترات امتدت من صيف ١٩٥٥ وحـــتى ربيـــع ١٩٥٧، وكنت أثناءها أزاول مهام منصبي كمستشار للجنة تخطيط السياسة الأميركية في الشرق الأوسط في وزارة الخارجية . ولقد أتاح لي منصبي هذا أن أقوم بزيـــارات عديـــدة إلى القاهرة وبعض عواصم الشرق الأوسط ، توفرت لي خلالها الفرصة لمقابلة ناصر نفسه — وغيره من زعماء المنطقة المعجبين به — واستعرضت معه تحركاتـــه وتـــصرفاته . ألا أن صلتي بناصر كانت أقدم من هذا التاريخ . فقد كانت لي معه صلات عديدة في ظروف جيدة كما كان لي نفس الشيء مع عدد من زعماء الشرق الأوسط بنـــوعيهم المـــوالي

لناصر والمناوئ له . ومع أن ناصرا كان يتصف بمسحة من الغوغائية " كغيره من بـــاقي زعماء الشرق والغرب " إلا أنه كان يتمتع إلى جانب ذلك بموهبة أخرى جعلته يفـــوز في " اللعبة " على جميع اللاعبين بما فيهم الولايات المتحدة نفسه والإتحـــاد الـــسوفيتي . باستثناء إسرائيل .

وكانت تعتريني الدهشة عندما كنت أقارن بين القرارات الـــتي اتخـــذها في " مكركز اللعبة؟ بواشنطن وبين قرارات ناصر نفسه التي كان يصدرها على الطبيعة فعلا . فأجد أن الأول " أسوأ " من الثانية من وجهة نظر المحافظة على المصالح الغبية . وحدث هذا فعلا قبل أسبوع واحد من بدء أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦ ، فقـــد استـــشارني يومها نائب مدير المخابرات المركزية فيما إذا كنت أتوقع أن يقوم ناصر بتـــأميم قنـــاة السويس إذا أقدمت الولايات المتحدة على سحب عرض تمويلها لبناء الـــسد العـــالي . وأجبته يومها أنني قد قمت بتأميم قناة السويس منذ بضعة أشهر استنادا إلى دور ناصـــر الذي كنت أمارسه في " جهاز اللعبة " . إلا أن ناصرا حقيقة في تلك اللحظة . وعندما أتيحت لي الفرصة مؤخرا أن أبحث مع ناصر نفسه قضية قناة السويس ، تبين لي أنه كان يتوقع ردود فعل أنجلو – أمريكية على مستوى أقسى بكثير من التي رواتنا نحن فعـــلا في واشنطن . لقد كان بإمكان نارصر أن يكون أجرأ بتحركاته لو أنه كان يحتل مكاني في مركز اللعبة في واشنطن وقد تجمعت أمامه على طاولة الاجتماعات كـــل المعلومـــات والدراسات التي كانت تحت تصرفي يومها .

لم نكن نهتم بالعثور على صيغة لمعادلة توصلنا إلى نجاح مستمر إلا مع " طراز ناصر " من الزعماء . فلو أننا اكتشفنا فعلا طريقة محددة للتعامل مع ناصر فسيعني هـــذا أننا قد أحرزنا تقدما ملموسا في مضمار علاقاتنا مع كثير من حكام دول إفريقيا وأسيا

وأمريكا الجنوبية . بل ومع كثير من الزعماء المتوقع ظهورهم حتى أواخر هذا القـــرن " القرن العشرين " . ولا مانع ألآن من أ، نحاول إعطاء تفسير واضح لما نعنيه بعبارة أخرى " نجاحنا " .

كان ناصر وضباطه يميلون للاعتقاد أن " لعبتنا " هي من النوع الذي حاصـــله دائما مساويا للصفر. وبعبارة أخرى فإن أي ربح يجنيه الطرف ألأول إنما يعني خـــسارة تكبدها الطرف الثاني بالتأكيد. وعليه فإن حاصل عملية الجمع يكون دائما صـــفر. — يكون حاصل جمع الأرباح " كمية موجبة" والخسائر " كمية سالبة " لكل اللاعبين وفي أية لحظة من لحظات استمرار اللعبة مساويا للصفر تماما . وبنفس الوقت تكون الحكومة الأمريكية قد تكبدت خسارة محققة في حدود من المبلغ ، هذا ما كانت عليه نظرة ناصر لمبدأ الربح والخسارة وللحاصل المساوي للصفر دائما .

إلا أنه حقا لم يكن يخطر ببالنا مثل هذه الهواجس ، فقد كان اعتبارانـــا لهـــذا النوع من اللعب على أنه شبيه بحالة مجموعة من رجال المظلات الذين هبطـــوا خلـــف الخطوط وفقدوا الاتصال فيما بينهم ويحاولون إعادة تنظيم تشكيلاتهم بإجراء بحـــساب للسلوك والتفكير المحتمل لك منهم . كما يمكن اعتبار هذا النوع من اللعب علـــى أنـــه مماثل لحالة رجلي أعمال يتفاوضان على صفقة يستفيد منها الطرفان معا .

ولا تقتصر اللعبة على هذا النوع من التشبيه وضرب الأمثال ، فقد عبر أحد رجال الأعمال الأميريكيين عن طبيعة هذه اللعبة عندما خاطب وزير صـــناعة ناصـــر بفظاظة قائلا : " إنها شبيهة بالصراع الذي يقوم بين الأم التي تحرص على أن يـــشرب طفلها الحليب ، وبين الطفل الذي يأبى ذلك ويرفضه بإصرار . إلا أننا لا نعتبر " لعبتنا " سوى من ذلك النوع الذي . مهما اشتد واحتد ،تخرج منه جميع الأطراف في النهايـــة غانمة سالمة.

إن أي تقصي موضوعي لسلوكنا في " لعبة الأمم " يظهر بكـــل ســـهولة أن الحقيقة ليست إلى جانب أي منا . فعندما منحنا ناصراً أربعين مليونا مـــن الـــدولارات كمساعدة مالية له . فإننا لم نكن لنبخل عليه بأ:كثر لو كان ذلك في استطاعتنا لقـــد فكرت وزارة الخارجية برفع قيمة المساعدات إلى حدود المائـــة مليـــون دولار . إلا أن تخوفها من هبوب عاصفة من الاحتجاجات ضدها في الكونجرس قد أثنى عزمها هذا .

وبنفس الوقت . لم تكن نظرتنا إلى موضوع حصول ناصر على مبلغ الـــستين مليونا أو الأربعين مليونا من الدولارات على أنه خسارة لنا وربح له . بل كانت نظرتنا للمساعدة على أنها فائدة للطرفين معها .ومن جهة أ×رى . فإن دفع مثل هذه المبالغ ما كان ليتم لولا أملنا في أن يحقق لنا بعض المصالح ولو بخسارة محدودة يتكبدها الشعب المصري. ومع أ، هذه الخسارة لن تكنن فعلا جسيمة ، إلا أننا قد أصررنا على إخفائها بل وإنكارها لضرورة دبلوماسية. فالحقيقة الكامنة وراء كل هذه المساعدات هي تحقيق مصالحنا بالدرجة الأولى . وهذا ما نأخذه دوما بعين الاعتبار عند تخطيط إستراتيجيتنا في أبراج وزارة الخارجية في واشنطن . إن أية مغانم يحققها الطرف الآخر . سواء أكانـــت خيالا أم واقع . لن تكون مقصودة أبدا . كما أ،ه لا يستبعد أبدا أ، تكون طعما في يد صياد يغري بها فريسته حتى تقع في شباكه .

إلا أن زكريا محي الدين " وهو أذكى رفاق ناصر وكان قبل فترة قصيرة نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة" دافع عهن مبدأ " اللعبة " ورأى أنه حتى في الحالة التي يكون فيها حاصل مجموع الخسائر والأرباح مساويا للصفر . فإن فوئد كثيرة تجنيها كل الأطراف المشتركة في اللعبة . فالجميع راغبون في تجنب الحروب وفي تحسن الأوضـــاع الاقتصادية وتنمية العلاقات الأخوية بين شعوب بني الإنسان . وهم في حالتـــهم هـــذه يشبهون إلى حد كبير مجموعة من لاعبي البوكر الذين تجمعهم الرغبة العامة في تـــسلية أنفسهم والترفيه عنها . متجنبين إتباع أساليب الغش والخداع . أو الاحتكام إلى منطق

القوة عند نشوء خلافات بينهم . كما قال أيضا أن البشرية المتحضرة تشترك بأهـــداف جامعة واحدة . إلا أن اجتهاداهما المختلفة حول الطرق الموصلة إلى تلك الأهداف هـــي التي أوجدت التفاوت بينها في وجهات النظر . " وقاد ألقى هذا الكلام على طلابــه في كلية أركان الحرب المصرية" . وهكذا حقا كانت طبيعة الخلافات المصرية الأميركيـــة وطبيعة " اللعبة " التي دارت بين الزعماء المصريين والأميركيين . ومهما تحدث الزعماء المصريون عن طبيعة النزاع بينهم وبين الأميركيين ومهما أضفوا عليه مسحة من الأخلاق ، وصوروه على أنه يضم في طياته كثيرا من المصالح المشتركة للشعبين معا . فإن حقيقة الأوضاع كانت على عكس هذا تماما . لقدح لمس هذا عديد من رجالنـــا في الـــسلك الدبلوماسي ورجال الأعمال الأميركيين الذين كانوا لعى احتكاك مباشر مع المـــصريين أنفسهم . فلم تكن النظريات التي وضعتها كلمن أجهزة تومـــاس شـــيفلنج ومـــورتن كابلاىن وغيرهما "

لتستخدم في رسم قواعد لعبة الشعوب وإستراتيجية الصراع " تنطبق على هذا الجزء من " لعبة الأمم " فالنزاع المصري الأميركي هو من النوع الذي يظهر فيه بوضوح لا إبهام فيه . تضارب المنافع . ،إصرار كل طرف على تقديم مصالحه علـــى الآخـــر، وإتباع أكثر الوسائل حيلة ودهاء للوصول إلى الغايات والقيام بتضليل الآخر ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وهذا ما دفعني إلى نشر هذا الكتاب . إن كل ما كتبه الأميريكيـــون والبريطانيون حول علاقاهم بالدول الإفريقية والآسيوية غير المستقرة لم يلق ضوءا علـــى خفايا هذا لعلاقات أو على أساليبنا المتنوعة والملتوية لاستمالة حكام تلـــك البلـــدان . وسبب ذلك ههو تتعارض هذه الأساليب مع ما اعتادت حكوماتنا أن تطرحـــه علـــى شعوبها . وعليه فإن هدف نشر الكتاب هذا هو محاولة سد النقص في كتابات غـــيري وتلافي عجزهم في عرض الوقائع والأحداث .

وفي ختام هذا الفصل الأول أرجو أن لا ينظر إلى هذسا الكتاب على أنه يختص بعلاقاتنا نع ناصر بالذات دون سواه. فالكتاب مليئ بالعينات التاريخية لتعطي دروســا ذات تطبيق عام في العلاقات بين الولايات المتحدة وبين أي زعيم خارج العالم الغــربي يتوقع أن يلعب دورا ليس قليلا ٦في العلاقات العالمية في المستقبل .ومع أن الحديث حول ناصر قد شغل مساحة لا بأس بها من صفحات هذا الكتاب . فإنني قد بذلت قصارةى جهدي في معالجة نواحي سلوكه التي أتوقع أن تكون مشتركة مع غيره من الحكـــام في الأقطار الإفريقية والأسيوية شريطة أ، يكونوا " النمـــوذج الناصـــري" ، وأن تكـــون الظروف السائدة في داخل أقطاهم اقتصاديا واجتماعيا كتلك الظروف البائسة السائدة في مصر ، وأن يتفاعلوا بالضرورة مع التنحركات التي تقوم بها كل من الولايات المحـــدة وبريطانيا ضمن نطاق " لعبة الأمم" .

***

# الطراز الناصري للحكـــم ووسائل القمع

*وكان بقاءؤه على مـــسرح*
*الأحداث معنا أول أهدافه . مهمـــا*
*كان الثمن .*

كم طرح على ذلك السؤال عبر السنين والأيام ، لم يتغير جوابي عليه أو يتبدل : " لنفترض جدلا ، أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما ، وأوصدت دونـــه جميـــع الأبواب إلا أثنين : إما بقاؤه في السلطة ودمار البلاد . أو خروجه مها ونجاة الـــبلاد ، فأيهما يختار ؟ " و لم يكن جوابي دائما سوى : " ليس لنا خيار في الجواب . ففي تحليلنا لواقع أي زعيم من فئة عبدالناصر ، يعشق السلطة حبا في لاتسلط ، يتبين لنا أنه سيفعل كل ما في وسعه للبقاء فيها ولنو أدى ذلك إلى إنهيار البلاد اقتصاديا . أو دخولها حربـــا خاسرة متقطعة مع عدوها ( إسرائيل ) . وإذا كان الحاكم بونـــابرتي الطـــراز ، فـــإن مبررات استئثاره بالسلطة ستبقى قوية على أمد الدهر . ولن يتزحزح قيد أنملـــة عـــن اعتقاده بأن أسوأ الكوارث والنكبات لنتفلح في طي صفحة ذلك التفويض الذي منحه إيها الشعب في يوم من الأيام .ولن يجرأ إنسان لى تجريده ه من السلطة الإطاحـــة بـــه . وهذا ما حصل تماما أثناء الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٦٧ : فلقد كانت أسوأ كارثة عرفتها مصر في تاريخها الطويل ، كما كانت أعظم فرصة لأعداء عبـــد الناصـــر

لينقضوا فيها عليه ويطيحوا به . ولكنها مرت . وانقضت . وخرج منها عبد الناصـــر أوقى مما كان عليه في أي يوم مضى .

ولربورت ميشلز كتاب طريف حول " ظاهرة عقدة السلطة عند الزعماء " او ما يسمى بالبونابرتية . وفيه يسرد بعض خصائصها مصل " الاستمالات النفسية " الـــتي يمر بها بعض القادة مثل عبد الناصر . فنتيجة لتمتعهم بسلطات واسعة ، يتملكهم شعور جامح بازدياد أهميتهم وقيمة أشخاصهم ، وحاجة الجماهير الملحة لقيـــادتهم ، وهـــذا يورثهم نواعا من الشعور بالتفوق والعظمة والحقيقة أن كل من يتربع على عرش السلطة . يشعر بإلحاح مستمر لتجميع أقصى ما يمكنه منها في قبضة يده . ولبسط نفوذه علـــى أوسع رقعة من الأرض . ولمضاعفة الأسوار التي تحميه . والنجاة بنفسه بعيدا ما استطاع عن رقابة الجماهير .

ولقد كان احتكاكي بعبد الناصر على مر السنين أكثر من أي إنسان غربي آخر .ومع أنني لا أزال أملك حرية زيارته . والتحدث إليه . حتى ألآن في ظـــروف مريحـــة ينطلق فيها على سجيته مرة كل شهر أو شهرين . إلا أن الظروف لم تعد لتسمح بتكرار تلك الزيارات العابرة التي اعتدت أن أفاجئه بها حيث كنا نتناول معا طعام الغداء . ومع أنني كنت أزوره أحيانا لأنجز مهمة لرفيق ، أو تكليفا – رغم أنفي – من طبيب نفساني أو عادي أو مسئول في وكالة المخابرات الأمريكية لأتحرى لهم أية بوادر الهيار في صحته أو انحراف في تفكيره . فإن الطابع العام لزياراتي له كان طابع صداقة وألفة .و لم أكن في ويم من الأيام هاويا لإدراك ما وراء الوجوه التي اعتادت أن تخفي ما يجـــول في خـــاطر أصحابها .

وتظهر بغير حقيقتها . وإن كان في نفس أي إنسان حاجة ليعرف رأيي عـــن نفسية عبد الناصر وحالته الراهنة . فلن أتردد في القول أنه – بغض النظرعن سياسته معنا

– لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية ، و لم يفقد شئا من قوتها ومرونتها ، أما بخـــصوص سياسته معنا . فرأيي صريح : أن ما يحل – عاجلا أم آجلا – بالزعماء ، من طراز عبد الناصر لابد وأن يحل بعبد الناصر نفسه . فمهما كانت قوة تحمله الشخـــصية لــضغط التملق والمداهنة . أو الولاء الأعمى والخوف منه . فإن الأسرار الفاصلة بينه وبين العالم الخارجي غدت أكتم من المعتاد ، فلا ينفذ منها في هذه الأيام ألا ما يـــشهد عــصمته وخلوده ، ويؤكد صورة بقائه حاميا لأمجاد الثورة والتحرر. وحتى لو كان ناصر مـــن أكثر الناس عبقرية . وأقواهم شخصية . وأشدهم متانة ، وأجدّهم ذهنا . فمن المستحيل عليه أن يبقى محتفظا بنفس مركزه السابق بينما يمثل أدواره في مسرحيتنا " لعبة الأمم " ، أو أن يبقى دون أن تكتنفه الأشواك التي قلما تترك زعيما من نوعه بدون أن تتـــشابك حوله لتطويقه والقضاء عليه. وفي الوقت الذي يفترض خصومه أنه يقوم بمناقلات متزنة محسوبة على ضوء إدراكه لما يجري على رقعة اللعب . إلا أن إدراكه هذا قد زاغ وضل حقيقة . أما كيف حصل ذلك فإنه سيبقى لغزا محيرا. إن عبد الناصر لن يتمكن علـــى الأرجح بعد اليوم . من رؤية مفارق الطرق عند وصوله إليها : مجد شخصي ودمـــار للبلاد ، أم تنح عن السلطة ونجاة للبلاد.

وكان أول ما يبدأ به لضمان الحكم واستتباب السلطة هو تـــوفير " وســـائل القمع" – كما جاء في تقرير إيخلبرغر ، فلو كان تصور عبدالناصر للقيادة ليس أكثر من مجرد بقاء في طليعة الغوغاء أينما حلت وارتحلت ، فإن الأمر ليس صعبا . وعندها تعتمد حلول القضية على تحركات وتنقلات مزخرفة أكثر مما تعتمد على دور القيادة الحقيقية . ألا أن عبد الناصر قد رأى أنه – بركاتنا ورضانا- سيتمكن من البقاء في القيادة طويلا وبدون صعوبة .

وكل ما كان عليه أنيفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة أحد له . ولكن " لتكون زعيما صالحا" فإن الأمر أكثر مشقة وعسرا . إنه عليك هنا أن تدفع الجماهير إلى أن تتشوق وتطمـــح إلى مـــا يفيدها ويصلح أحوالها. وعلينا أن نتذكر ، للمرة الثانية . نقطة مهمة في مقامنا هذا وهي : أن الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفر زعيم في بلد عربي رئيسي يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شـــاء من القرارات الخطيرة وغير المقبولة عند الغوغاء — مثل عقد صلح مع إسرائيل. واستنادا إلى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر ، فإن استتباب النظام ورضوخ الأمة أمر يجب تحقيقه ولو أقتضى الأ/ر استخدام القوة وإتباع أساليب البطش والإرهاب.

و لم تكن هذه مواقف وقرارات مطلقة وقطعية لا تقبل الأخذ والرد على طريقة " الكولونيلات " اليونانيين " ( بعد عدة سنوات ) ، فقد كان عبد الناصر يفكر بالقضية ويناقشها مع ضباطه وبار سياسيي عصره . ثم لا يلبث أن ينقل اهتمامه هذا وقلقه إلى أصدقائه في الغرب الذين كانوا سرعان ما يتجاوبون معه بخصوص إصراره على ضـــبط النظام واحترام القانون . وكان تفكيرنا يعزي إلى رأي عبر عنه الديبلوماســـي الليـــبرالي جون دافيس بقوله" ليست المشكلة مشكلة كون الحكومة ديكتاتورية أو برلمانية دستورية . ولكن المشكلة هي في قدرة الفحكومة مهاما كان نوعها على توحيد المجتمع وجعلـــه متماسكا ومتراصاً بصورة تتمكن من الانتقال معه إلى مراحل متقدمة للرقي والإزدهار " ، ولكن الجزء الآخر من تفكيرنا كان ضعيفا وركيكا. فلقد ظننا أن جميع وسائل القمع ولابطش بما فيها لاجيش والبوليس وأجهزة المخابرات ستكون بجانبنا ، في حين ستنتجه القاعدة الشعبية لعبد الناصر وجهة يسارية لعدة أسباب ، والتقرير الشهير : " مـــشاكل السلطة والحكومات الثورية" يشرح كيف حققنا بعض التوفيق بـــين وجهـــات النظـــر المختلفة .

واستنادا إلى هذا التقرير ( أو بعبارة أخرى ، استنادا إلى " الــذوق العــام " ) فقاعدة القمع التي تعتبر ركيزة الحكومات الثورية للبقــاء . يجــب أن تعمتــد علــى المؤسسات التالية : التشريعات ، البوليس ( قوى الأمن الداخلي ) ، أجهزة المخابرات الدقيقة . أجهزة الدعاية . القوة السكرية أو الجيش . ومن الأهمية بمكان أعطاء لمحة عن تطورات هذه المؤسسات وكيفية تصميمها.

- **التشريعات** :

لا يختلف اثنان ليبراليان على ضرورة بقاء الأحكام العرفية لفترة ما بعــد استلام الحكم نتيجة انقلاب عسكري . كما أنه من الضروري اتخــاذ الخطــوات اللازمة لإستئصال شأفة الفساد واقتلاع جذورها من جميــع مؤســسات الدولــة وإداراتها . لأن ذلك هو السبب الرئيسي لقيام مثل ذلك الانقلاب . ولهذا فللنظــام الجديد إذن الحق في ممارسة السلطات التشريعية ليتمكن من كشف الخطر وتحديد مواطن الفساد ،وبالتالي لتمكن من فرض إجراءات رادعة وعقوبات زاجرة . وهذا ما فعله عبد الناصر بتشريعاته : فقد حدد مهمة البــوليس وأجهــزة المخــابرات والمباحث،أعطاها حرية التصرف المطلقة والأخذ بزمام المبادرة في الكشف عن كل مؤامرات الإطاحة بنظام الحكم والتحريض على أعمال العنف ، والإباحة بأســرار الدولة . وكل ما يشتبه بأنه ميول لارتكاب مثل هذه الجــرائم . وكانــت هــذه التشريعات تصدر على الأمة بشكل مراسيم وأوامر صادرة من مجلس قيادة الثورة وفي صياغة جيدة وأسلوب محكم ،

ولقد وصفها المستشار القانوني للسفير كافري بأنها من الدرجــة الأولى . وفريدة من نوعها في مثل هذه البقعة من العالم . وقد فاقت مثيلاتها في فرنــسا .

ولكن الطيقة التي اتبعت في تنفيذ التشريعات قد وضعت نظام عبد الناصر في مهب رياح النقد والتشهير التي ما تزال صاخبة حتى يومنا هذا .ويوجهها بعض المصريين المنفيين في سويسرا وأماكن أخرى . وقد كان الأفراد يعتقلون بـــدون أن توجـــه إليهم أية تهمة . وكانت الممتلكات تصادر و وخضعت المطبوعات كلها للمراقبة . وق نفذ كل ذلك بطريقة منتظمة ولكن بدون أن تكـــون العلاقـــة بينـــها وبـــين التشريعات واضحة بينة .

وقد أطلق سراح بعض المعتقلين . وسمح لهم بمزاولة نشاطهم الـــسياسي السابق . بل وشجعوا على ذلك . ورفعت أوامر المصادرة عن بعـــض الأمـــلاك. ورفعت المراقبة عن الصحف عندما لم يعد ثمة حاجة إليها. ولكن لم تمض أســـابيع قليلة على موجة إطلاق الحريات هذه حتى عاد الاضطهاد والكبت مـــرة ثانيـــة . وعادت الاعتقالات بصورة أكثر .كذلك مصادرة الممتلكات ومراقبة المطبوعـــات .واستمر عدم الاستقرار : مرة إطلاق للحريات ثم يتلو ذلك موجة مـــن القمـــع والشدة . حتى اضطر بعض أصدقاء عبد الناصر من المراقبين الغربيين للاعتقاد بأنه يمارس نشر الرعب ولافزع في أرجاء لابلاد بصورة تهدد نظامه كما لم يكن شـــك هناك أ،ه قد ولد تأثيرا سيئا على العالم الخارجي . وبدأت غالبية السفارات الأجنبية تردد شكوكها حيال احتمالية قيام ديكتاتورية عسكرية فاشستية في مصر. و لم يكن قلق ( و حرج ) السفارة الأمريكية يسبب اشمئزازها من أعمال الاعتقال ومصادرة الممتلكات وتكميم الصحافة . بل ، كان بسبب الطريقة التي ترجمت بها الحكومـــة تلك الأعمال للشعب.وهكذا نشأت علاقة متردية بين الحكومة وشعبها . وقد تجلى الخلاف بين المفهوم الليبرالي للتشريعاتومفهوم عبد الناصر في أن المفهوم الليـــبرالي يعتبراوسائل سلبية ومجموعة أنظمة يبقى الإنسان خارج السجن إذا لم يتحد معها . في حين كان عبد الناصر يعتبرها شيئا إيجابيا. بمعنى أنها لمبررات لتصرفاته وقراراته —

التي ستطيل عمر ولايته على الشعب- ضد بعض العناصر المعروفة في المجتمع المصري . تلك العناصر التي لا يمكن أن تبقى ميزات ناصر وحسناته وسيبقى عداؤها لنظامه قائما وإن تظاهرت بعكس ذلك . وكان يعلم هذه الحقيقة المؤلمة السفير كــافري. وبعض أعضاء سفارته. لما كان لهم من صلات مع بعض تلك العناصر . كما كان يعلم هذا تمام العلم عبد الناصر وجميع الجماهير المصرية ، وهكذا فإن التطهير الذي قام به عبد الناصر لم ينشر الذعر والخوف ، ولقد قال مرة أحد ضباط الأمن الموالين له " أن أولئك الذين لهم العذر في أن يخافوا قد عزلوا مدنيا" .

- **البوليس – قوى الأمن الداخلي:**

لم يكن للبوليس أي دور في الانقلاب، ولم يكن إلا لواحد أو اثنين مــن كبار ضباطه علاقة بسيطة مع زكريا محي الين رئيس جهاز المخابرات العــسكرية . ولكن رجال زكريا قد تغلغلوا في البوليس جيدا. وساعدوا في القيام بحملة تطهــير بعد الانقلاب مباشرة . وقد استلم عبد الناصر وزارة الداخلية واعــتنى بــالبوليس بشكل خاص بعد تسرح ثلاثين أو أربعين ضابطا وحولي مائة من رجال البــوليس المشكوك في ولائهم ، وفي غضون أسابيع أصبح البوليس جهاز أمن قوي أحــسن من أي وقت مضى ولم يعد مصدر خطر على النظام الجديد.

ولم يكن جهاز المباحث في وزارة الداخلية بدار من قبل أسن العقول في البلاد وأنظفها ، بل كان ( كغيره من أجهزة الأمن الأخرى) نعاني من عقلية ذاك الصنف من البشر الذي تقوده نزواته للألتحاق بأجهزة الأمن عامة . فقد أخبرني مرة أحد ضــباط عبد الناصر في أجهزة الأمن قائلا " أننا نتصر على أساس أن الشعب كله موال للنظــام وذلك ليعلم الجميع ا،نا على استعداد لمعاملة من يشك بولائه وإخلاصه بمنتهى القسوة" .

وعندما يفلح إنسان ما . في استنباط رسائل تقنع بعض الرجـــال مـــن ذوي حساسيات ألطف ليصبحوا ضباطا في الأمن العام . فسوف تختفي كل الوسائل البـــشعة ون يعد ليسمح بها عبد الناصر أو مستشاريه الأمريكيين .

وأكثر ما كنا ما نأمله هو تحقيق القسوة في إجراءات الأمن وزيـــادة المراقبـــة والمتابعة.

أما المراقبة ( عمل المباحث ) فكانت تجري عن طريق نظام " عيون المدينـــة ، الذي ورثه عبد الناصر عن العهد البائد وقد مضى على وجوده في مصر عدة قـــرون . لكنه نظام غير فضولي . فقد قام أحد رجال وكالة المخابرات المركزية — وسابقا أحـــد رجال مكتب المباحث الفيدرالي – وهو خبير في شؤون المراقبة المباحثية . بالتجول من أقصى مدينة القاهرة إلى أقصاها . وأقسم أنه لم يكن تحت المراقبة ولا حتى لدقيقة واحدة . ولكن أحد ضباط الأمن طمأنه إلى أن جميع تحركاته ومكالماته الهاتفية وكل اتـــصالاته قد سجلت وضبطت .

والسر في هذا بسيط : فالبوابون ، وسائقوا التاكسيات . وعمال التلفونات . والشحاذون . والبائعون الجوالون . وغيرهم يعلمون أنهم سيمنحون بضعة قروش مقابل إعطائهم أية معلومات لرجال الأمن الذين يستفسرون منهم عن أجنبي عبر منذ لحظات .إن أشخاصا كهؤلاء يشغلون الأحياء لمتفرعة حول أحسن الفنادق وبعـــض الأمـــاكن الأخرى حيث يتجمع الأجانب عادة . ولقد أحسن إليهم كثيرا في الماضي ، وأجزل لهم العطاء ، حتى أن مواهبهم قد تحسنت وقويت ملكة الملاحظة والمراقبة عندهم إلى جانب نمو ذاكرتهم وقدرتها الفائقة على تمييز التفاصيل التي عادة ما يهتم بها البوليس السري.

- **أجهزة المخابرات الدقيقة :**

لم يشغل عبد الناصر منصب وزير الداخلية أكثر من أربعة أشهر . وقبـــل أن يتركها لخلفيته زكريا محي الدين ، أذكى وأمهر ضباطه ، والذي كان وقتئـــذ رئـــيس المخابرات العسكرية . نظم كلا من جهاز المخابرات والمباحث العامة ووضـــع كافـــة التفاصيل لهما . ثم أدخل عليها زكريا بعض التحسينات ووضعها قيد العمل. وقد كان قسم المخابرات العامة يقبع في قمة الهرم ( وقد أسس على غرار وكالـــة المخـــابرات المركزية الأمريكية) والحق به بعض الضباط الأحرار الذين كانوا تحت إمرة زكريا أثناء فترة ما قبل الانقلاب . ولم تقل أهميتهم بعد الانقلاب عنها قبله . ( ومنهم حسن بلبل وكيل وزير الخارجية للشئون الإدارية . وفريد طولان محافظ بور سعيد . وحسن التهامي السفير في النمسا سابقا. وسعد عفرة السفير في بولندا وغيرهم كـــثير ) . وبإتبـــاعهم الأساليب الأمريكية في هندسة الإدارة فقد بنوا الوكالة الجديدة على أنها الرأس والمهيمن المنسق . وبعدها المباحث العامة لوزارة الداخلية ثم مخابرات الجيش على أن يكون كـــل واحد متمماً للآخر وساعده الأيمن . وأخيراً أنشئوا ( النظـــام الخـــاص ) للمخـــابرات والتحريات المتصل مباشرة بالمخابرات العامة العليا. وكان بعض هذه الـــدوائر يخـــتص بالمسائل الخارجية مثل تدريب رجال حرب العصابات ، والتجسس علـــى إســـرائيل. وخطف العملاء المزدوجين ، الذين يعملون مع إسرائيل أو مع العربية السعودية . مخدرين في صناديق. من روما إلى القاهرة . وغير ذلك . ولكن أغلب تلك الدوائر كانت تهـــتم بمعالجة شؤون الأمنم الداخلية . وإلى جانب أجهزة " عيون المدينـــة " ، ذات الفعاليـــة الجيدة . فقد أضافوا إلى ذلك أدوات وطاقات علمية للمراقبة . كما أنهم اشتروا سلسلة كاملة من الأجهزة الاليكترونية صنعتها المنظمات الأمريكية للتجـــسس ومكافحـــة التجسس. واستعانوا بعدد من ضباط المخابرات الألمان النازيين ( وزاد عددهم فيما بعد ) ليدربوهم على استعمالها . ولكنهم غرقوا في طوفان من المعلومات والأخبار، وأضحى

تصنيف ذلك الاستفادة منه بطيئا جدا ، إن لم يكن بدون فائدة . وعندما أدركــوا أن مراجعة ومراقبة الأشرطة المسجلة يحتاج إلى وقت يساوي تماما الوقت الــذي اســتغرقه تسجيل المحادثات عليها مع كل التفاصيل المملة ، كان قد تكدس عندهم أكوما كــبيرة من الأشرطة — دون مراجعة — في أقبية المخابرات العامة ومباحث وزارة الداخليــة . ومضى وقت طويل حتى تعلموا كيف يهتمون بالخطير ويتركون الغث الــضعيف، وفي عام ١٩٦٠ أصبح لديهم من الوسائل ما يمكنهم من تركيب الميكروفونات الدقيقة في أي من الفنادق أو موائد الضباط ، في البيوت الخاصة أو السيارات الخاصة. في القــاهرة والإسكندرية كما أتقنوا التصنت على المحادثات في الشارع عن بعد . والتــصوير عــن مسافات بعيدة وفي الليل . ولكن بناء على إلحاح وزارة السياحة ولعقبات كثيرة مــن الناحية العملية ( مثل الوقت الطويل لمراقبة الأشرطة وقدرة المتــرجمين ) فقــد اقتــصر استعمال هذه الفنون على الحالات الخاصة والهامة وإلى حد يكفي للكشف عن مصادر الخطر على العهد الجديد.

- **وسائل الدعاية :**

كان موضوع الدعاية مجال خلاف كبير بين الأميركيين — وخاصة السفير كافري وإيخلبرجر — وبين عبد الناصر . فعبد الناصر نفسه لم يكن ذا ما عسكري عريق حتى يشكل عنصر دعاية . ولم يكن حتى ليدرك العقبات التي تعترض اتصاله بالشعب مباشرة .ولكنه بنفس الوقت أدرك حدود نشره دعايته في أوساط شعبه . كما أدرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ حين . وما يجب عليــه أن يتصف به من حذر وخبث تجاه الرأي العام الخارجي . فايخلبرجر (الذي كان يوما ما المسئول عن تنفيذ التقارير في أضخم مؤسسة للدعاية والعلاقات العامة في العالم والتي يملكها ( ج . والتر طمسون ) . قد توصل إلى أن الإنسان يجب أن يتقرب إلى غيره أو إلى الجماهير عن طريق مصالحهم هم وليس عن طريق مصلحته الشخصية .

ولقد اعترف عبدالناصر يومها بأنه جاهل بأصول التقرب إلى الجماهير المــصرية . ولكنه كان مقتنعا بأن ذلك يجب أن لايتم عن طريق مصالحه الخاصة. وكان يشك في أن يكون عامل التقدم الحضاري ذا نتيجة جيدة في تقرب الثورة من الجماهير .

وكوسيلة للقمع في الفترة التي كان فيها عبد الناصر يجمع قوى الانقلاب . كان التفكير مصبا على خط ثانوي . وهو مسألة مراقبة المطبوعات .وسرعان مـــا ثارت المشاكل بسبب انعداغم خبرة المراقب العسكري التابع لعبد الناصر — وهـــذا ما كان متوقعا . فقد أثار ذلك حفيظة المراسلين الأجانب لإيقاف رسائلهم وحذف كل ما يثير الشك من عباراتها . وكان ذلك في غاية الإزعاج للإمريكيين الأصدقاء الذين حرصوا على أن يكسب العهد الجدديد الصحافة إلى جانبه . وكان هذســـا مثبطا عزائم المراسلين المصريين الموالين لنا وذوي القدرة الكبيرة على صياعغة وسبك التقارير . فقد كانت مساعدتهم لنظام الحكم ضرورية لأبراز صورة الثورة جذابة ومشوقة للرأي المحلي . وللعالم العربي ، بل وللعالم كله .وكان هذا عمـــلا صـــعبا وعلى جانب كبير من الدهاء والخبث .

ولقد عولجت المسألة على الطريقة التي اعتاد أن يسلكها أي نظام من طراز نظام عبد الناصر فقد جرى تصنيف المراسلين الصحفيين في قائمتين : الأولى ، تحوي الموثوق بهم الذين سيرسلون تقارير لصالح الثورة ، والثانية ، تحوي الصنف المعاكس للأولى .وبناء على ذلك فقد أعطيت اللائحة الأولى مطلق الحرية وحرمت الثانية من أي منها . وانتهبت الحكومة إلى مشكلة المراسلين الأجانب الذين لم يتخذوا بعـــد مواقف صريحة من الثورة . فعمدت إلى الاحتفاء بهم . ومن ثم زودتهم بمعلمات لها تأثير لا بأس به عليهم ولصالح الثورة . وهكذا انقلبت قضية مراقبة النشر والصحافة إلى مسألة روتينية امتدت حتى الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٦٧ ، باســـتثناء

بعض الشطط العارض بسبب عدم كفاءة المشرفين عليها. وهكذا فلم تكن مراقبـــة المطبوعات جزءا من وسائل القمع عند عبد الناصر سوى مـــدة وجيـــزة وذلـــك لاتباعها بعدئذ القاعدة الروتينية المبينة أعلاه.

أما الدعاية الموجهة من قبل الكم' فقد كانت منصبة وبكثرة على أعـــداء النظام لكشفهم ، وتسليط الأضواء على مساوئهم ، ولتبرير الإجراءات التعسفية التي كانت تتخذ ضدهم ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك إقدام الأخوين على ومـــصطفى أمين ( اللذين كانا يملكان أضخم دار للنشر في القاهرة . أخبار اليوم ) على نـــشر إعلان وعدا فيه بتقديم المكافآت للذين يخبرون عن قصص الفساد في الحكم البائد أو في حياة البلاد السياسية . ولقد أتاحت هذه القصص للأخيون أمين وحسنين هيكل وغيرهم إغراق صحفهم بمثل هذه القصص الدراماتيكية . مظهرين شرور النظـــام البائد مع ذيوله . والحاجة إلى إجراءات قاسية لاستئصاله وطمس آثاره نهائياً.

وبارك الأمريكيون هذه الخطوات إلى الحد الذي دعا السفير كـــافري إلى إعارة النظام المصري أعظم الاختصاصيين في الدعاية السوداء والرمادية ( الدعايـــة البيضاء : مصدرها معروف وغالبا أحد الأجهزة الحكومية . ، والدعاية الرماديـــة : لا توضح أي مصدر . الداعية السوداء : تدل على أنها تنبعث من أي مصدر غـــير المصدر الحقيقي ، ويشترك هذا النوع من الدعاية مع عمليات الحرب النفسية السرية المغطاة . )

وهو " باول لينبارجر " الذي كان مسؤولا عـــن الدعايـــة في مكتـــب الخدمات السرية الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية . وكان يذيع ما كان يظهر أنه ألماني ولصالح الألمان ،ولكنه في الحقيقة كان مثبطا لعزائم الألمان ومحطما لهممهـــم ،

وقام لينبارجر بتعليم المختصين بالدعاية من لمصريين كيــف يقومــون بتحطــيم الشخصيات المحبوبة ( ومنها اللواء محمد نجيب على سبيل المثال ) بطريقة مــدحهم والثناء عليهم . ولا يزال هذا الأسلوب متبعا حتى اليوم من قبل الغربيين في ساسة العالم العربي.

- **الجيش :**

أننا في غنى عن القول أن الجيش المصري كان حصن عبد الناصر الحصين وقاعدة قمعه المنيعة .وقد تمكن عبد الناصر عن طريق تأكده من عدم وجــود أي شخص ذي طموح سياسي أو اتجاهات ثورية في مركز حساس ( أو في أي مركز على الإطلاق ) ، أما ضباط عبد الناصر ذوو الطموح السياسي المعــروف فقــد أخرجوا من الجيش وأسندت إليهم مناصب مدنية . أما شكلية أو مهمة . ولكنهم في كلتا الحانين أما أن يكونوا أهلا للمنصب الجديد أو أن يتحطموا ويظهر عجزهم عن الإدارة . أما الضباط الذين ما زالوا ينوون القيام بانقلاب جديد . أو أولئــك الذين أظهروا امتعاضهم لإقصائهم عن مراكز القيادة في الثورة .أو أولئك الذين ما زالوا يدينون بالولاء للنظام القديم . فق أعطوا الفرصة كي يتــآمروا ،وبالتــالي ليحكموا على أنفسهم بالإجرام أو أنهم كانوا يستدرجون إلى ذلك عن طريق بعض المحرضين المدسوسين ليعتقلوا بعد ذلك من قبل البوليس السري .

وبقى هناك الضباط الذين لا غبار على سلوكهم ، ويمكن أن يخــضعوا للنظام ويضمن ولاءهم عن طريق إرضاء رغباتهم . كمنحهم بعض الامتيازات لرفع مراكزهم وبعث الفخر في نفوسهم . إلى جانب بعض العلاوات والتسهيلات التي لا تضر وطالما أنهم غير ثائرين ضد علاقة عبد الناصر بأصحاب الفكــر واليــساريين وأشخاص آخرين غير مرغوب بهم ( أو بالأحرى طالما أنه لا يترك لهــم الوقــت

الكافي ليفكروا بمثل هذه المسائل ) فلا مانع من اعتبارهم قوة موالية يعتمد عليهـــا إذا ما دعت الحاجة لذلك .

وتجدر الإشارة هنا إلى وجهة النظر الأمريكية بخصوص اســتخدام عبـــد الناصر للجيش كقوة للقمع فهي تقول : عندما طلب عبد الناصر في الأيام الأولى من حكمه مساعدات عسكرية . لم يكن هناك أي بحـــث في في أ، تكـــون هـــذه المساعدات لأهداف قتالية عادية مثل قتال الإسرائليين أو اليمنيين أو غيرهم كما لم يكن هناك أي بحث في أن تكون كميات السلاح ضـــخمة أو فـــوق المتطلبـــات الداخلية المحضة . فلقد لضمان بقائه . وأنه يعتبر أي جيش رث الثيـــاب مهلـــهل المظهر جيشا تفوح منه رائحة العداء والتوثب . وقد طالب عبد الناصـــر في أيامـــه الأولى بأربعين مليونا من الدولارات كمساعدة عسكرية وما لبث أن اختصرها إلى عشرين مليون دولار . ثم مسخت إلى مليون أو مليونين من الدولارات لتغطي شراء أجهزة وأدوات للاستعراضات العسكرية كالخوذ وقرا بات المـــسدسات الجلديـــة وقطع براقة من مختلف الأنواع تكفي لإظهار الجيش بمظهر جميل عند استعراضه في شوارع القاهرة وبحيث تعكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخـــر . وكان تلكؤ وزارة الخارجية الأمريكية في الموافقة على منح مثل هـــذه المعونـــات المحدودة هو الذي دفع بعبد الناصر للاتجاه نحو السوفييت والحصول منـــهم علـــى مساعدات ضخمة تفوق الأربعين مليون دولار ( التي طلبها في البدايـــة ) مـــرات عديدة .

ولعلني أجد نفسي مضطرا للخروج عن موضوع هذا الكتاب وأذكر بعض الملاحظات حول دورنا في إدخال المستشارين الألمان إلى الجيش المـــصري . حـــتى تكتمل صورة مساعدتنا في استكمال وسائل القمع عند عبد الناصر .

فقد كانت الإشاعات الضخمة التي نشرها الحلفاء في الحرب العالمية الثانية حول قوة المخابرات الألمانية وعلمها بكل شيء . من قبيل خدمة أهدافهم ولكـــي يتظاهروا أنه ما من مواطن يختلي بصديق له ليتبادلا أطراف الحديث في أي مقهـــى كان حتى تكون المخابرات الألمانية قد التقطت حديثه وأبرقت ملخصه إلى مركزها في برلين .

ولقد شكت المخابرات البريطانية والأمريكية وقتئذ ( وتأكد هذا فيما بعد ) بأن يكون للمخابرات الألمانية وجود حيوي كشبكة واسعة الانتشار.

ولكنها كانت موجودة على مستوى بعض العمليات معتمدة على بعــض كبار الموظفين الغربيين المدسوسين والذين كانوا يــستخدموها لتزويــد بــرلين بالمعلومات المضللة الزائفة .وكنتيجة لدراسات عميقة ومتعبة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثاينة ة. فقد ثبقت لدينا بالتاأكيد أن العملية الوحيدة التي قام بهــا الألمــان للتجسس في الغرب هي العملية الشهيرة باسم " سيسيرو " الذي سرق الأسرار من الصندوق الحديدي للسفير البريطاني في تركيا .ولكنها لم تكن ذات أهميــة لمقــر الأركان في برلين . لكثرة الأخبار المتضاربة التي غطت على هذا التقرير الصحيح . والتي كان يرسلها لهم عملاؤهم الذين كانوا تحت نفوذ الأمريكيين والبريطانيين . وكان ازدراؤنا للمخابرات الألمانية يشاطرنا إياه عدد غير قليل من ضباطها أنفسهم وقد قام العديد منهم بعقد صفقات مع عملاء مخابرات الحلفاء عنــدما شــعروا ا بانتهاء الحرب وإن كان بعضهم قد فعل هذا قبل انتهاء الحرب بكــثير . كمــا أن عددا آخر من الذين لم يفكروا بالتعامل مع الحلفاء أبدا قد وطدوا أواصر الــصداقة مع بعض الحلفاء وبالتالي فقد حصلوا على عناية خاصة قبل فوات الأوان . ولكــن مع وجود أشخاص مرموقين في الولايات المتحدة وبريطانيا ( ولا نذكر فرنــسا او بلجيكا أو هولندة أو حتى ألمانيا نفسها ) متعطشين للدم النازي ، فإنــه لم يكــن

هناك ضابط أمريكي أو بريطاني واحد يتمتع بعقل " موزون " يتوقع منه أن يدافع عن أي من النازيين السابقين على أساس أنه كان ضابط مخابرات أو — على الأقل - أنه مفيد كعنصر في المخابرات في حرب مقبلة مع الاتحاد السوفييتي . وعندما قام السوفييت باحتجاز أحسن الأدمغة الألمانية ( وكان بعضها من النازيين المتــزمتين الذين أقسم الروس على الانتقام منهم ) ولم يفرطوا بأي منها . لم يعد ا/انا — نحن الأمريكيين — إلا إدخار كل ما كان متوفرا لدينا من الألمان الذين لم تعرف عنــهم ميول نازية . وقد عبر عن هذه الحقيقة أ؛د عمداء المخابرات الأمريكية في الفـــرع ح_٢ قائلاً " ثق تماما أن بعضنا لا يزال يضع مصالح أمريكا في المستقبل فوق لذة الانتقام " ولو قال هذا علنا فإنه كان سيطرد من الخدمة حتما .

وعلى أية حال . فإن وزارة الدفاع ( ولربما بالاشتراك مع وزارة الخارجية ) كان متوفرا لدياها ( ما بين ١٩٤١- ١٩٤٧ ) بعض الألمان الذين لم يكونوا من مجرمي الحرب ، ولحسن حظنا فقد تمكنوا بأقل ما يمكن من الإحراج والانزعاج أن يختفوا في دل مختلفة .وتمكنوا من مزاولة أي عمل لـــسب معيـــشتهم بـــدون أن يظهروا علانية . ولقد بذلنا جهودا كثيرة نقلب أضابيرهم محالين الكـــشف عـــن بعض المواهب للاستفادة منها في الولايات المتحدة أو في غيرها من بلدان العـــالم ( كما استفدنا من وارنر فون براون عالم الصواريخ الشهير في هونستفيل في ألاباما ) . وقد أثمرت بعض هذه الجهود في الوقت الذي طلب فيه عبد الناصر مـــساعدات خارجية لجهاز مخابراته ودوائر أمنه . وكانت حكومتنا تجد حرجـــا في مـــساعدته مباشرة ولأسباب تتعلق بسياسته فقد ألح ناصر على طلب خبير عـــسكري يـــتقن إدخال النظام البروسي إلى جيشه الحديث واقترح الملحق العسكري الأمريكي اسم الجنرال " ويلهام فارمباشر " الذي كان يجد صعوبة في العودة إلى ألمانيا لميوله النازية السابقة . كما أن فقدانه لأية مواهب خاصة تتناسب ورتبته العالية لم تجعـــل منـــه

شخصية مرغوبة في أي مكان آخر . إلا أن جرأته التي ذاع صيتها في الحرب العالمية الثانية قد جعلته مؤهلا للاضطلاع بمسؤوليات كتلك التي كانت في مصر يومها — على حد رأي بعض ضباط المخابرات الأمريكية . ( وهذا ما حدث فعلا . فقــد كانت اولى مناورات الجيش المصري تحت إمرته . ولكن لم تحظ القوات " الخضراء " بالقوات " الحمراء" طيلة المناورة في الصحراء . وكانت التعليمات والأوامر معقدة لدرة أن القوات لم تتمكن من ملاحظة الخطأ ) . وعلى كل حال فقد كان ذا رتبة عالية جدا مما نال إعجاب عبد الناصر وزادنا حظوة عنده . وبعدها كانت قصة " أوتوسكورزني " الذي اشتهر بخطفه لموسوليني من معتقله الحصين .وكان أوتو من المفضلين عند الهيئة الأمريكية للعمل ضد مخابرات الأعداء وقد أقام صداقات قويـــة مع الذين أسروه قبل أن يفلت من قبضتهم ، وكان من المعتقد أنه يصلح للسير مع عبد الناصر من ناحية طباعه وشخصيته . وجرى الاتصال معه روتينيا . ثم علـــى مستوى أعلى .وبعد ذلك عن طريق زيارة شخصية قــام بهـــا لـــواء في الجـــيش الأمريكي له . وأخيرا بواسطة والد زوجته الدكتور هجالمر شاخت . وزير ماليـــة هتلر . ومع أنه كان قد فقد شغفه في أعمال المخابرات والأمن وكان يدير أعمالا أكثر ربحا . فقد وافق أخيرا على زيارة مصر ليقف بنفسه على مدى مـــا يمكنـــه تقديمه في زيارة قصيرة . ومهما كانت النتائج فقد قيل ( وهذا غير صـــحيح ) أن سكورزني مكث في مصر عدة أشهر كمساعد لعبد الناصر للـــشؤون العـــسكرية ولشؤون الجغرافيا السياسية . إلا أن طول المدة التي مكثها سكورزني في القاهرة قد أثارت موجة اتهامات ضد نظام عبد الناصر وأظهرته على أنه يدار خلسة من قبـــل نازيين متعصبين . ولم يكن باستطاعة سكورزني مغادرة مصر بسرعة تخفف مـــن حدة الهجوم على ناصر . ألا أنه أخيرا عاد إلى مزرعته التي اشتراها في إيرلندا وم ثم ألتحق ثانية بمقر عمله في شركة هندسية في إسبانيا كانت تدر عليه ربحا وافرا.

وقد فكر سكورزني بشيء من الإخلاص بإرسال حوالي مائة من الألمـــان إلى مصر كانوا سبب الضجة المعادية لناصر يومها . وحقيقة هؤلاء أنهم : كانوا — باستثناء واحد أو اثنين — من ذوي المناصب المتواضعة . ولم يكونوا من النـــازيين المتزمتين بدليل سرعة تأقلمهم مع التفكير الساري لحكومة ناصر وقد اضطرتهم لهذا حاجتهم لكسب عيشهم وليس غير ذلك. لم يحاول المصريون الاعتمـــاد علـــيهم رئيسيا بل أكتفوا بسماع بعض نصائحهم كما كانوا يعـــاملونهم بـــشيء مـــن اللامبالاة وخصوصا عندما يضطر أحد الألمان الانتظار لـــساعات لمقابلـــة أحـــد المسؤولين المصريين للإدلاء ببعغض النصائح أمامه . ، لم يدفع المصريون أية مرتبات مغرية للألمان على عكس ما كانوا يدفعونه للخبراء من الجنسيات الأخـــرى مثـــل البريطانيون والأمريكيون . فالجنرال فارمباشر( كمثال ) لم يكن يتقاضى أكثر مـــن خمسين جنيهاً مصريا في اشهر إلى جانب بيت قريب للـــسكن . في حـــين كـــان يتقاضى بعض المستشارين الأمريكان أكثر من ٥٠٠ جنيه شهريا إلى جانب مسكن فخم وسيارة مع سائقها . وقد بذلك سكورزني قصارى جهوده لخدمة عبد الناصر تحت تلك الظروف . ولا يزال على علاقة وطية به إلى يومنا هذا ( كان ذلـــك في فترة الستينيات ..ملحوظة للمعرب) .. كما أن له علاقات حسنة مـــع أصـــدقائه الأمريكيين الذين كانوا وراء استدعائه إلى مصر . هـــذا وتجـــدر الإشـــارة إلى أن سكورزني قد برئت ساحته من أية تهمة بارتكاب جرائم حرب.

والحق يقال إن عبد الناصر و زكريا ، بالرغم مـــن كـــل المستـــشارين الأجانب قد بنيا أجهزة المخابرات والأمن بدون أية مساعدة خارجية تذكر. وعغلى حد زعم أجهزة المخابراتالغربية — عن طريق تسللها إلى هذه الأجهزة - إن هـــذه الأجهزة تتمتع بكفاءة عالية وافية بالغرض.

وأخيرا : فبالقوانين والمراسيم ، وبالبوليس وأجهزة المخابرات ، وبالدعاية والجيش ، شكل عبد الناصر قاعدة للقمع تمكنه حقا من حكم مصر بنفس الطريقة التي حكم بها بابا دوفاليه جزيرة هايتي – دون أن يستعمل كل تلك الوسائلدفعة واحدة . وقد أعطته مركزا قويا يستطيع أن يصدر منه أية قرارات إيجابية بدون أن يخاف ويخشى أية انتفاضات شعبية . ولقد قيل الكثير عن اتبـــاع عبـــد الناصـــر للأساليب البوليسية في الحكم والإدارة مثل منع ممارسة حرية الرأي والتعبير ،ولكن الحقيقة أن عبد الناصر لم يفعل أكثر من التخلص من بعض الصحف التافهة الـــتي اعتادت أ، تستقي أخبارها من الأذان البريطانية والإسرائيلية . ولـــذلك لم تـــشعر طبقات الشعب المتوسطة أنها قد سلبت أية حرية من حرياتها بتصرفاته تلك . أمـــا المصريون أعداء عبحد النصر فهم أعداؤه سواء منحهم أية من هذه الحريات أم لا . وعلى هذا فإنه سيخسر بعقد أية صفقات صلح أو مساومة معهم ، ولن يـــربحهم إطلاقا.

وكان أمرا محرجا وكريها للمراقبين الغربيين أن يروا حجـــز الممتلكـــات واعتقال الناس لمجرد الشبهة ، مع تكميم الصحافة ومعاملـــة المراســـلين الأجانـــب برعونة وفظاظة . ولم تكن هذه الأعمال محببة إلى نفوس أصدقاء عبد الناصر الذين كانوا في السلك الدبلوماسي .وكان لهم علاقات اجتماعية متـــشعبة مـــع طبقـــة المصريين المروضة ( البورجوازية ) والتي عانت الكثير .. ومن جهة أخـــرى فـــإن إجراءات عبد الناصر في الشدة والقمع – بغض النظر عـــن مظهرهـــا أ/ام العـــالم الخارجي – كانت تخطط بهدوء ولم تكن لتتخذ اعتباطا. وهذا يعـــني أن عناصـــر محدودة هي التي عانت من ذلك وليست عامة الشعب . وقد كان عبد الناصبر يبرر أعماله القمعية بحجة ( الدفاع ) عن النفس تماما كما يفعل اليهود بمنعهم الثيئـــات غير اليهودية من العمل في بلادهم . وكان يعتقد بضرورة إخضاع الفرد إلى الدولة

في جميع مظاهر الحياة وإن كان لابد من الاعتراف بالحقيقـــة أن هـــذه الـــسيطرة ستمارس بنفس التخلف الذي تدار به شؤون الدولة الأخرى . كما أنه من طبيعـــة الأشياء أن يكون البوليس في بلد شرقي أكثر غباء من أمثاله في الدول الغربية.

ومن جهة أخرى فلا مانع من القول بأن المصريين قد حصلوا على نتائج أفضل فيما يختص بقضايا الأمن ، وبتباه وعجرفة أقل من الـــسائدة في بقيـــة دول الشرق الأوسط . ومع مرور الأعوام فقد حافظ عبد الناصر على وسائله في القمع بشتى الطرق . مع أن الناظر العديم الخبرة لمن يراها من وقت لآخر إلا ألغازا محيرة . وذلك أن عبد الناصر كان يدفع إلى المسرح عملاء جددا ذوي أهداف وغايـــات تظهر بأنها للقمع .ولكنها كانت انتهازية ميكافيلية مثل " بوليس ضـــد الإقطـــاع" ومحققي الاتحاد الاشتراكي العربي وغيرهم من الذين كان يحركهم ضـــد بعـــضهم البعض ليحصل على فوضى منظمة ومحسوبة . في الوقت الذي يريده ويحتاجـــه في سياسة العنف والشدة .

أن أهم ما يجب أن يفهمه المراقب الدبلوماسي من أسرار تصرفات

**وسائل القمع عن عبد الناصر هي :**

أولا: بالرغم من بعض المظاهر الآنية المعاكسة ( مثل أخبار الاحتكـــاك بين عبد الناصر والجيش ) فإن وسائل القمع كانت دائما على أهبة الاستعداد . ولها المقام الأول في اهتمام عبد الناصر واعتنائه . كما أن كثيرا من تحركات عبد الناصر على المسرح العالمي . من التي اعتبرا المراقبون الأجانب مخالفة للمـــزاج المـــصري . تفسر على أنها إحدى حاجات عبد الناصر للاحتفاظ بوسائل القمـــع في داخـــل بلاده.

ثانياً: وبالرغم من أن كثيرا من الرسميين الغربيين الذين يكرهــون عبــد الناصر قد هاجموه ونعتوه بأنه ديكتاتوري فاشيستي (وكان معظمهم من المـسئولين في الحكومة الأمريكية والبريطانية ) إلا أنهم كانوا على علم تام بكل خطواته عندما كان يبني وسائل القمع وأجهزته متجاهلين عمدا كل تصرفاته في هذا المجال.

***

وفي كتابه"مصر الجديدة وعبد الناصر" ، يشرح " كيث ويـل لـوك " وجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجهة نظر يعتبرها ممثلة لوجة نظر المـراقبين المطلعـين في الخارج في الثورة المصرية . وفيها يشيرإلى ذاك التردد " الذي كان يتصف به عبـد الناصر، كما يشير إلى "تذبذب " مجلس قيادة الثورة الظاهر بين النظـام البرلمـاني والدكتاتورية العسكرية . ويتأسف ويل لوك على تلك المبادئ التي هجرتها حكومة الثورة في مصر بعدما رفعتها عاليا وانتهى أخيرا إلى أن أي مؤرخ يحاول أن ،يدون تاريخ تلك الفترة المضطربة في مصر سيكون معذورا إن كال لعبد الناصر وجماعتـه القذف والاتهام..

إلا أن الحقيقة لم تكن كذلك . فلقد كان عبد الناصر أبعد ما يكون عن التردد والتقلب طوال تلك الفترة.

وإن تذبذبه الظاهر بين الحكومة البرلمانية والدكتاتورية العـسكرية كـان موضع دراسة عميقة وعناية فائقة من قبل الرسميين الأمريكيين وغيرهم من بعـض الشخصيات المدنية الشهيرة بميولها الليبرالية. ولكنهم كـانوا كلـهم ينظـرون إلى الأوضاع في مصر نظرة واقعية وقد أدركوا أنه لا طريق آخر أمام عبـد الناصـر

ليسلكه غير هذا الطريق .وأن أية محاولة مبكرة ( وقبل أوالها) للعـودة إلى تلـك المبادئ التي نادي بها الضباط الأحرار سابقا سوف تنتهي إلى فوضـى واضـطراب كاملين .وإذا كنا لم نشارك ناصر فعلا في انقلابه وفي توطيد سلطته وفي بناء وسائل القمع في بلاده . فذلك يعود إلى رفض ناصر لمساعدتنا له فيما عدا بعض النصائح التي كانت تهم الطرفين معا . كما أننا لم نبد أية شكوى من سلوك ناصر مـسلك الديكتاتورية ، لأننا كنا نعتقد أنه سيشرع في أول فرصة مناسبة في إيجاد الظروف الملائمة التي اتفق عليها مع روزفلت كمتطلبات ضرورية لإعادة الحياة للديمقراطيـة الحقة وهي : محو الأمية . وتقوية وتوسيع نفوذ الطبقة الوسطى ، وانتشار الـشعور عند الشعب ان الحكومة منه وإليه . ورسوخ الأفكار والقيم الوطنية حتى يصبح من السهل قيام مؤسسات ديمقراطية وطنية وليس مجرد تقليد أعمى لما هو في الولايات المتحدة أو بريطانيا . وبغض النظر عن كيفية نمو وسيطرة وسائل القمع ، فعلينا أن نقر في تعاملنا مع ناصر أن وجودها مهم بالنسبة لبقائه . ويجـب ان لا تعترينـا الدهشة عندما نرى أن عبد الناصر وضباطه جلسوا بع أشنع هزيمـة في التـاريخ العسكري الحديث ( حرب ١٩٦٧ ) لا ليتباحثوا في طريقة إعادة بناء مصر من جديد بل لينسقوا خططهم حيال طريقة إعادة الثقة إلى الجيش . وسـتبقى هـذه الفكرة ذات المترلة الأولى في التفكير المصري ولسنوات طويلة مقبلة .

***

# الناصرية والإرهاب

**(ولن يلين عودهم ويضموا إليك حتى تجعل حياة خوارجهم شقاء وضجراً)**

أمشيت الهزيع الأخير من عام ١٩٥٦ ، وأوائل عام ١٩٥٧ ، منهمكا في شرح أفكار ناصر ا/ام مجموعات عديدة من الرسميين الأمـــريكيين ، باســطا لهـــم متاعبه ومشاكله . ومعلقا عليه بنفس الطريقة التي كان هو نفسه يـــود أن تعـــرض شؤونه بها أمامنا . وكنت أنفق الساعات الطوال في مكتب الوزير دالـــس . أو في مكتب وكيله هربرت هوفر . بغية ضم جهودنا معا في محاولة لتحديد معالم أبعـــاد ردود الفعل التي كنا نتوقع أن بصدر عن ناصر ، ردا على بعض الإجراءات الـــتي كانت الحكومة الأمريكية تنوي اتخاذها ، ولم أكن أواجه أية صـــعوبة في شـــرح سلوك ناصر ، عساه يكسب بعض عطفنا وينال شيئا من رضانا. إلا أنني لم أنجـــح في تبسط سائءر نواحي سلوكه ، وأخفقت في شرح إحداها ، كنا أخفقـــت في عدم إثارة حفيظة زملائي ورؤسائي كلما حاولت ذلك ثانية . ولقد أخبرت مـــرة أن أحد كبار الرسميين في وزارة الخارجية قد ألتفت إلى جاره بعدما غادرت أحد تلك الاجتماعات الهامة التي كان يدعوني إليها الوزير دالس إلى تمثيل دور ناصر في " لعبة الأمم" — وقال له ك " إنني لا ألتق بذلك الإنسان- أي بي — فإنـــه يـــتكلم بإلحاح واهتمام أكثر من ناصر نفسه .. وفي مناسبة أخرى ألتفت إلى آلن دالـــس ( مدير وكالة المخابرات المركزية ) وقال لي : " إذا حاول بكباشيك أن يحـــشرنا في

الزاوية فلن نتأخر في شطره نصفين" ولا أظن أن إنساانا على وجه البسيطة يفـــوق آلن دالس في فهم وتطبيق أحد مبادئ التحليل السياسي القائل : " ضع نفـــسك في مكان الاخرين " ، ومع ذلك فلن يتمكن آلن نفسه من طرق ومعالجـــة أي مـــن مشاكل ناصر دون أن يثور ويغضب ، وذلك لأنها حقا " مصدر غيظ وإزعاج".

كان " اقتران الناصرية بالإرهاب ، وتلازمها به . منضدر تعب لنا وقلق ، أقض مضاجعنا . دون أن نجد سبيلا لفهمه أو تحليلا لدافعه. فالأمريكيين يفرون من الإرهاب.ويكرهون سماع أخباره . متناسين أن تحركات الغرب ضد اتلمترمدين من زعماء آسيا وإفريقيا لا تعرف غيره غاية وسبيلا . ولكن ما العامل ؟ فناصر نفسه يمتدح العنف وأساليبه، ويدعو لها جهرا بافتضاح . ففي داخل بلاد ناصر وأراضيه يسود القانون ويعم النظام ، وفي خارجها لا تجد لهذا داعيا ولا ســببا . فإذاعـــة القاهرة تحض علنا على إشعغال الفتن وإحداث الإضطرابات المدنية في البلاد – كل البلاد- التي يسوسها زعماء معارضون له أو يحكمها رج=ال يأبون أن يكونوا مطية له .ولا تجد إذاعة القاهرة أحيانا أي حرج في توجيه الدعغوات علنا لإغتيال الحكام والرؤساء. وكانت نتيجة كل هذا وذاك إشمئزاز رجال السياسة الإمريكيين من هذه الاستفزازات . وقلق الدبلوماسيين ورجال المخابرات من هذه الحماقات . وأعمال الطيش والجنون .

إلا أنه لا يستبعد وجود تفكير ذكي خلاف ارتكاب ناصر لأعمال العنف والإرهاب . فهو يحاول أن يظهر على أنه زعيم " كتلة " ، ولكمنه مضطر لمقاومة المنشقين عنه ولاستخدام العنف للبطش بالخارجين عليه الورافضين دخول " كتلته " ، وله ذلك . فاتحادات العمال لا تملك أن تصبح قوة فعالة دون أن تضمن "وحدة

الصف" و ويلتزم قادهما " بوحدة الهدف " ، والمتمردون في مثل هذه الظــروف — مهما قل عددهم وضعفت قوهم — يفسدون جهود الغالبية . ويحيلون قوهمــا ض
عفا ووحدهما افتراقا . وهكذا يتصرف ناصر . فبالعنف وحده يعامل الخارجين عليه كما يعامل زعماء اتحادات العمال ( في الولايات المتحدة .ولا أظن ذلــك ) المتمردين عليهم . بل أن ناصرا أشد بطشا منهم وأكثر تنكيلا . وما مرد الفارق في الشبه إلا إلى تلك الفوارق بين المجتمعات.

ومن الصعب التسلم بإن الإرهابيين يجيدون فن العنف أكثر مما يجيده شعب وديع ألجأته ظروفه إلى تبنيه كسبيل للنجاة . وفي الوقت الذي لا يلعب الإرهابيون أي دور رئيسي حتى في أسوأ المظاهرات التي تحدث في أمريكا. فإنهم يفوزون بحصة الأسد منها في البلاد " المنشقة عن ناصر . وقد أطلق المشرفون عهلـــى النـــشاط السياسي الناصري لقب " المتعصبين " على هذا النوع من الإرهابيين.

وفي قاموس السياسة الناصرية ، فإن كلمة " المتعصب " ترمــز إلى ذلــك الإنسان الذي أنكر ذاته في سبيل المبدأ الذي أعتنقه . وكرس حياته للوصـــول إلى الهدف الذي ارتضاه . مهما كانت المشاق وبلغت المصاعب . وبالتعريف فــإن " المتعصب " هو الخاسر دوما . ولكنه دائما يستخدم سلاحا في أيدي أولئك الـــذين يعيشون للأهداف نفسها، ولكن " دون تعصب أو تزمــت " . ويـــدفع ناصـــر باستمرار أمثال هؤلاء" المتعصبين " إلى خوض غمار المعارك تلو المعـــارك . مهمـــا كات الخسائر جسيمة وخرجت عن حدها المألوف. حتى يحبط مساعي " المنشقين" عنه ويقنع " الخارجين " عليه بالإنضمام " للكتلة " .

وبعبارة أوضح . فلعبة " المتعصب " شبية جدا بلعبة " التشكن " أو الفرخة " ، فلسان حال المتعصب يقول " إنني أعلم علم اليقين أنني لن أذوق طعم النصر . بل قد أموت . إلا أنني لن أكون وحيدا ، فستكون معي حتما إن لم تكن قبلي " .

ولاعب مثل ناصر ، لا يملك من الموارد إلا أقلها . لن يتلكأ في اســـتغلال أولئك " المتعصبين " ، لقد أثبت التاريخ . مرارا وتكرارا ، أنه بهذه الطريقةو دون سواها تتمكن الأقلية من فرض إرادتها على الأكثرية — مهما بلغ تعدادها وقويـــت حجتها. إن كان لها حقا أية حدة لتدفع بها عن نفسها — وتنال منها ما شـــاءت من التنازلات . وكلما زاد ضغط الأغلبية على المتعصبين ، وتصاعد إضطهادها لهم . فإنهم عاجلا أم آجلا سيندفعون في أعمال شغب وعنف ، غير مكترثين بالنتائج ولا مبالين بالعواقب ، غير أن ارتباطهم بقيادة " غير متعصبة " سجعل منهم سلاحا ذا مرونة ودهاء .وعندها يمكن إيقافهم فجأة ، ولو قبل الانتحار بقليـــل ، وهـــم يتقنون التصنع ، فلا تلمس منهم إلا رغبة صادقة أصيلة بالوصول إلى حد الانتحار ، ويضيع على الخصم معها معرفة ما في قلوبهم حقا: هل سيقعون فجأة ؟ أو هل في نيتهم أصلا أن يقفوا فجأة ؟ أم أنهم ماضون ولن يعودوا أبدا ؟ وغالبا ما يمكن تزيين ذلك الهذيان الذي يتفوهون به وتحسينه.، حتى ليغدو كلاما ومنطقا مقبـــولا. بـــل ويتراءى لهم كأنه شعارا أخلاقي سام . وكلما أمكن عزل الحركات المتزمتة عـــن المفكرين والمتفوهين ، ومن الاحتكاك المباشر بالصحفيين ، فإن هـــذه الحركـــات تصبح من أحسن وسائل التأثير على الجماهير ، وإن هؤلاء " المتعصبين " ليسوا أكثر من " مجموعة رجال بواسل ، يكافحون في سبيل أهـــدفهم ، وضـــد الاضـــطهاد والاستبداد " ، إن قيمتهم وهم أ/وات لا تقل أحيانا عن قيمتهم وهم أحياء ، إنهم يتساقطون رغم أنوفهم في أروع صورة وأجمل مشهد.

وليس من الصعوبة بمكان ، توفير مثل هذه العناصر المتزمتة . ففي أي بلد يسوده الحرمان ويتفشى فيه اليأس ، تعشش هذه العناصر المتعصبة وترتع فيه وتمرح، ويملأ نفوسها التزمت ، ويجيش في صدورها الحقد والكراهية ، وتهدر وتزأر وهـــي تنتظر انبعاث " المهدي " من مرقده ليوقظها. ويأخذ بيدها إلى شـــاطئ الكفايـــة والكرامة ، وتهدف الأفلام الغربية في دور السينما وعلى شاشات التليفزيـــون ، إلى تثقيف الشباب وتوجيههم إلى استخدام العقل وعدم اللجوء إلى العنف ، كمـــا يلقنون الاشمئزاز منه ويرغبون بالوسائل المريحة التي قدمها لهم القرن العشرين .

إلا أنهم سرعان ما يدركون أنه لا حاجة لاستعمال عقولهم . فكل مـــا يتقاضونه — إن هم التحقوا بعمل شريف أو زاولوا مهنة كريمة — لا يعادل إلا جزءا بسيطا مما تتطلبه حياتهم على الطريقة الغربية . وكما تعرضـــها الأفـــلام وبـــرامج التلفزيون . لقد ترعرعنا — نحن الأمريكيين — في مجتمع يعتقد أن كل إنسان — وإن كان متوسط الذكاء بإمكانه أن يصبح رئيس مجلس إدارة شركة ( جنرال موتورز ) وإن كان أصله فلاحا أو مزارعا . وكمل ما يحتاجه هو أن يتمتع بالكفاءة اللازمة لشق طريقه بنفسه ، وأن يملك التصميم على التمسك بمبدئه مهما كانت الصعاب .ولقد جرت مناقشات بيني وبين عشرات من شباب الشرق الأوسط ، واقتنعـــت أنهم جميعا — باستثناء بعض المحظوظين — قد قضي عليهم أن يعيشوا طوال عمرهم دون أن ينالوا شيئا ، لا حتى ما لقنوا إياه . ولم يبق — مع الأسف — سوى طريـــق واحدة مفتوحة أمامهم ألا وهي طريق التضحية بالمصالح ، والارتبـــاط بأهـــداف مقدسة ضد أشياء محددة معينة . وهكذا فإن هذه الطريق هي أحـــسن طجريـــق لتصريف المشاعر السلبية المكبوتة . مثل الشعور بالخيبة والإحساس بالحرمان .

إن حقيقة اعتناق الحركات المتزمتة لأهداف ثابتة محددة ، تعمـــل لهـــا ، وتناضل في سبيلها ، تجعل منها عنصرا غير مرغوب به في أي بلد ما ، وخصوصا إذا كان من بين تلك الأهداف إسقاط انظام الحكم نفسه ، كما كانت الحالـــة أيـــام حكم ناصر الأولى . إلا أن الحركات المتزمتة تصبح ذات فائدة ضخمة إن أمكـــن تسخيرهخا لخدمة أهداف ما في بلد آخر . كإسقاط نظام حاكم ما ، أو الـــضغط على سياسة زعيم آخر . ومن السهولة بمكان إقناع " المتعصبين " بفـــساد النظـــام السائد في بلدهم وغرس الكراهية له في نفوسهم ، مهما كـــان شـــكله ونوعـــه ، فالجماهير المحرومة واليائسة لا تنظر إلى الأمور كما يجب أن ينظر لها . في هذه الحالة فإن نظام الحكم يشكل هدفا مناسبا في حد ذاته ، وكان ناصر يسلك هذا المسلك فيكشف عن تقصير أنظمة الحكم المتمردة عليه ، ويفضح أخطاءها حـــتى يعجـــل في إسقاطها وزوالها. و لم تكن هناك ضرورة لاقتراحخ وسائل معينة للمعالجة ، وإنمـــا كان يكتفي بإطلاق شعارات عامة مثل " القضاء على الاستعمار " الذي لا يشكل إغراء للمتعصبين فحسب ، بل أنه منيع لا يناله نقد ولا يطاله تحليل .

وأخيرا نصل إلى جحوهر التكتيك الناصري في محاربة المتمـــردين علـــى مؤسسة " ناصر " ، إن المتعصبين لا يحتاجون البتة إلى توجيه محدد وأسلوب منظم ، وإنما يكتفون بأن تنير لهم الضوء الأخضر ، حتى ينطلقوا في تنفيذ مهمتهم وإنجازها . لقد اعتاد الأمريكيون والبريطانيون – وإلى حد ما السوفييت أنفـــسهم – علـــى إتقان النخطط المفصلة والتفنن في أسلوب تنفيذها عندما ينوون الإطاحة بأي نظام حكم ، فإن كان هدفهم القيام بانقلاب عسكري . فإن سلسلة العمليـــات الـــتي تؤدي إلإليه يجب أن تكون دقيقة التنظيم واضحة المعالم وكأنها عمليات عـــسكرية محضة . ( وعلى سبيل المثال ، فإن العملية التي نفذت ضد " مصدق " في إيـــران ،

كانت تتطلب من ساعتين إلى ثلاث ساعات من الحصص المدرسية لشرحها مـــع الإستعانة بالخرائط ، وتفاصيل مراكز القوة .وطرؤيق تحويل وتنظيم هذه القـــوى ، وغير ذلك ) ، وأما في حالة استخدام الحركات المتعصبة بالطريقة التي اســـتخدمها ناصر بها . فإن كل ما يجب فعله هو تهيئة المسرح عالميا ، ثم إصدار الأوامر لإذاعـــة القاهرة بالهجوم على الهدف المحدد ، وزمن ثم اعتماد أكثر الحركات المتعصبة تحمسا للهجوم ، بعد تزويدها ببعض الأسلحة والاحتياجـــات الأخـــرى ، ثم تـــركهمخ وشأنهعم لإنجاز المهمة وإتمامها ، والدافع الوحيد لأهتمام الإنـــسان بمثـــل هـــذه المخططات ، هو لمعرفة نصيبها من النجاح ، والوقوف على الطريقة التي لا يمكـــن لجماعة المتعصبين بدونها المحافظة على أي نصرل يحرزونـــه في أي مـــن الأقـــاليم الخارجة على السياسة الناصرية.

ولا مانع من أن نستعرض هنا ملخصا للإجراءات النموذجية التي يتبعهـــا ناصر في محاولته للإطاحة بأنظمة الحكم المتمردة عليه :

أولا: تبدأ إذاعة القاهرة بالهجوم على نظام الحكم لاصقة بـــه الاتهامـــات الكافية لإثارة بعض الجماعات المعصبة . متجنبة توجيه الاتهامات التي لربما تكـــون موضع إحراج لناصر في حالة نجاح الضربة،

ثانيا : محاولة دراسة ردود الفعل لحملة الدعاية السابقة عسى أن يتعرف ناصر من خلالها إلى المتعصبين أو إلى الحركات المتزمة التي يمكنه الاعتماد عليهـــا حال بدء العمل .

ثالثا : محاولة الاتصال بالمتعصبين ، وغالبا ما يكون هناك عـــدة فئـــات تتنافس مع بعضها البعض ، ثم يتم تزويدهم بالسلاح ، ويحدد ناصر بالـــضبط مـــا يمكنه الحصول بعليه من مخططاتهم .

رابعا : محاولة التعرف إلى بعض العناصر الملائمة ، البعيدة عن التعصب ، والتي يمكنها أن تتسلم القيادة في اللحظة المناسبة ( أما قبل الإطاحة بالحكم أو بعده ) لتستفيد من المكاسب والمنجزات ، ثم يحاول ناصر ، عقد اتفاقات معهم ، تضمن له إنضمام ذلك البلد إلى " جمعيته أ، كتلته ، إلى جانب جملة أهداف أخـــرى . كما يعدهم ناصر بتأمين الاعتراف بنظام الحكم الجدديد فور نجاح الانقلاب مـــع استمرار تأييد إذاعة القاهرة له .

إلا أن هذا المخطط لا يخلو من وجود خطأين خطيرين فيـــه ، أولهمـــا : أنالقيام بسلسلة عمليات كالسابقة الذكر ، سلاح ذو حدين ، فمـــن الـــسهل أن تبدأها ولكنه من الصعب أن توقفها .وثانيهما : أن وجود عناصر غير متعـــصبة في مثل تلك العمليات — وهم غالبا ما يتحلون بسلوك انتهازي . كناصـــر نفـــسه — سيشكل حجر عثرة في سبيل ضمان إتمام الصفقات المتفق عليها معهم . ومن أبرز الأمثلة على الخطأ الأول هو التراع السابق الذي وقع بين ناصر والملك حـــسين في الأردن. فعندما قرر الملك حسين الانصياع لناصر ، وقال له بالفعل " إنـــني قـــد وافقت على ما تريد " ، لم يكن عندئذ لدى الأخير أية طريقة لإعادة الأمـــور إلى نصابها وكبح جماح فئاته المتعصبة ، ويعطي الانقلاب العسكري في العـــراق ســـنة ١٩٥٨ مثالا واضحا على الخطأ الثاني . فزعماء الانقلاب ما كانوا ليقوموا به لولا التشجيع المصري ووعد ناصر لهم بمنحهم بركاته ، وبركات كل الأطراف الملتزمة معه في " جمعيته " . لكن قادة الانقلاب ، سرعان ما استقلوا برأيهم عن ناصـــر ،

وسلكا طريقا آخر . قادهم أخيرا إلى تشكيل جبهة معارضة له ، لا تقـــل عـــداوة ومشاكسة عن جبهة نوري السعيد السابقة .

إن الحرب التي يشنها ناصر ضد المتمردين على مخططاته ، قـــد آلـــت إلى نتائج جعلت حكام العرب لا يتجرؤون على الارتباط بأي قوة كبرى ، شـــرقية أ/ غربية . دون الأخذ بعين الاعتبار وجدود " جمعيته " ، وحتى موافقته الشخـــصية على ذلك ، ولقد خدمه هذا المخطط – وعلى الأقل – لمدة مـــن الـــزمن ، وإن التصدع المتزايد في جبهته المشتركة ، وما أصابها من شروخ وانقسامات . لم تكن نتيجة أخطاء جذرية في استراتيجيته ( عندما وضعها خلف الأبواب المغلقة ) أكثـــر من كونها نتيجة التغييرات المستمرة للظروف العالمية.

ولقد لفت شخصيا أنظار أصدقائي المصريين ، وأنظار ناصر نفسه عندما كنت ألتقى معه ، إلى أن تحالف الناصرية مع المتعصبين والغلاة في البلاد المجـــاورة ز يثير ردود فعل سيئة في العالم الغبي ، وبالتالي فإنه يحيل ميزات " جمعية " ناصـــر إلى سيئات ، وأدرك الجميع وجهة نظري هذه واعترفوا بصحتها ، ولكنهم أحتجـــوا بأن لا طاقة لهم بالمخططات الأمريكية المعاكسة لفرط قوتها ووفرة مالهـــا. ولهـــذا فليس أ/امهم إلا طريق اللجوء إلى ما تبقى لديهمه م وسائل . مهما كان نوعهـــا ولونها ، وهم بهذا يطبقون الاستراتيجية القائلة : أن الأمة الضعيفة لا يمكنـــها أن تلعب دورها ضد القوى الكبرى – وعلى الأقل حول طاولة " لعبة الأمم " – دون استخدام العنف . الذي يسد العجز في نواح عديدة من ميزان القوى .

ولإدراك هذه الحجة يجب أن نملك فكرة واضحة عـــن " اســـتراتيجية المخططات المعاكسة " التي يظن الزعماء الناصريون أننا نتبعها في تحركاتنا ضدهم .

فلقد بقيت هذه الاستراتيجية لغزا محيرى لهم ، وذلك لأننا كنا نتظاهر باتباعهـــا في نفس الوقت الذي كنا نستغل فكرة " جمعية " ناصر نفسه ، وما لها من نفوذ واسع في المنطقة بغية إيصال مخططاتنا الهامة إلى درجة النجاح — الذي ما كـــان لنـــا أن ندركه دون اتخاذ نفوذ ناصر الواسع مطية لنا — وعلى سبيل المثال ، فقـــد كـــان مشروع إريك جونستون لنهر الأردن واحدا منها .وذلك لأنه لم يكن ممكنا تنفيذه دون موافقة ناصر وضغطه على بقية زعماء العرب للقبول به . ومثال آخر علـــى ذلك ، هو محاولاتنا المتكررة لجر ناصر إلى قيادة العرب بغية الـــسيطرة علـــيهم ، وبالتالي إقناعهم بتخفيف حدة التوتر بين العرب وإسرائيل . ولقد قامت الحكومـــة الأمريكية بأكثر من محاولة لدعم هذه الفكرة ووضعها حيز التنفيذ ، كمـــا ألقـــت بثقلها وراء " جمعية " ناصر بغية تحقيق ذاك المأرب وإخراجه إلى حيز الوجود .

وكان التناقض واضحا وجليا في كل أفعالنا وقراراتنا ، فقد كنـــا نـــسدد باقي حسابنا مع ناصر بشكل محاولات تهدف إلى تقويض نفوذه ، أكثر مما تهـــدف إلى تقويته ، وكنا نفعل هذا جهرا بافتضاح، وأول ما نذكر في هذا المجال " حلـــف بغداد " نفسه ، فقد قال عنه باتريك سيلا ( في كتابه الصراع على سوريا ) أنـــه " كان ذا تأثير بالغ على السياسة العربية في كل المستويات " ، كما قال ب ، ج . فاتيكيوتس .. أن حلف بغداد كان صدمة عنيفة على سوريا . ولم تكن هذه سوى عبارات مخففة لتصوير الموقف بشكل أقل مما كان عليه حقيقة . لقد هز حلف بغداد العالم العربي إلى حد تعذر علينا معه — وذلك لفترة من الزمن — الاحتفاظ بمواقع الغرب في الشرق الأوسط . مستنفذين كل ما تحت تصرفنا من مساعدات اقتصادية . وقد أدرك هذه الحقيقة كل من كان له علاقة مباشرة مع العالم العـــربي من الرسميين الأمريكيين والبريطانيين ، غير أنني في ذلك الوقـــت لم أكـــن أملـــك

الشجاعة الكافية لأدخل قاعة تلك الاجتماعات التي كانت تعقد في مقـــر الـــوزير دالس ، وأعلن هذه الحقيقة المؤلمة . كما أعلنها باتريك سيل وفاتيكيوتس .

وفي نيسان " أبريل " ١٩٥٤ ، وقعت كل من الباكستان وتركيا معاهدة صداقة ودفاع مشترك ، وبعبارة أدق ، لم تكن تلك المعاهدة تعـــني قيـــام حلـــف عسكري بينهما ، وقد وقعت تركيا والباكستان تلك المعاهدة بـــدافع ذاتي ، ودون أي ضغط خارجي من الولايات المتحدة ، من بريطانيا ، ولكن رجال الأمن العـــام . التابعين لناصر قاموا بتصوير جميع صفحات جـــوازات ســـفر كبـــار المـــسئولين الأمريكيين والبرياطانيين لدىة عبورهم نقاط الأمن العام في مطار القاهرة. وكـــان من السهل بعدها أن تقوم القاهرة بنشر معلمات تدعي فيها أنه قد مـــر في مطـــار القاهرة — وقبيل توقيع المعاهدة — ما لا يقل عن ثلاثة من الرسميين الأمريكيين الذين لهم علاقة بالمعاهدة ، وعلى جوازات سفرهم تأشيرا دخـــول وخـــروج تركيـــة وباكستانية ، وفي نفس الشهر ، وافقت الولايات المتحدة سرسميا على منح العراق مساعدات عسكرية في ظروف أثارت الشكوك في نفس ناصر ، وظن أن حكومـــة نوري السعيد قد قامت بتقديم تنازلات سرية . مع أن العراق لم يكن قـــد أعلـــن ليومها عن أية ارتباطات رسمية شبيهة بتلك التي طلبها من ناصر كل من جيرهارت وإيفلاند سابقا ، ولكن بعد تسعة أشهر ، وفي كانون الثاني " ينـــاير ط ١٩٥٥ ، أعلن كل من العراق وتركيا ، في بيان مشترك . أهما على وشك توقيع حلف بيهما ، وقد حدث هذا حقيقة في الشهر التالي من العام نفسه ، ولحقت بهما بريطانيـــا ووقعت على الحلف بعد ثلاثة أهر .

ومع ا، مقري كان يومها في القاهرة ، إلا أنني كنت أتـــردد إلى ســـوريا والولايات المتحدة ، حيث كان يسمح لي وقتي بزيارة معظزم زملائي القـــدامى في واشنطن ، وفي أحدى زياراتي للقاهرة مع ألبرت جيرهارت في تـــشرين الثـــاني " نوفمبر " ١٩٥٤ ، نقل إلى بيل إيفلاند صورة محتملة عن تسلسل الوقائع وأشـــار بوضوح إلى أن ناصرا سوف يجد نفسه وحيدا ومتخلفا عن الركب . ولكن لم يكن بيننا من صدقه في حينه .

وأهمل كل من السفير كافري وجيمس أيخلبرجر حديثه و لم يعيرا تنبؤاتـــه أي اهتمام أو انتباه . وفي اليوم الذي أعلن فيه التراك والعراقيون توقيـــع الاتفـــاق بينهما ، لم يعلم أيخلبرجر به إلا عن طريق نشرة الأخبار الداخلية التي تصدر داخل السفارة ، فلم يرد أي ذكر للإتفاق في سياق البرقيات الرسمية ، التي ترسلها وزارة الخارجية في واشنطن إلى القاهرة .

واقترح يومها إيخلبرجر أن أذهب وإياه لزيارة ناصر في مترله لنطلعه علـــى النبأ ، وفعلنا ذلك حالا ، وبعد أن نقلنا له الخبر ، جلس ناصر لدقائق معدودات في صمت مطبق ودون أن ينبس ببنت شفة . ثم ما لبث أن خاطبنا بصوت منخفض ، ولكنه منذر بالشؤم ، مذكرا إيانا أنه — بغض النظر عـــن حديثـــه مـــع إيفلانـــد وجيرهارت — لم يفهم من جميع المريكيين الذين لهم علاقات معه ، ومنهم الـــسفير كافري . سوى أن الحكومة الأمريكية ستعطيه الفرصة الكافية لإنشاء منظمة دفاع إقليمية عربية بدون أن يكون لها أية علاقة مكشوفة مع الغرب . وسييتم بناء هذه المنظمة الدفاعية بصورة تسمح لها أن تجد مكانها المناسب ضمن مجموعـــة الخطـــط الغربية حال ظهور أي خطر يهدد الجميع ، وكاد حسن التهامي — وكان حاضـــرا — أن فقد أعصابه عند سماعه النبأ ، ألا أن ناصرا خفف عنه ، وهدأ من روعـــه ،

وعندما غادرت وإيخبلرجر المترل كان الاثنان غارقان في صمت تام ، والدنيا مـــن حولهما تنظر وتترقب.

وبعد قرابة يوم ، غادرت القاهرة إلى دمشق لقضاء بعض الأعمال التي لا علاقة لها بما سبق ذكره . وفي دمشق صحبني صديقي مجد الدين الجابري " وكـــان يشغل يومها منصب وزي الأشغال العام " معه إلى عند وزير الخارجيـــة فيـــضي التاسي الذي ألقى على محاضرة مليئة بشكوك الأطفال وأوهامهم ، لو أنني أعدت ما سمعت منه على المسئولين في واشنطن ، لشكوا بصحة عقله واتهموه بالجنون " ولم يكن هو كذلك " ، إلا أن الحديث قد وصح لي الفكرة التي رسمها العـــرب في مخيلتهم عن الأمريكيين ، وكانت محاضرته تحتوي على عبارات مثل: " الاستعمار .. يحاول أن يبقى العرب ضعفاء .. أنكم لستم سعداء إلا عندما نصبح عبيدا لكم .. أنكم تتمنون أن نبقى متخلفين وخياليين . وكالة المخابرات الأمريكية . فاضـــل الجمالي عميل لها .. ولي العهد " الأمير عبد الله " يأمل أن يصبح ملكا على سوريا .. " إلى غير ذلك من العبارات المماثلة لما سبق ذكره . وفي اليوم التالي "

أمضيت ست ساعات وأنا أشق طريقي خلال الثلوج المتراكمة على جبل لبنان ، وخلال مراكز المراقبة التابعة للجمارك والأمن العام على حدود البلـــدين ، حتى أصل إلى بيروت . وفي المساء التقيت بعدد من اللبنانيين المؤيدين لناصر والذين ألقوا على محاضرة لا تختلف عن تلك التي أصغيت لها في دمشق ، ومع أنني التقيت أيضا بعدد من اللبنانيين المناوئين لناصر . إلا أن حديثهم لم يكن يختلف كثيرا عن الحديث السابق في معانيه . سوى أنه كان أخف حدةى وألطف منطقا . وعنـــدما قصدت في نفس اليوم مبنى السفارة الأمريكية في بيروت التقيت صدقة بأحد معارفي القدامى ت"وكان قادما من واشنطن في زيارة لبيروت " . ولكنه سرعان ما تـــأبط

ذراعي والتفت إلي قائلا : " وأخيرا فلقد عثرنا عليكم يا عشاق ناصــر . ألـيس كذلك ؟!"

وعندما عدت إلى القاهرة . كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق . تحضيرا لمؤتمر وزراء الخارجية العرب ، ولم يكن أصدقائي من المصريين ، من الذين لهم علاقة بالمؤتمر ، ليتحدثوا إلي إلا عندما يودون توجيه انتقادات لاذعة للـــوزير دالس ، وعندا وصل الوزراء العرب إلى القاهرة قمت بالاجتماع بأكثرهم .

فقد كنت أعرف نصفهم تقريبا ، ولقد أعربوا لي عـــن وجهـــات نظـــر متفاوتة كانت كلها تلتقي حول حقيقة واحدة ، وهي أن خلافا جديدا قد نـــشأ بينهم لكنه من نوع أشد وأقوى من تلك الخلافات السابقة التي اعتـــادوا عليهـــا ،ونتيجة لذلك ، فقد أخذت كل من بغداد والقاهرة في استقطاب . الدول العربية الأخرى حولهما ، وحلت سياسة المحاور محل سياسة الاتفاق والتفاهم ، وأضـــحى الصف العربي متصدعا إلى حد استفاد منه السوفييت أكثر مما استفاد الغرب بكثير

وفي تلك الأثناء ، وصل السفير بايرود ليتسلم مهام منـــصبه كـــسفير للولايات المتحدة في القاهرة ، وقام بايرود بعدها بتناول طعام العـــشاء في مـــترلي بصحبة كل من ناصر وعبد الحكيم عامر وحسن التهامي ، وقد أطلعت وايخلبرجر ، بايرود على وجهتي نظرنا السلبيتين حول حلف بغداد . ونظرا لبعده عن تأثيرات أجواء واشنطن الرسمية عليه ، فقد نجحنا في استمالته إلينا ، وضـــمه إلى صـــفنا . وساعد تعاطف بايرود مع وجهتي نظرنا اتخاذ موقف أقل ما يوصف به أنه ملطف لردود فعل ناصر تجاه حلف بغداد . وحاول بايرود أ، يطمئن ناصر حول نتـــائج الحلف . مؤكدا له أن الأمور لن تتطور إلى أسوأ ، وأن مساندة بريطانيا والولايات المتحدة للحلف لن تبلغ درجة هامة وخطيرة .

وفي آذار " مارس " ، علمنا أن بريطانيا على وشك التوقيع على معاهـــدة حلف بغداد ، وأن هناك ضغطا على الحكومة الأمريكية حتى تحذو حـــذوها . وفي تلك الأثناء . كان الموقف قد اتضح تماما لبايرد ، صار يراه كما كنا نراه. وعندها اقترح علي بايرود أن أنتحل بعض الأعذار – كقضاء بعض الأعمال – للسفر إلى الولايات المتحدة ، وأحاول هناك أن أتصل ببعض الأصـــدقاء المـــسئولين في وزارة الخارجية ووكالة المخابرات المركزية وأبلغهم شفهيا ما كان يعنيه كل من بـــايرود وايخلبرجر فيما أرسلاه من برقيات ومذكرات وكانا فيها متحفظين جدا " حتى لا يبدو بايرود وكأنه قد غير مواقفه فجأة بين عشية وضحاها مما يسئ إلى مكانته ، ويظهره بمظهر الغبي الأحمق" ، وقد دأب بايرود على إرسال مثل تلـــك البرقيـــات والمذكرات منذ اليوم الأول لوصوله إلى القاهرة . دون أن يأتي صراحة على ذكـــر آرائه الجديدة حول أحداث المنطقة ، وذلك لأن الإنسان إن وجد ضرورة لتغـــيير مواقفه وآرائه التي كان يتمسك بها يوما ما بقوة . وجب عليه أن يفعل ذلك بهدوء وتدرج لئلا يثير أزمة ثقة واطمئنان.

وعندما وصلت إلى واشنطن ، قمت بزيارة لكيرميث روزفلتا في مقره في وكالة المخابرات المركزية ، وبسطت له وجهة نظري بخصوص حلف بغـــداد " " وكات شبيهة بآراء كل من الكاتبين باتريك سيل وفاتيكيوتس " ، ومع أن كيرميت روزفلت لم يظهر استحسانا كليا لوجهة نظري . ألا أنني أفلحت في أن أضـــفي – على الأقل – شيئا من الصبغة الواقعية "كما هي حقيقة في الشرق الأوسط " علـــى النظريات التي كانت سائدة آنئذ في واشنطن ، وأخذ روزفلت كلامي هذا بعـــين الاعتبار . مما منحني شجاعة وجرأة لن أنتقل إلى شرح أكثر صراحة وأوسع شمولا ، وسرعان ما أدار قرص الهاتف ليتخذ الترتيبات التي تـــسمح لي أ، أمثـــل لـــدقائق معدودات أ/ام أحد الاجتماعات الرسمية . التي كان مقررا لها أن تعقد بعد ظهر ذاك

اليوم في مكتب وزير الخارجية دالس . ويحضرها معا خـــبراء وكالـــة المخـــابرات المركزية ووزارة الخارجية . ولا أزال أذكر جيدا ذلك الاجتماع الذي أقنعني يومها أنه مهما أوتي أولئك المؤرخون " مثل باتريك سيل وفاتيكيوتس" شجاعة وجـــرأة لعرض أفكارهم وآرائهم ، بنفس قوة الإقناع الملموسة في مؤلفاتهم " وهي تـــدور حول سوء ردود الفعل ضد الأمريكيين نتيجة توقيع حلف بغداد " أمام المجـــتمعين يومها . لما أفلحوا في زحزحتهم عن مواقفهم المتعنتة ، تجاه سياســـيتنا في الـــشرق الأوسط ، ولا قيد أنملة .

كان يحضر ذلك اجتماع الوزير دالس ، وإلى جانبه كل من بيل رونتري " الذي حل محل بايرود في منصب مساعد الوزير لشؤون الشرق الوسط " وكيرميت روزفلت من وكالة المخابرات المركزية . بالإضافة إلى أبربعة أو خمسة هـــن ألمـــع خبراء الوزارة من الشباب الذين استظهروا معلومات واسعة حول البلدان المتعـــددة في الشرق الأوسط، وكانت تلك المعلومات تشمل كل شيء حول الموارد الطبيعية وغيرها من الحقائق والإحصائيات الإستراتيجية الهامة . ولست متأكدا من حضور بيل إيفلاند لذاك الاجتماع ، إلا أ، ممثلا عن وزارة الدفاع كان بالتأكيد في طليعة المشتركين فيه . وضم ذلك الاجتماع فعلا كبار مخططي الإستراتيجية الأمريكية في الشرق الأوسط ، وكان في متناول يدهم كامل المعلمات المتوفرة في كل الأجهـــزة والدوائر في واشنطن ولندن حول إستراتيجية السوفييت . وقتهم العسكرية ،وحالة التسلح النووي آنئذ والتغييرات في معدلات إنتاج النفط حتى عام ١٩٧٠ ، وحالة التطور الصناعي في أوروبا ، وتقارير مختلفة عن نشاطات حلف الأطلسي ، وما لا حصر له من التقارير والمعلومات المصنفة والواردة من كل حدب وصـــوب ، ولم أجد صعوبة في اجتذاب انتباه الحاضرين في الاجتماع ، فقد كانوا كرماء في ذلك . كما حصل بسرعة وعن طيب خاطر ، إلا أنني لا أدري ماذا انتابني وأنـــا ماثـــل

أمامهم . فلم أوفق في أن أنقل إليهم سردا كاملا لتفاصيل سياسة البعثيين وللرفض الذي يحمله العرب لسياسة نوريالسع٨يد وفكرة الهلال الخصيب ، كما لم أوفق إلى شرح أمور عديدة شبه رسمية ، تعتبر مخالفتنا لها في المنطقة ظلما وقسوة ، ولكـــن اللإنسان لا يقيم لها وزنوا عندما ينظر إليها وهو قابع خلف الجدران في واشـــنطن وقد يشعر أنها لا تساوي ولا حتى ذاك التشويش الذي يثار بسببها . فالمسئولون في واشنطن لا ينظرون إلى الشؤون العالمية إلا من خلال منظار القنابل الذرية . والحرب الباردة بين الشرق والغرب ، وحلف وارسو . ومعاهـــدة دفـــاع خلف الأطلسي ، وكان جل تفكيرهم بالشرق الوسط لا يتعدى حدود مـــشاكله الاقتصادية وموارده الطبيعية . وأما مشكلة اسرائيل فإنها كانت تتطلب اهتمامـــا زائدا وذلك لأسباب سياسية داخلية ذات أهمية لا تتناسب إطلاقا مع أهمية اسرائيل الإستراتيجية .

ولقد دأب أولئك الرسميون على النظر إلى غيرهم من خلال المنظار الساف الذكر . فمثلا : ما هي سوريا ؟ أنها لا تعني بالنسبة إليهم سوى أنها بلاد لا يتجاوز سكانها ستة ملايين نسمة . فهي بهذا لا تتجاوز ربع ســـكان مدينـــة نيويـــورك " الكبرى " . ولقد حدث مرة أنني قابلت قنصل أحد البلدان اصغيرة وهو " راونـــدا أوراندي ": وانتهزت الفرصة لاستمع منه إلى شرح حول الخلاف الموجود عندهم بين النرفزة والهياج العصبي من جهة وبين طقوس الحرة وعـــاداتهم المقدســـة " في إفريقيا " من جهة أخرى ، وكان ذلك القيصل يظن نتيجة لذلك أن الحرب العالمية الثالثة ستبدأ من هناك ، مزن " راوندا أوراندي " باذات . وهنا أدركـــت مـــدى السخافة والسذاجة التي يتصف بها أولئك المسؤولون الذين لا يفكرون في اشؤون العالمية إلا من زاوية التعصبلإقاليمهم والتمسك بها " " وذلك علـــى حـــد تعـــبير الجنرال بديل سميث " .

لم يكن عرضي لوجة نظري موفقا كما كنت أتمنى وأشـــتهى . وعنـــد انصرافي من الاجتماع التفت إلي " كيرميت روزفلت " وقال معلقا : إنه قد وجـــد متعة في إصغائه إلي وأنا أزأر ولكن كهر صغير لا حول له ولا قوة . وعندما عدت أدراجي إلى القاهرة كان شعور أيخلبرجر وبايرود أنني قد خذلتهما وتخليت عنهما ، ولكن مال العمل إزاء أحداث كهذه ؟ فجوهر الأمر يكمن في الخلاف الـــشاسع بين تصور المسؤولين لأبعاد الموضوع وهم وراء مكاتبهم في واشنطن ، وبين تصور أولئك الذين يعيشونه وسط الميدان . وتحت أشعة شمسه المحرقة . وباستثناء بعـــض التلميحات والإرشادات . فإن كلا التصورين يبقيات في عالمين منعزلين تمام الانعزال عن بعضهما بعضا . ودونما أي اتصال أو تبادل للآراء والأفكار.

ومهما كان ،فلق وافقت واشنطن على أن بتقي خارج حلف بغداد ، إلا أن ذلك لم يكن أهون الشرين وأخف الضررين . ففي الوقت الذي بقى الحلـــف ضعيفا دوننا أخذت الأطراف المشتركة فيه تشن علينا حملة قاسية . ناعتـــة إيانـــا بالتخلي عنهم وبتركهم في العراء ، وعرف المصريون وغيرهم أن الحلف كان مـــن بنات أفكار الوزير دالس . وكان هذا مطعنا جديدا بسلوكنا . وعلى أية حال فقد كان حلف بغداد أمضى سلاحخ أعطيناه لناصر ضدنا . وبنفس الطريقة تماما الـــتي أعاطانا بها السوفييت . عام ١٩٦٨ . سلاحا جديدا ضدهم عندما قـــاموا بغـــزو تشيكوسلوفاكيا ، ومع أن ناصرا كان يتمى أن تسنح له الفرصة لتوجيـــه شـــكر رسمي لنا على موقفنا ذلك . فإنه لم يتردد بترك انطباع كهذا عند السفير بـــايرود خلال لقاءاتهما المتكررة .

كن حلف بغداد بمثابة منطلق جديد لناصر يشن منه حملاته ضد أولئك " الخارجين " عهن سياسته . وزاد= هذا المنطلق قوة ومتانة . عندما شاركت بريطانيا " وهي أحد الأطراف الموقعة على حلف بغداد "" كلا من فرنـــسا وإســـرائيل في الهجوم على قناة السويس في تشرين الأول " أكتوبر " ١٩٥٦ ، وكان أمرا حيويا وضروريا لناصر أن يشن تلك الحملات ضد الحلف وموقعيه . فقد أثبت توقيـــع الحلف " بغض النظر عن عداء الجماهير العربية له . وعن مدى الإحراج الذي سببه للزعماء العراقيين في علاقاتهم العامة " . على أن هناك وسائلا عديدة قد تمكنـــت إحدى الدول التي تعتبر من الأركان الأساسية في " جمعية " ناصر من أتباعها . ومن انتهاج سياسة مستقلة عنه تماما . وأما الوسيلة الثانية التي شجعت البعض الآخـــر على انتهاج سياسة " الخروج " والاستقلال عن ناصر فهي " مبدأ أيزنهاور" .

جاء إعلان " مبدأ إيزنهاور " كنتيجة من نتائج فشل العدوان الثلاثـــي " البريطاني الفرنسي الإسرائيلي " على قناة السويس في عام ١٩٥٦ . إلا أنه قـــد زود ناصرا بمجموعة رهيبة من الاحتمالات والأخطار ، التي لها علاقة " بلعبة الأمم " ، وكان أول ما لاح في الأفق احتمالية دخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في منافسة شديدة لكسب ود ناصر واستمالته . فقد أبرق سفير ناصر في واشـــنطن مطلعا إياه على آخر رأي لنا في المنطقة . وأننا قد أدركنا أن خروج البريطانيين من المنطقة بعد هزيمة السويس سيترك فراغا فيها . وأن كبار مخططي السياسة الأمريكية أخذوا يسهرون الليالي الطوال علّهم يجدوا ما يرحهم ويزيل عنهم القلق . وكلمة " الفراغ " هذه كلمة كريهة لناصر . فهي لا تعني عندهن سوىلا ضرورة وجـــود إحدى الدول الكبرى على مسرح الأحداث في المنطقة ، وأن خروج إحداها يحـــتم بالضرورة حلول أخرى محلها . ولقد أثارت امتعاضه حقا تلك المساعي الحميـــدة التي بذلتها واشنطن للإفراج عن الأرصدة المصرية المجمدة انتظارا لنتائج المفاوضات

حول تسوية مطالب شركة قناة السويس العالميـــة . إلا أن ناصـــرا أدرك نهائيـــا . وبوضوح تام ، أن أبعاد تصورنا لفكرة " ملء الفراغ " في المنطقة ليست أكثب من مجرد= كسب لصداقته ومودته . كما لها تعني بالوقـــت ذاتـــه . منحـــه مطلـــق التسهيلات في سبيل إنشاء " تجمع " دول الحياد الإيجابي . إلا أن الشكوك قـــد خامرت ناصرا عندما تلقى دردا أمريكيا فاترا على طلب كـــان قـــد تقـــدم بـــه للإمريكيين ولاسوفييت يطلب فيه منهم بإلحاح قمحا وعقاقير ، في حين كان الرد السوفييتي سريعا ، ولبى الروس طلبه بالحال.

ولناصر العذر كله في تخوفه من النتائج وفي ترقبه للشرور . فقد تظاهر " الخوارج " ( تعني كلمة الخوراج هنا أولئك الذين خـــالفوا ناصـــر في سياســـته وانتهجوا لأنفسهم نهجا مستقلا " " مثل نوري السعيد والرئيس شمعـــون والملـــك حسين .." ) بتأييده ، وتكاتفوا معه أثناء أزمة السويس،ولكن بقيت قلوبهم بعيدة عنه ، وفي نفسهم تحفز وانتظار . أما وقد انتهت الأزمة . وانفرجت الكربة . فقد أدرك ناصر أنها قد زلزلت أركان " الخوارج " وهزت قواعدهم هزا . وأنهم قلقون . غير مرتاحين . لانحسار نفوذ بريطانيا عن المنطقة . عليهم البحث عن بديل لها ليمد لهم يد العون ويمنحهم التأييد . وقد استرعى انتباهي مرة . وأنا في حديث مع أحد كبار أعوان ناصر ، أن العلاقات بين السفراء المصريين ووزارات الخارجية في كل من بيروت وعان وبغداد ، تمر بمرحلة فتور وبرود ، فلم يكـــن اســـتقبالهم هناك أكثر من مجرد رسميات متكلفة ولياقة شكلية مفرطة . ممـــا أثـــار الهـــواجس والشكوك حيال ما يدور وراء الكواليس .

وكان تلهف ناصر شديدا على سلاح آخر كسلاح حلف بغداد ، نقدمه له دون معي منا . ليستخدمه في شن الحملات على "الخوارج " . فيزيدهم إحراجا فوق إحراج " حلف بغداد " لهم ،وأحس ناصر بأن في نيتنا هذا وأننا على الدرب

سائرون . فقد أبرق له سفيره في واشنطن ، في ألأول من كانون الثاني " ينـــاير " ١٩٥٧ بأنباء مفادها : أنه يعتقد أن الأمريكيين منهمكون في وضع مخطـــط بغيـــة الإطاحة بنظام حكم ناصر والتخلص منه .

وحدث ما أراد ناصر له أ، يحدث ، فقد كنت في تلك الأثناء ملحقا بلجنة كلفت بمهمة الإشراف على كل ما يمت إلى سياستنا تجاه ناصر بصلة . وعنـــدما حضرت لمكتبي في أحد الأيام . أصبت بدهشة مذهلة عندما علمـــت أن رئـــيس الجمهورية قد قدم في الخامس من كانون الثـــاني " ينـــاير " ١٩٥٧ اقتراحـــا إلى الكونجرس الذي وافق عليه ( في الجلسة المشتركة بين مجلس الشيوخ ومجلس النواب ) حالا ، وأصبح نافذ المفعول ابتداء من شهر آذار " مارس " من نفس العام ، وقد خول الكونجرس رئيس الجمهورية " وكان يومها إيزنهاور " حق إرسال القـــوات المسلحة الأمريكية للدفاع عن أي من الحكومات الصديقة في الشرق الأ{وسط التي تواجه تهديدا مسلحا من قبل أية دولة أخرى تدور في فلك الشيوعية العالميـــة . وفي حال عدم وجود مثل هذا التهديد السافر بالـــسلاح فللـــرئيس الحـــق في تقـــديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي تحتاج إليها تلك الحكومات بغية بناء جهـــاز دفاعها الذاتي ، وقد عرف هذا " بمبدأ إيزنهاور " ، وحتى يومي هذا . لم أعثر على ذلكم المسؤول الذي استنبط هذا المبدأ وأخترع فكرته . إلا أنني متأكد تمامـــا أن " المبدأ " نفسه كان مصدر مزيد من الإحراج والتوريط لأعداء ناصر . دون أن يقدم لهم المساعدة الفعلية التي أضحوا في أ/س الحاجة إليها للـــصمود في وجـــه ناصـــر وحملاته المتلاحقة القاسية ضدهم .

وعندما أجول بذاكرتي في أجواء " مبدأ إيزنهاور " . فإن الشك يخامرني في أن الوزير دالس نفسه، أو مساعده بيل رونتري . كان وراء اختراعـــه وصـــياغته

،وكلي يقين . بأنه لم يكن وراء مبدأ إيزنهاور أي من أولئك المـــسئولين في لجنـــة تخطيط السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط " وهي لجنة مـــشتركة بـــين وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية " ، أو في لجنة شؤون الـــشرق الأدنى وشمال إفريقيا . ولا يستبعد إطلاقا ان تكون الفكرة وليدة أحد تلك اللقاءات السياسية غير الرسمية " التي يحضرها بعض الدهاة الأذكياء".

إلا أنها كانت بالتأكيد دون مشورة منا — نحن خبراء " الميـــدان " — أو رأي . وفي ضوء معلوماتنا وتصوراتنا عن العالم العربي ، لم تكن الففكرة لتعني أكثر من مجرد لغو وهذيان . ولا أزال أذكر جيدا ذلك الموقف السلبي الذي أجمع عليـــه الخبراء بشؤون الشرق الأوسط حيالها. فعندما سئل ممثل وكالة المخابرات المركزية " لفي لجنة التخطيط السياسية للشرق الأوسط " عن رغبة الوكالة في إرسال أي من مسؤوليها في مهمة رسمية لشرح مبدأ إيزنهاور للزعماء العرب . أجاب قائلا : " إننا لا نحمل أن نشارك في كل ما يخطر لكم من أفكار طائشسة ومخططات حمقاء" .

ومع ،ن ناصرا كان يرقب بلهفة إعلان " مبدأ إيزنهاور " . إلا أنه لميخف قلقه إزاء العبارات التي صاغ الرئيس إيزنهاور بها مبدأه .عبارة" الدول التي تدور في فلك الشيوعية الدولية " كانت تشير . من قريب أو من بعيد ، إلى مـــصر ، دون سواها . ومع هذا فقد كان سروره أعظم عندما جلس حول طاولة " لعبة الأمم " ( وهو طرف فيها ) يراقب خصمه وهو يرتكب الأخطاء ، الواحد تلو الآخر ، وقد أخبرني ناصر فيما بعد أن انتداب جيمس ب ، ريتشاردز ، عضو الكونجرس . لنقل الأخبار السارة إلى كل من الرئيس شمعون والملك حسين وغيرهما . كانت الناحيـــة الوحيدة من مبدأ إيزنهاور التي أثارت انتباهه واستحوذت على اهتمامه . فاختيار رسول لمهمة كهذه ، وهو لا يعرف من شؤون العرب أكثر مما يعرفه ناصر نفسه عن الفنون الشعبية وأغانيها . قد أوقعت ناصرا في حيرة شديدة ، وساورته الشكوك

في أن " مبدأ إيزنهاور " قد أخذ يسير في مسالك انتهازية بغية تطويق ناصر في داخل مصر بالذات. وأذكر أنه قد خاطبني مرة — بعد مضي مدة غير قليلة على إعـــلان مبدأ إيزنهاور — قائلا " " أن عقدة عبقريتكم — أيها الأمريكيون — تكمن في عدم ارتكابكم الحماقات والأخطاء ببساطة ووضوح ، بل غالبا ما تجعلونهـــا معقـــدة وغامضة إلى الحد الذي نضطر معه إلى التفتيش عن العديد من الاحتمالات التي لربما كانت تنطوي عليها . إلا أننا دائما نكتشف — ولو بعد حين — أنها لمتخرج عـــن كونها حماقات . دون ذكاء فيها أو دهاء" .

ولقد بقي ناصر يعتبر " مبدأ إيزنهاور " أحد بنات أفكار الوزير دالـــس، ولكن المبدأ بحد ذاته كان من أفحش الأخطاء التي يرتكبها أحد كبار ديبلوماســـي دولة عظمى .

***

***وبعد ذلك ، بدأت لعبة الأرباح والخسائر .***

بدأت الدعاية السوفيتية تشيع أن الأمريكيين كانوا طرفـــا في المـــؤامرة الفرنسية — البريطانية — الإسرائيلية على قناة السويس، ولكن بشكل " شـــركاء وأصياء " . فدورهم تمثل في الباقاء جانبا إلى أن حان موعد تدخلهم على شـــكل وسطاء خير . ورسل سلام . جاؤوا تيجة شطط من كان قبلهم وفـــشله . كمـــا ساعد خبراء الدعاية في إذاعة القاهرة الروس في مهمتهم هذه ، فأخذوا ينـــشرون الحيل والإشاعات ويلفقون لها الأدلة والبراهين مدّعين الحصول عليها من مختلـــف المصادر السرية في الشرق الأوسط . وكان جلها يدور حول المؤامرات التي تدبرها الولايات المتحدة للإيقاع بين العرب ليسهل عليها بعد ذلك استبعادهم . كما أنها

تعوّل على أعوالها في بعض الحكومات العربية لتنفيذ مثل هذا المخطط وفي الدعوة إليه.

و لم تكن في البداية حملات ناصر ضد " الخوارج " أكثر من مجـــرد نقـــد للأفكار. بدون تهجم على الأشخاص ، وكان النقد يهدف إلى إيجاد رأي عـــام . وتكوين محيط متعاطف معه ومتحمس له . وبهذا كان يأمل أن يقطع الطريق علـــى كل من تسول له نفسه الخروج عليه . عاجلا أم آجلا . إلا أن هذه الوسائل لم تلق نجاحا كاملا، وإن كانت قد حققت شيئا من أهدافها مثل تلقين الشعوب العربيـــة الوسائل التي تكشف " الخوارج " وتظهر زيفهم ( إن القارئ العربي قد أدرك أخيرا أ، مثل هذه الوسائل سلاح ذو حدين . وألها لا تزال صالحة للأستعمال في الألفيـــة الثانية .. " المعرب " ) كما تمكنت من ألقاء الظلال وإثارة الشكوك حول كل من نوري السعيد في العراق . والرئيس شمعون في لبنان. وللملـــك حـــسين في الأردن ، وأظهرهم على ألهم من الخوراج " واخاصة في حالة نوري وشمعون " حتى قبـــل أن يتحركوا فعلا ضد ناصر بزمن غير يسير . إلا أن ناصرا شعر أخيرا أنه لابـــد مـــن القيام بخطوة أشد ضد " الخوارج " . وأن الوقت قد حـــان لتـــصعيد الحمـــلات وتوجيهها ضد أهداف واضحة ومحددة.

وأعد ناصر لائحة بأسماء " الخوارج" احتل فيها نوري السعيد — رئـــيس وزراء العراق يومها – مركز الصدارة . إلا أن ناصرا قد أدرك أن الإطاحة بنظام نوري السعيد بالملك حسين . وغدا الأخير يحتل مركز الصدارة بعدما كـــان في المرتبة الثانية تسلسلا بعد الأول ، وحدث هذا قبل إعلان " مبدأ إيزنهاور " .

ومع أن الملك حسين لم يكن بأهمية يوري السعيد . إلا أنه كـــان فعـــل مصدر إزعاج لناصر وإقلاق له . لأكثر من سبب واحد . ولذا بدأت الحملة ضد

حسين قاسية وسريعة . ودون رحمة ولا هوادة. ففي كانون الثاني " يناير " ١٩٥٦ أوقدت الحكومة البريطانية السير جيرالد تيمبلر إلى عمان في محاولة لإقناع الملـــك حسين للإنضمام إلى " حلف بغداد " . إلا أن صيحة واحدة من إذاعة القاهرة ( مع تشجيع مباشر من أركان القيادة المصرية على أعمال العنف ) كانت كافية لإثارة الشعب في أنحاء المملكة الأردينة . وإسقاط الوزارة القائمة يومها. وبعد أشهر . قام الفدائيون الفلسطينيون :، المدربون على أيدي المصريين . ، بشن الغـــارات علـــى الأراضي الإسرائيلية من قواعد أردنية . مما أوقع نظام الملك حسين في مأزق جديدة نتيجة العمليات العسكرية التي قامت بها إسرائيل انتقاما لغارات الفدائيين . وعندما علم الملك حسين بأهداف ناصر . بادر إلى الإعلان عن عدم نيتـــه الانـــضمام " لحلف بغداد " . واتخذ موقفا فيه أكثر تعاونا مع ناصر . وأعلـــن بعـــد شـــهرين إقالةالجنرال جونباجوت جلوب — القائد البريطاني الذي كان يشغل منصب رئيس أركان حرب الجيش الأردني — واستبدله باللواء أبي نوار ذي الميول الناصرية . وفي حزيران " يونيو " أعلن الملكحل البرلمان.

وفي تشرين الأول " أكتوبر " جرت انتخابات وأســـفرت عـــن نجـــاح المرشحين الموالين لناصر بصورة لم يسبق لها مثيل.

ولا نزال المسئولون المصريون يصرون إلى يومنا هذا على عـــدم قيـــامهم بإرسال أي من عناصرهم المختصر بأعمال العنف وإثارة الشعب إلى الأردن خلال هذه الفترة. وإذا صح هذا — وليس ذلك ببعيد - فإن معالجة ناصر لهذا "الخارجي " بالذات كانت من طراز ناجح . فلقد كان " المتعصبون " لناصر من أشد العناصر الفلسطينية اللاجئة عنادا وتشبثا. في حين كان بعض ضباط الجيش الأردني وبعض السياسيين والانتهازيين يشكلون مجموعة ناصرية " غير متعصبة " . وقد اتبع ناصر طرقا عدة . وغير مباشرة للوصول إليها والتقرب منها . ومن هذا الطرق ما يلي :

حضر اللواء أبو نوار بدافع ذاتي إلى القاهرة حتى يقف على حقيقة التأييد العـــالمي الذي باستطاعة ناصر تأمينه حال نجاح الانقلاب الذي يزمع القام به . وكان أبـــو نوار يأ/ل في الحصول على مساعدة تختلف عن تل المساعدة التي قدمتها دول حف الأطلسي إلى الثوار المجربين عام ١٩٥٦ . بعدما دفعتهم إلى الثورة وحرضتهم عليها . وكان يصر على نوع من المساعدة أكثر جدية وأثقل وزنا . وأوصت القاهرة أبا نوار أن يخبر سليمان النابلسي الذي كان على رأس الـــوزارة الأردنيـــة يومهـــا ( حزيران ، يونيو. ١٩٥٦ ) إن إذاعة القاهرة ستباشر إبراز أخباره للعـــالم العـــربي لتجعل منه بطلا وأكمل ناصر حلقة مناوراته عندما أفلح في إقناع الملك ســـعود ( وكان بيته وبين الملوك الهاشميين سباق منذ القديم ) بتقديم المساعدات المالية للعناصر المناوئة للملك حسين ( والموالية يومها لناصر) .

وتكللت الخطة بالنجاح عندما أذعن الملك حسين للضغط الذي مارسه عليـــه كل من اللاجئين الفلسطينيين . والإسرائيليين ( عن طريق العمليات العسكرية ) . ونظام الملك سعود ، وإذاعة القاهرة . وغادر بعدها الملك عمان إلى القاهرة ليلتقـــي بناصـــر. وبالملك سعود . وبصبري العسلي رئيس الوزراء السوري. بقصد التوصـــل إلى اتفاقيـــة دفاع مشتركة ، ولإيجاد وضع يسهل الاستغناء عن المـــساعدة الماليـــة البريطانيـــة — الأمريكية . وبالتالي يمكنه البقاء خارج حلف بغداد بكل ارتياح وطمأنينة . وهكـــذا تم انضمام الملك إلى " جمعية " ناصر " وعدا معا في الصف حتى حين .

***

وبنفس الوقت كانت الحكومة السورية تبذل المستحيل لتفكيـــك " جمعيـــة " ناصر وإفسادها. ولكن بطريقة شيقة وجديدة . ففي الوقت الذي كانت سوريا تساند ناصرا في كل مواقفه ضد الغرب . وترفض الخروج عنها. كانت تحاول جاهدة أن تلعب دورا خاصا بها وبمعزل عنه في علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي . فناصر لا يريد أن يكسب

تأييد السوريين له فقط في مواقفه مع الغرب . بل كان يريد تأييدهم له في كل المواقف . وضد جميع الأطراف . فترتيب ناصر لقوى ط جمعيته " يتطلب وقوف العرب جبهـــة واحدة . في ميدان الصراع ضد كل الأطراف. حتى تنجح لعبة " الوقوف على الجبلين" في آن واحد.

وفي عام ١٩٥٤ قام كل من الحزب العربي الاشتراكي " أكـــرم الحـــوراني ) وحزب البعث العربي ( ميشيل عفلق ) ( وكلاهما حزبان سياسيان ذو عقائد متقاربـــة ) بالاندماج في حزب واحد تحت اسم " حزب البعث العربي الاشتراكي" ومـــع أ، هـــذا الحزب ليس حزبا شيوعيا . فإن آراءه وأحقاده " ضد الغرب " جعلت منه مرتعا خصبا لنمو الشيوعية في سوريا . وعندما برز حزب البعث في انتخابات عام ١٩٥٤ حصل يومها الشيوعيون على مقعد في المجلس النيابي وفاز به خالد بكـــداش، زعـــيم الحـــزب الشيوعي منذ منتصف الأربعينيات " وكان قد فر من البلاد إثر ملاحقة حسني الزعيم له ) . ولم يحاول خالد بكداش يومها أن يظهر حقيقة شعاراته . بل حورها لتظهر منسجمة تماما مع شعارات بقية الزعماء السياسيين السوريين البعثيين وغيرهم .وهذا ما جعلـــه يبدو " شعبيا" بل وأظهره بمظهر " الطاهر الشريف" ولقد أخبرني خالد بكداش مـــرة عن بعض تلك الشعارات فقال : " إننا كلنا في سوريا ضد أهداف واحدة . فنحن ضد الإمبريالية وضد الأتراك مغتصبي لواء الأسكندرون، وضد الصهيونية . وضد الهاشميين ( الملك فيصل الثاني في العراق ولاملك حسين في الأردن ) " . إلا أن أثر دفاع الشيوعيين عن سموهم العقائدي وميزاتهم الفكرية " كما أخبرني أحد الدبلوماسيين الأمـــريكيين في سوريا " . لا يعدو ذاك الأثر الذي تحدثه المومسات وبنات الهوى عندما يتكلمن عـــن الفضيلة ويناضلن لأجلها.

وفي الفترة التي أعلن فيها " مبدأ إيزنهاور " كانت السياسة السورية تلعب هي الأخرى على حبلين في آن واحد . ففي الوقت الذي كانت سوريا تمنح ناصرا تأييـــدها التام في مواقفه ضد الغرب كانت نزعتها الاستقلالية عن خط القاهرة تتزايد فيما يختص بالعلاقات مع السوفييت . فقد باتت سوريا تعاكس مبدأ الطاعـــة الكاملـــة لناصـــر . والإلتزام التام " بجمعيته" . وخرج ناصر عن طوره وثارت ثائرته عندما أعلن السوفييت رسميا . في منتصف عام ١٩٥٥ ، تأييدهم المطلق لسوريا في حال تعرضها لأي اعتـــداء تقوم به الأطراف الموقعة على حلف بغداد . وعندما أعلن مولوتوف . وزير الخارجيـــة السوفييتية . في آذار " مارس " ١٩٥٥ . عن مساندة حكومتـــه لمواقـــف ســـوريا . واستعدادها لتقديم المساعدة للسوريين في أي شكل كان . قامت إذاعة القاهرة والصحف المصرية بشن حملة على السوفييت لا تقل قسوة وشراسة عن تلك الحملات التي كانت تشنها على الدول المشتركة بحلف بغداد نفسه . وهكذا ، فقد غدت " لعبة الأمم " في الشرق الأوسط عام ١٩٥٥ مزيجا غريبا من المثلثات : المصريون يزجون بـــالأمريكيين وبالروس في منافسة حادة . يحاول كل طرف فيها كسب ودّ ناصر وضمان جانبـــه ، والأمريكيون يثيرون ناصرا ( ومن معه من العرب الناصريين والتقدميين ) والمحافظين من العرب " ومعهم معارضي ناصر "ضد بعضهم البعض في آن واحد . كما كان الـــروس يحاولون إثارة السوريين ضد المصريين . ويحاول السوريون إثارة المصريين ضد السوفييت . ولم تكن تلك المناورات لتخدم الأطراف المشتركة فيها إلا قليلا. إلا أن المصريين كان لهم هدف بعيد بل واستراتيجي في اتباعهم لمثل تلك الأساليب وفي إذكاء نارها : فقـــد كانت تشكل إحدى الوسائل الهامة التي تضمن لناصر الاستمرار في تنفيذ مخططاتـــه . وتكفل له جني الفوائد وكسب المنافع.

وشهد عام ١٩٥٦ توطدا زائدا في العلاقات السورية — الروسية إلى الحد الذي بات معه رتق الصد=ع في الجبهة الموحدة تجاه السوفييت . أمرا غير بسيط . بل أن هذه

المشكلة لم تعد أقل صعوبة عن المشكلة التي أثارها . " الخوارج " أمثال نوري وحـــسين بسبب طريقة تعاملهم مع الغرب . وعندما عاد الملك حسين إلى صف ناصر وانـــضوى تحت لواءه . أضحت مشكلة قوة العلاقات السورية- الروسية أكثر صعوبة أتعس حظا. إلا أن ناصرا عزم على أن يجد للأمر مخرجا. وفطن إلى " قواعد لعبة الأمم" التي كان قد سنها لنفسه. فوجد فيها البلسم الشافي . فقد لجأ إلى التشاور مع أصدقائه الأمـــريكيين واستفزهم للتعاون معه بغية سد الثغرة التي ظهرت في " جبهته ضد الشرق" .

وفي الوقت نفسه استحث همة الروس للتعاون معه في تقوية جبهته ضد الغرب . والتي باتت مهلهلة ممزقة . وبالنسبة لنا — نحن الإمريكيين — فقد كنا ( حسب قواعدنا في " لعبة الأمم " ) في موقف مساعد لتبادل الآراء مع ناصر بخصوص الوضع في سوريا. و لم يكن هذا ليؤثر على جهودنا المستمرة لإضعاف سيطرة ناصر . والتخفيف من ضغطه على الدول العربية الأخرى . ومما يذكمر في هذا المقام ، أن ناصرا لم يخاطر بمكاشـــفتنا باحتمالية القيام بعمل مشترك ضد سوريا، وإنما اكتفى بشرح الوضع كليا لنا مع تبيان جميعمساوئه ومخاطره .

كما أظهر لنا إلى أي مدى يقوم السوفييت باستغلال الوضع هناك لصالحهم ، و لم يكن هدف ناصر من هذا كله سوى إقناعنا بالامتناع عن القيام بأية محاولة انقلاب عسكري في سوريا . فقد كان ناصر يشك بإمكانية نجاح أي انقلاب عسكري يومها في سوريا . ورأى أن فشل أية محاولة كهذه سيزيد الحالة سوءا وسضعها على شفير الهاوية . إلا أن أصدقاء ناصر من الأمريكيين أعطوه تأكيدات قاجطعة أنهم لا يزمعنون أبدا على التدخل بالشؤون الداخلية السورية لأنهم لم ينسوا بعد احتراق أصابعهم عندما فعلـــوا ذلك في أيام حسيني الزعيم ( يفضل الأمريكيين التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولـــة إلا بعد توفر شروط معينة تجعل العمل أسهل ومأمون العواقب) .

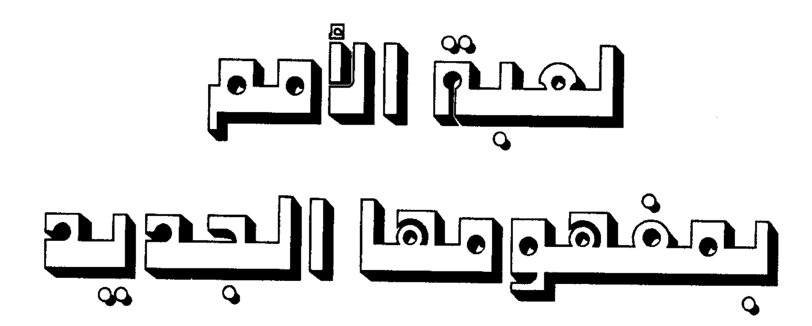
*وإلى هذا الحد انتهى الكلام عن " لعبة الأمم " بمفاهيمها القديمة التي كانت تمارس في فترة الخمسينيات والستينيات .. حيث كان لها قواعدها التي تختلف قليلا عن القواعد الحالية فحتى أواخر الثمانينيات كان هناك " قطب آخر " في مجال اللعبة وهو الطرف الروسي ، أما منذ بداية التسعينيات فقد انفردت الولايات المتحدة بالصدارة والقوة كقوة عظمى وحيدة على الساحة العالمية . وصارت اللعبة تمارس بشكل أكثر صراحة " أو أكثر تبجحاً"*

*ملحوظة :*

*( وفي السطور القادمة سنلقي نظرة عامة وشاملة على بعض الأحداث والمواقف التي تعد دلالة واضحة على أن " لعبة الأمم " مستمرة وقد تستمر إلى الأبد سواء كانت الولايات الأمريكية هي القوة العظمى الوحيدة أو إذا كانت هناك " عاجلاً أو آجلاً" قوى أخرى ستظهر على الساحة العالمية .. وهذا ما لا مناص منه فهي سنة الله في الأرض.)*

*" المعرب"*

***


لعبة الأمم
بمفهومها الجديد

# قرن الحروب الأمريكية

## *التـــدخلات العـــسكرية الأميركية: من واند ودكـــني إلى أفغانستان*

ليست الولايات المتحدة الأميركية كسواها من المستعمرات السابقة، لأنها، بعد نيل استقلالها وتوطيد أركانها، باشرت سلسلة من التـــدخلات العـــسكرية، بشكل تضاعف إلى حد كبير في القرن العشرين. رغم ذلك، لم تبن الولايات المتحـــدة إمبراطورية استعمارية على غرار سالفاتها الفرنسية والبريطانية وإنما اعتمدت على جولات التدخل في هذا البلد أو ذلك، لإسقاط حكومة هنا، وحماية "مصلحة قوميـــة حيويـــة" هناك. وعلى الرغم من أن هذا التدخل التزم في البداية دائرة إقليمية، فحـــصر مجالـــه في الأميركيتين وفقا لمبدأ مونرو، ألا أنه سرعان ما امتد التدخل في غضون الحرب البـــاردة وما تلاها ليشمل مختلف القارات.

في ما يلي لائحة صاغها زولتان غروسمان عن التدخلات العسكرية الأميركيـــة على امتداد قرن. ونشر في كتاب "لماذا يكره العالم أميركا" ؟ لـــضياء الـــدين ســـرادار وميريل واين ديفيز (دار فايار).

داكوتا الجنوبية- ١٨٩٠

قوات أرضية قتل ٣٠٠ هندي الأكوتاس في واندو ودكني.

الأرجنتين - ١٨٩٠

قوات أرضية. حماية المصالح في بوانيس أيرس.

تشيلي ١٨٩١

قوات أرضية. مواجهة بين البحرية والمتمردين المحليين.

هايتي، ١٨٩١

قوات أرضية، قمع ثورة العمال السود في جزيرة ناقاسا من قبـــل الولايـــات المتحدة.

أيدهو، ١٨٩٢

قوات أرضية، الجيش يقمع المضربين في مناجم الفضة.

هاواي، ١٨٩٣؟

قوات بحرية، قوات أرضية. ضم المملكة المستقلة.

شيكاغو، ١٨٩٤

قوات على الأرض. قمع المضربين في سكك الحديد – ٣٤٠ قتيلا

نيكاراغو، ١٨٩٤-١٨٩٥

قوات أرضية. احتلال "بلوفيلد" لمدة شهر.

الصين ١٨٩٤-١٨٩٥

القوات البحرية، قوات أرضية، دخول قوات المارينز.

كوريا، ١٨٩٤-١٨٩٦

قوات أرضية، توقيف لقوات مارينز في سيول أثناء التراع.

باناما، ١٨٩٥

قوات أرضية، قوات بحرية. دخول المارينز إلى الريف الكولومبي.

نيكاراغوا، ١٨٩٦

قوات أرضية، دخول قوات المارينز إلى مرفأ كورينتو؟.

الصين، ١٨٩٨-١٩٠٠

قوات أرضية. القوات الأجنبية تحارب الـ"بوكسيرز".

الفيلبين، ١٨٩٨-١٩٠٠؟

قوات بحرية، قوات أرضية. الاستيلاء على الفيلبين، الممتلكات الأسبانية ٦٠٠ ألف قتيل فيلبيني.

كوبا ١٨٩٨-١٩٠٢؟

قوات بحرية، قوات أرضية. الاستيلاء على كوبا، ممتلكات إسـبانية. صـمود قاعدة بحرية.

بورتو ريكو ١٨٩٨؟

قوات بحرية، قوات أرضية. الاستيلاء على بورتوركيو، ممتلكـات إسـبانية، استمرار الاحتلال.

غوام ١٨٩٨؟

قوات بحرية، قوات أرضية. الاستيلاء على غوام.ممتلكات إســبانية. لا تــزال مستعملة كقاعدة.

مينيزوتا، ١٨٩٨

قوات أرضية، الجيش يواجه هنود الـ"شيبيواس" في ليش لايك.

نياكاراغو، ١٨٩٨

قوات أرضية، دخول المارينز إلى مرفأ "سان خوان ديل سور".

أيداهو،١٨٩٩-١٩٠١

قوات أرضية. الجيش يحتل منجم"كوردالين"coeur dAlene أوكلاهوما، ١٩٠١

قوات أرضية. الجيش يقمع ثورة هنود "الكريكس".

باناما،١٩٠١-١٩٠٤

قوات بحرية، قوات أرضية. فصل باناما عن كولومبيا في عام ١٩٠٣، وضــم منطقة القناة عام ١٩١٤ وضم منطقة القناة عام ١٩١٤، ولغلية عام١٩٩١.

هندوراس ١٩٠٣

قوات أرضية. تدخل المارينز في الثورة

جمهورية الدومينيك، ١٩٠٣-١٩٠٤

قوات أرضية، حماية المصالح الأميركية المهددة من الثورة.

كوريا ١٩٠٤-١٩٠٥

قوات أرضية. دخول قوات المارينز أثناء الحرب بين اليابان وروسيا.

كوبا، ١٩٠٦-١٩٠٩

قوات أرضية. إنزال قوات المارينز في الوقت الذي كانت البلاد تجـــري فيـــه انتخاباتها الديموقراطية.

نيكاراغوا، ١٩٠٧:

قوات أرضية. نشوء بروتوكول "دبلوماسية الولار".

هوندوراس، ١٩٠٧

قوات أرضية. إنزال قوات المارينز اثناء الحرب مع نيكاراغوا.

باناما، ١٩٠٨:

قوات أرضية. تدخل قوات المارينز أثناء مواجهات انتخابية.

نيكاراغوا، ١٩١٠

قوات أرضية. إنزال قوات المارينز في بلوفيلدز وكورينتو.

هوندوراس، ١٩١١.

قوات أرضية. حماية المصالح الأميركية المهددة من قبل الحرب الأهلية.

الصين ١٩١١-١٩٤١

قوات بحرية، قوات أرضية. احتلال دائم مع وقوع انفجارات قوية.

كوبا، ١٩١٢

قوات أرضية. حماية المصالح الأميركية في هافانا.

باناما، ١٩١٢

قوات أرضية. إنزال قوات المارينز اثناء الإنتخابات.

هوندوارس، ١٩١٢

قوات أرضية، قوات المارينز تحمي المصالح الاقتصادية الأميركية .

نيكاراغوا، ١٩١٢،١٩٣٣

قوات أرضية، قصف دائم. عشرون سنة من الاحتلال.

معارك مع الثوار.

مكسيك، ١٩١٣

قوات بحرية. إخلاء القوات الأميركية أثناء الثورة.

جمهورية الدمينيك، ١٩١٤

قوات بحرية. معارك إلى جانب الثوار للاستيلاء على السان دومينيك.

كولورادو، ١٩١٤

قوات أرضية، الجيش أوقف إضراب عمال المناجم.

المكسيك، ١٩١٤-١٩١٨

قوات بحرية، قوات أرضية. سلسلة تدخلات ضد الوطنيين.

هايتي ١٩١٤-١٩٣٤

قوات أرضية، قصف متواصل. تسعة عشر عاما من الاحتلال تلت محـــاولات التمرد.

جمهورية الدمينيك، ١٩١٦-١٦٢٤

قوات أرضية. ٨ سنوات من الاحتلال من قبل المارينز.

كوبا، ١٩١٧-١٩٣٣

قوات أرضية. احتلال عسكري، خضوع لنظام الحماية الاقتصادية.

الحرب العالمية الأولى: ١٩١٧-١٩١٨

قوات بحرية، قوات أرضية. معارك ضد ألمانيا.

روسيا، ١٩١٨-١٩٢٢

قوات بحرية، قوات أرضية. خمس إنزالات بحرية لمحاربة "البولوشفيين".

باناما، ١٩١٨-١٩٢٠

قوات. أرضية. "عمليات بوليسية" تلي المشاكل التي أعقبت الانتخابات.

يوغوسلافيا، ١٩١٩

قوات أرضية، إنزال المارينز في "رالماسي" لمساعدة إيطاليا في مواجهتـــها مـــع صربيا.

هوندوراس، ١٩١٩

قوات أرضية. إنزال قوات المارينز أثناء الحملةالانتخابية.

غواتيمالا، ١٩٢٠

قوات أرضية. ١٥ يوم من التدخلات ضد الاتحاديين.

فيرجينيا الغربية، ١٩٢٠-١٩٢١

قوات أرضية، قصف متواصل. الجيش يتدخل ضد عمال المناجم.

تركيا، ١٩٢٢

قوات أرضية. معارك ضد الوطنيين في "سميرن" (إيزمير)

الصين، ١٩٢٧،١٩٢٢

قوات بحرية، قوات أرضية. نشر القوات أثناء الثورة الوطنية.

هوندوراس، ١٩٢٤-١٩٢٥

قوات أرضية. إنزال المارينز مرتين أثناء المعركة الانتخابية.

باناما، ١٩٢٥

قوات قمع الإضراب العام من قبل المارينز.

الصين، ١٩٢٧-١٩٣٤

قوات أرضية. انتشار المارينز في جميع أنحاء البلاد.

سلفادور،١٩٣٢

قوات بحرية. بعث معدات حربية أثناء ثورة فابريانو مارتي.

واشنطن، ١٩٣٢

قوات أرضية. الجيش يضع حد لمظاهرة قدامى المحاربين في الحرب العالمية الأولى المطالبين بتعويضات مالية.

الحرب العالمية الثالثة: ١٩٤١-١٩٤٥

قوات بحرية، قوات أرضية، قصف دائم، قنبلة نووية.

ديترويت ١٩٤٣

قوات. الجيش يقمع" ثورة السود"

إيران، ١٩٤٦

تحذير نووي. وجوب انسحاب القوات السوفياتية من الشمال (الازير بايجيان الإيراني).

يوغوسلافيا، ١٩٤٦

قوات بحرية، استنفار أميركي بعد إنزال طائرة أميركية.

أوروغواي، ١٩٤٧

تهديد نووي. نشر القوات المسلحة للتخويف

اليونان، ١٩٤٧، ١٩٤٩

الولايات المتحدة توجه اليمين المتشدد أثناء الحرب الأهلية.

الصين، ١٩٤٨، ١٩٤٩

قوات أرضية. قوات المارينز تخلي المنطقة من الأميركيين قبل انتصار الشيوعيين.

ألمانيا ١٩٨٤

تهديد نووي. مسلحون أميركيون ذوو تجهيزات نووية يحمون الجسر الجوي في برلين

الفليبين، ١٩٤٨،١٩٥٤

الـ"أي أي" توجه المتمردين "الهوكس".

بوتكوريكو، ١٩٥٠

قمع المتمردين الاستقلالين في "بوتس"

كوريا، ١٩٥٠-١٩٥٣

قوات أرضية، بحرية، قصف، تهديد نووي. حالة مسدودة بين الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية من جهة والصين وكوريا الشمالية من جهة أخرى. تهديـــد بـــاللجوء للقنبلة(A) عام ١٩٥٠، وجود قواعد أميركية حتى يومنا هذا.

إيران ١٩٥٣

الـــ"سي أي أي" تسقط الديموقراطية وتضع الشاه على رأس السلطة.

فيتنام ١٩٥٤

تهديد نووي. اقتراح بتقديم قنابل للفرنسيين المحاصرين.

غوانتلاما، ١٩٥٤

قصف، تهديد نووي. الـــ"سي أي أي" ترأس عملية إنزال المنفيين بعد تـــأميم أراض تابعة لشركات أميركية من قبل الحكومة الجديدة. نشر مسلحين في نيكاراغوا.

فيتنام، ١٩٧٥،١٩٦٠

قوات أرضية، قوات بحرية، قصف، تهديد نووي. معارك ضد الـ"فيت-كونغ" في الفيتنام الجنوبية وضد الفيتنام الشمالية: مليون إلى مليوني قتيل في أطـــول الحــــروب الأميركية. التهديد باللجوء إلى القنبلة النووية، بين ١٩٦٨-١٩٦٧

كوبا، ١٩٦١

فشل محاولة إنزال المنفيين المعادين لكاسترو، والتي قادتها ال"سي أي أي".

ألمانيا ١٩٦١

تهديد نووي. حذر عالمي أثناء أزمة جدار برلين.

كوبا، ١٩٦٢

تهديد نووي، حصار بحري اثناء أزمة الصواريخ. تجنب الحرب مع روســـيا في اللحظة الأخيرة.

لاووس، ١٩٦٢

تنام النفوذ العسكري اثناء حرب العصابات.

مصر، ١٩٥٦

تهديد نووي، قوات أرضية. الطلب من السوفيات عـــدم التـــدخل في أزمـــة السويس. قيام المارينز بإخلاء المنطقة من الجانب.

لبنان، ١٩٥٨

قوات ارضية، قوات بحرية. قمع المارينز لثورة المتمردين.

العراق، ١٩٥٨

تهديد نووي. إنذار العراق بعدم اجتياح الكويت.

الصين، ١٩٥٨

تهديد نووي، مطالبة بعدم التحرك ضد تايوان.

باناما، ١٩٥٨

قوات أرضية. مظاهرات ضد رفع العلم تؤدي إلى مواجهات عنيفة.

باناما، ١٩٦٤

قوات أرضية. باناميون يفتحون النار لاسترجاع القناة.

إندونيسيا، ١٩٦٥

مليون قتيل في الإنقلاب الذي دعمته الــ"سي أي أي".

جمهورية الدمينيك، ١٩٦٦،١٩٦٥

قوات أرضية. إنزال لقوات المارينز أثناء الحملة الانتخابية.

غواتيمالا، ١٩٦٧،١٩٦٦

الــBERETS~VERTS يتدخلون ضد المتمردين.

ديترويت ١٩٦٧

قوات أرضية. مواجهة بين الجيش والواطنين السود، ٤٣ قتيلا

الولايات المتحدة ،١٩٦٨

قوات أرضية. انتشار ٦١ ألف جندي في البلاد بعد اغتيال مارتن لوثر كينغ

كمبوديا، ١٩٦٩، ١٩٧٥

قصف، قوات أرضية، قوات بحرية. مليونا قتيل خلال ٦ سنوات من القـــصف، المجاعة والفوضى السياسية.

عمان، ١٩٧٠

الولايات المتحدة تقود عملية إنزال القوات البرية الإيرانية.

لاوس، ١٩٧١، ١٩٧٣

الولايات المتحدة تقود عملية اجتياح الفيتنام الجنوبي. "سجادة قنابل" في المناطق الريفية.

داكوتا الجنوبية، ١٩٧٣

الجيش يقود حصار لاكوتاس في واونديد كني.

الشرق الأوسط، ١٩٧٣

تهديد نووي. حذر عالمي أثناء حرب ١٩٧٣

التشيلي، ١٩٧٣

الـ"سي أي أي" تدعم انقلابا أسقط الرئيس الماركسي المنتخب سـلفادور الليندي.

كامبوديا، ١٩٧٥

قوات أرضية، قصف، غاز. تفتيش مركب بحري، وقوع ٢٨ قتيلا في حادث هليكوبتر.

أنغولا، ١٩٦٧، ١٩٩٢

الـ"سي أي أي" تساعد المتمردين المدعومين من قبل إفريقيا الجنوبية.

إيران، ١٩٨٠

قوات أرضة، تهديد نووي، فشل محاولات القصف. محاولة تحرير الرهـائن في السفارة. سقوط ٨جنود في حادث هليكوبتر. إنذار السوفيات بعدم التدخل في الثورة.

لبيا، ١٩٨١

jets بحرية.

سلفادور ١٩٨١-١٩٩٢

قوات أرضية. بعث مستشارين، تحليق جوي لدعم الحرب علـــى المتمـــردين. اشتباكات قصيرة بسبب الرهائن.

نيكاراغوا، ١٩٨١-١٩٩٠

قوات بحرية. الـــ"سي أي أي" تدير عملية إنزال المبعدين المعـــادين للثـــورة وتزرع الغاما ضد القوات الثورة.

لبنان،١٩٨٢-١٩٨٤

قوات بحرية، قصف، قوات أرضية. قوات المارينز تطـــرد منظمـــة التحريـــر الفلسطينية وتساعد ميليشيا الكتائب. المواقع السورية تخضع لقصف القـــوات البحريـــة المسلحة.

هوندواس، ١٩٨٣-١٩٨٩

قوات أرضية. المساعدة على بناء قواعد بالقرب من الحدود.

غرانادا، ١٩٨٣-١٩٨٤

قوات أرضية، قصف، دخول الجزيرة بعد ٤ سنوات من الثورة.

إيران، ١٩٨٤

تحليق طيران، إسقاط طائرتين إيرانيتين في الخليج الفارسي.

ليبيا، ١٩٨٦

قصف، قوات بحرية. ضربات جوية لإسقاط الحكومة الوطنية.

بوليفيا،١٩٨٦

قوات أرضية. الجيش يساهم في الحملة ضد الكوكايين.

إيران، ١٩٨٧-١٩٨٨

قوات بحرية، قصف. الولايات المتحدة تتدخل لصالح العراق خلال الحرب.

ليبيا، ١٩٨١

jet بحرية

الجزر العذارى ١٩٨٩

قوات أرضية. مشاكل مع السكان السود.

الفيلبين،١٩٨٩

تحليق طيران، غطاء جوي لحماية الحكومة من خطر الانقلابات.

باناما، ١٩٩٠،١٩٨٩

قوات أرضية، قصف، ٢٧ ألف جندي يطردون الحكومة الوطنيـــة، توقيـــف القادية، أكثر من ٢٠٠ قتيل.

ليبيريا، ١٩٩٠

قوات أرضية. إخلاء المنطقة من السكان الأجانب.

السعودية، ١٩٩٠-١٩٩١

قوات أرضية، طيران. احتجاج على العراق بعد غزوه لدولة الكويت، ٥٤ ألف جندي إلى عمان. قطر، البحرية، الإمارات العربية المتحدة وإسرائيل

العراق، ١٩٩٠

قوات بحرية، قصف،قوات أرضية حصارات المرافئ العراقية والأردنية، ضربات أكثر من ٢٠٠ ألف قتيل عملية غزو العراق والكويت، إنشاء منطقة حظـــر جـــوي في الشمال الكردي والجنوبي الشيعي. تدمير شامل للقوة العسكرية العراقية.

الكويت، ١٩٩١

قوات بحرية، قوات أرضية، استعراش العائلة الملكية الكويتية.

لويس أنجلوس، ١٩٩٢، ١٩٩٢

قوات أرضة. الاستعانة بالجيش والمارنز لقمع الفتنة ضد الشرطة.

الصومال، ١٩٩٢-١٩٩٤

قوات أرضية، قوات بحرية، قصف. احتلال من قبل الأمم المتحدة بطلب مـــن الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية. حملة على الفتنة في مقاديشو.

يوغسلافيا، ١٩٩٢-١٩٩٤

قوات بحرية. حصار حلف الأطلسي لصربيا ومونتينغرو.

البوسنة، ١٩٩٣-١٩٩٥

طيران، قصف منطقة حظر جوي خلال الحرب الأهلية. إســـقاط طـــائرات. قصف على الضرب.

هايتي، ١٩٩٤-١٩٩٦

قوات أرضية، قوات بحرية. حصار على الحكومة العـــسكرية. بعـــث قـــوات الرئيس ارتيزيد إلى الحكم بعد الانقلاب.

كرواتيا، ١٩٩٥

قصف، الاعتداء على المنطقة الجوية الصربية في كاراجينا قبل الهجوم الصربي.

زائير (كونغو) ١٩٩٦-١٩٩٧

قوات أرضية. بعث قوات المارينز إلى مخيمات اللاجئين الهوتسي في رواندا، في المنطقة التي بدأت فيها الثورة الكونغولية.

ليبريا، ١٩٩٧

قوات أرضية. الجنود يطلقون النار أثناء إخلاء الأجانب للمنظمة.

ألبانيا، ١٩٩٧

قوات أرضية الجنود يطلقون النار أثناء إخلاء الأجانب للمنظمة..

السودان، ١٩٩٨

صواريخ. الهجوم على مصنع أدوات صيدلة، اعتقد أنه مصنع "إرهابي" لتصنيع مادة النوروتوكسيك

أفغانستان، ١٩٩٨

صواريخ الهجوم على مخيمات تدريبية سابقة للـ"سي أي أي" استولت عليها جماعات إسلامية أصولية متهمنة بالعمليات ضد السفارات الأميركية.

العراق، ١٩٩٨

قصف، صواريخ. أربعة أيام من القصف الجوي المكثف بعدما بالسماح لهـم بدخول بعض المواقع.

***

# سيكولوجية السياسة الأمريكية

## *التحليل النفسي*
## *للشخصية الأمريكية*

هذا التحليل هو محاولة لفهم الخلفيات الفكرية والثقافية لنمط الحياة الاميركي ومواقفه من الآخر. وهي مواقف تبدو في غاية القبول الليبيرالي داخل الولايات المتحـــدة لتتحول الى جبروت الغاء ا\الاخر بالقوة خارج اميركا. ويضم هـــذا الفـــصل مقدمـــة وعرض للدراسات السابقة حول الشخصية الأميركية.

**مقدمة**

خلف سقوط الاتحاد السوفياتي فراغا عالميا جعـــل الولايـــات المتحـــدة اللاعب الرئيسي في العالم.بما اغرى رئيسها جورج بوش باطلاق مصطلح النظام العالمي الجديد لتأكيد سطوة الولايات المتحدة وجبروتها العسكري. الذي كرسته حرب الخليج الثانية. التي ذهب بعضهم لاعتبارها الحرب العالمية الثالثة. اســـتنادا الى عـــدد الـــدول المشاركة فيها والى كمية الاسلحة المستخدمة خلالها. وعلى الرغم مـــن الاحراجـــات الدبلوماسية والاخلاقية التي سببها قرار الحرب الاميركي فان الجبار الاميركي لم يتوقف عن الشكوى. وتركزت شكاويه على الامور التالية بصورة خاصة:

١. انه لايحظى بنفوذ سياسي يتناسب وتفوق قدراته العسكرية. بما يعكـــس عدم كفايته بالرغم من قدرته على جر دول عديدة الى تلك الحرب بضغوطات نفـــوذه وقوته الاقتصادية والعسكرية والسياسية. فقد كانت كل من فرنسا وروســـيا تبـــذلان المستحيل من الجهود لمنع هذه الحرب. ليس فقط لاضرارها بمصالحهما ولكـــن ايـــضا لوعيهما ان هذه الحرب هي حاجة اميركية وليست ضرورة دولية او انسانية او غيرها. عداك عن حرج الدول العربية بالمشاركة في حرب اميركية ضد دولة عربية. خاصة بعد الرفض الاميركي لمحاولة ايجاد مخرج عربي للأزمة.

٢. انه يبحث عن عدو ولا يجده. حتى بدا الأمر وكأنه يطالب العالم بتقـــديم ضحية ليتسلى الجبار افتراسها وممارسة جبروته عليها. وفي غياب هـــذه الـــضحية راح الجبار يتسلى بالحروب الصغيرة وبالحصارات متعددة الدرجات ومعهـــا تـــصنيف دول العالم الى تابعة ومارقة. وفي ذلك الاعلان عن عدم وجود حالة وسطية.

٣. انه يواجه عقبات في وجه عولمة نظامه القيمي الذي يرى الجبار الاميركي انه اثبت نجاحه ليصبح سيد العالم دون منازع. فاذا ما فشلت العولمة في مجموعة كـــبيرة من الدول المتعولمة والمستسلمة لشروط الأمركة رد الجبار هـــذا الفـــشل الى الفـــساد والتخلف في هذه الدول. وليس الى عدم صلاحية نظامه للعولمة.

٤. ان بعض تطبيقات العولمة تضر بالاقتصاديات الاميركية مما يعطي للجبـــار الحق بتجاوز العديد من قوانين السوق ومنظمة التجارة العالمية. لكن هذا الحق بالتراجع

لايمتد الى اية دولة اخرى مهما بلغ شانها وقوتها العسكرية. حتى لو أدى الأمر الى معاناة شعبها من المجاعة كما حصل في روسيا.

هذه هي باختصار المظالم الاميركية التي جعلت الولايات المتحدة تبرر تجاوزاتها لمبادئها الليبيرالية. لتخوض صراعات مثل حرب كوسوفو ولتفرض الحصار على مئـيـات الملايين من البشر. بل انها اجبرت الاتحاد الاوروبي على اتخاذ الخطوات الكفيلة بالقضاء عليه وعلى امكانيات تطويره. وكان ذلك عبر التعديلات الاستراتيجية المدخلـة علـى ميثاق حلف الناتو. والتي بدأت طلائعها مع اعلان بوش الأبن عن اصراره على مشروع "الدرع الصاروخي الاميركي" ولما يمضي شهر على دخوله البيت الابيض.

هذه المظالم تقودنا الى السيكولوجيا والى الحديث عن العقل الجمعي المنتج لهذه السياسات والمواقف؟. ليصدمنا هذا السؤال بواقع التعددية الاميركي الذي يجعـل مـن المجتمع الاميركي تجمعا اشبه بالموزاييك الذي يتطلب اولا السؤال عن المـواد اللاصـقة لاجزائه والجامعة بين جماعاته. وهو السؤال الأصعب!. فعلى الرغم من وجود جـواب سهل وجاهز يتمثل بالوفرة الاقتصادية (متوسط الدخل الاميركي ٣٥ الف دولار سنويا) فان الموضوعية تقتضي تحري اجوبة اخرى. فالوفرة المادية قد تكـون المـادة اللاصـقة الأساسية للموزاييك البشري الأميركي. الا انها ليست الوحيدة فماذا عن بقية المواد؟

ان معرفة المواد اللاصقة الأخرى غير ممكنة بالنظر الى المجتمع الأميركـي مـن الخارج. اذ ان هذا المجتمع يختلف بصورة كلية عندما ننظر اليه من داخله عنه عندما ننظر اليه من الخارج. ففي الداخل الأميركي رفاهية نفسية تضاعف الأثر اللاصق لتلك المادة. فالحرية الأميركية لاتقف عند حدود ممارسة القناعات الخاصة بل تتعداها الى التحرر من

قيود الآخر لدرجة اللامبالاة به. وذلك على عكس المجتمعات التقليدية حيــث يكــون الفرد اسيرا لرأي الآخر ومقيدا بالنظم الرمزية للجماعة وقيمها. بما فيهــا تلــك الــتي تتعارض مع قناعاته ورغباته. بما يجعل الفرد يحس احيانا بالاغتراب داخل جماعته. امــا المجتمع الأميركي فيقدم للفرد حرية شخصية في حدودها القصوى. وهذا مــا يعطــي للمجتمع الأميركي قدراته التذويبية الفائقة. التي تصهر المزيج الأتني والثقافي الهائل التنوع في موزاييك المجتمع الأميركي. فاذا اردنا ان نعطي مثالا على اللامبالاة والتحرر من قيود الآخر فاننا نأخذ المقابلة التي اجريت مع الرئيس بوش الابن عندما كان مرشحا. ففــي تلك المقابلة الشهيرة كان بوش نموذجا للمواطن الأميركي العادي الذي لايهــتم بمــا لا يعنيه. ومن هنا فشله في الاجابة على اسئلة من بديهيات السياسة. وهو فشل فــضائحي بالنسبة الى مرشح لرئاسة القطب العالمي الأوحد. ومن الامثلة ايضا ذلك الاحصاء الذي بين ان ٨٠% من الأميركيين يعتقدون ان باكستان و ايران هي دول عربية! وقس عليه.

في المقابل لابد من السؤال عن "الحنين الى الأصول" وهوحنين من طبيعة الجنس البشري. والجواب اختصارا هو ان عوامل انتصار البراغماتية الأميركية عقائديا والــوفرة المادية وخمود القوميات كانت عوامل مذوبة كبتت هذا الحنين. الذي عاود ظهوره بقوة تتنامى مع تنامي انبعاث القوميات. وهو ردة الفعل الطبيعية امام خمود الايــديولوجيات (ويقال سقوطها). وهذا ما يجعل دراسة المجتمع الأميركي الراهن اكثر تعقيــدا. فهــل نقسمه وفق انتماءاته العرقية والقومية؟ ام نتبع التقسيم البراغماتي الذي يصنف الناس في انماط وقوالب سلوكية بغض النظر عن شخصياتهم ولاوعيهم الفردي والجماعي؟.

لذلك كان من الهام التطرق لموضوع التحليل النفسي للشخصية الاميركية. عله يقدم لنا الاجوبة على هذه التساؤلات. حتى نصل الى الموضوع الاهم والاكثر الحاحــا" وهو موضوع

"مستقبل الولايات المتحـــدة الأميركيـــة". اذ يـــبين علـــم المـــستقبليات ان الأمبراطوريات متعددة القوميات تموت موتا بطيئا و موجعا وجالبا للكـــوارث ومريقـــا للدماء. فهل تشذ الولايات المتحدة عن هذه القاعدة المستقبلية المتعارف عليها؟.

ان المواطن الأميركي اليوم فاقد للتوجه. اذ يتنازعه الحنين للاصول ( الآريـــون الأميركيون واللوبي اليهودي والتجمعات العرقية والدينية المختلفة) ومتعـــة اللامبـــالاة والذوبان. مما افقد الموزاييك الأميركي دعم الوفرة المادية بنشوة الحرية الشخصية الـــتي تبدت مثاليتها ولاواقعيتها في الزمن الصعب. حيث اشتكى الآريون من سيطرة اليهـــود على الحكومة الفيدرالية. وحيث اشتكى الزنوج من تدني دخلهم واستمرارية التمييـــز العنصري ضدهم. وحين اتهم ذوو الأصول العربية بانفجار اوكلاهوما وغيرهـــا مـــن المواقف التي غذت الحنين الى الأصول وهي في طريقها لالغاء متعة اللامبالاة بـــالآخر. هذا الالغاء الذي يترك الموزاييك الأميركي قائما على الوفرة المادية وحـــدها. وهكـــذا يتوضح تدريجيا عجز الذات الأميركية عن مكاملة وتركيب مجموعاتها الدينامية. اذ يزداد بروز عوامل الاختلاف بين هذه المجموعات حتى ينفجر مع أول أزمة قتصادية أميركيـــة قادمة. وعندها ستتبدى الفوارق بين هذه المجموعات على الاصعدة المختلفة ( العرقيـــة واللغوية والدينية والمذهبية والقومية ...الخ). حتى امكن القول ان انفجـــار اوكلاهومـــا وقبله حوادث ليتل روك ولوس انجلوس وبعدها حوادث سينـــسيناتي لم تكـــن ســـوى مظاهرين لبداية تفكك الذات الأميركية . على طريق تحويلها الى فئات مـــن الأقليـــات المتنافرة. انها النفس الأميركية المفككة...

**الأميركيون يفضلون القوة في الشرق الأوسط:**

أجرى مركـــز Pew Research Center for the People and the Press Survey Re Ports

استطلاعا" للرأي العام الأمريكي حول مدى تفضيله العمل العـــسكري ضـــد العراق والصومال والسودان ، وهذا المركز متخصص في استطلاعات الـــرأي العـــام الأمريكي ويعتمد عليه معظم القادة السياسيين والمسؤولين عن وضع السياسات العامـــة والإعلامية كمصدر هام لمعلوماقم وبياناقم التي يحتاجوها قبل اتخاذ أية قرارات .

وشمل هذا الاستطلاع ، الذي أجري في الفترة من ٩ — ١٣ يناير ٢٠٠٢ ، عينة ممثلة للشعب الأمريكي كله على امتداد كل الولايات ويشمل الأفراد من سن ١٨ سنة فأكثر. وتكونت العينة من ١٢٠١ شخص تم تقسيمهم إلى مجمـــوعتين : الأولى مكونة من ٦٠٠ شخص والثانية من ٦٠١ شخص وتم إجراء الاستطلاع عن طريـــق التليفون

وأظهرت النتائج أن ٩٢% من الشعب الأمريكي يشجعون العمل العسكري للقضاء على الإرهاب ويدرك ٨٣% أن الحرب ضد الإرهاب لن تنتهي على الرغم من الانتصار السريع على طالبان

بالنسبة لاستخدام القوة العسكرية ضد العراق ، أيد ٤٩% مـــن المبحـــوثين التهديد باستخدام القوة العسكرية للضغط على العراق لإعادة مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة ، في الوقت الذي فضل فيه ٣٣% رفع العقوبات الاقتصادية عن العراق لإغراء صدام حسين بقبول مفتشي الأسلحة

شجع ٧٣% من المبحوثين الولايات المتحدة على القيام بعمل العسكري ضـــد العراق ، ومن هؤلاء اشترط ٥٣% موافقة حلفاء الولايات المتحـــدة علـــى العمـــل العسكري ووافق ٤٩% على قيام الولايات المتحدة بذلك بشكل منفرد بينمـــا رأى

٤١% فقط أن تقوم الولايات المتحدة بشكل منفرد بالعمل العسكري فقط إذا كانت هناك أسباب ومبررات كافية لضرب العراق

حيث شعر الأمريكيون بعدم جدوى الحل الدبلوماسي مع صدام حسين وفضل ٥٠% من الأمريكيين من أصل أفريقي المحاولة للوصول الى اتفاق للتفاوض قبل اللجوء الى الحل العسكري وبالنسبة لليبراليين فضل ٤٦% منهم الحل الدبلوماسي بينما فضل ٥٧% التهديد بالهجمات العسكرية

ومن الأسباب التي وجدها الأمريكيون مبررا" قويا" لضرب العراق قال ٨٣% أن القوة العسكرية ستكون مبررة ضد العراق ، إذا ظهرت دلائل تشير إلى تورطـــه أو تحريضه على هجمات ١١ سبتمبر ضد الولايـــات المتحـــدة ورأى ٧٧% أن القـــوة العسكرية مبررة إذا كان يطور أسلحة للدمار الشامل بينما وجد ٧٥% أنه سبب قوي لاستخدام القوة العسكرية إذا كان العراق يخفي إرهابيين

ومن الأسئلة في هذا الموضوع : سؤال تم توجيهه لكل العينة بعد الاستماع إلى الأسباب التالية : هل تعتقد أنها سبب قوي أم غير كاف للقيام بعمل عـــسكري ضـــد العراق؟

i- إذا علمت أن العراق يطور أسلحة للدمار الشامل.

ii- إذا علمت أنه ساعد في هجمات ١١ سبتمبر.

iii- إذا علمت أنه يؤوي إرهابيين.

سؤال تم توجيهه لكل العينة : ماذا تعتقد عن كيفية محاولة الولايات المتحـــدة للضغط على صدام حسين لقبول مفتشي الأسلحة ؟ هـــل بعـــرض إزالـــة العقوبـــات الاقتصادية أم التهديد باستخدام القوة ؟

ومع هذا فقد لاقت فكرة العمل العسكري ضد العراق بعض المعارضة خاصة عندما تمت الإشارة إلى الخسائر الأمريكية في حالة العمل العسكري حيـــث انخفـــضت النسبة المؤيدة لاستخدام القوة العسكرية من ٧٣% إلى ٥٦%

وتشير هذه الأرقام إلى أن الإدارة الأمريكية إذا أرادت القيام بحملة عـــسكرية ضد العراق فهذا يحتاج الى بعض الترتيبات للاحتفاظ بالتأييد الشعبي لمثل هذه العمليـــة حيث سيصبح الرأي العام الأمريكي هو المسئول في المقدمة عن ضرب العراق

كما أشار المركز في الاستطلاع الى أن الشعب الأمريكي لديه بعض القلق من القيام بعمل عسكري من طرف واحد ويفضل أكثر أن يكون بالتضامن مع حلفائها كما يجب أن تضع الإدارة الأمريكية في اعتبارها أن الرأي العام الأمريكي يتوقـــع خـــسائر ضخمة في حرب جديدة مع العراق وكيف سيتصرفون إذا تحول العديد من الحلفاء ضد الولايات المتحدة — كما هو متوقع أن يحدث

وبالنسبة للسودان والصومال وغيرها من الـــدول أيـــد الأمريكيـــون العمـــل العسكري للقضاء على الجماعات الإرهابية في الصومال والسودان ومساعدة الدول التي تكافح الإرهاب كما في الفلبين وإندونيسيا ومع استمرار القوات الأمريكية في تعقـــب أسامة بن لادن والمتورطين في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة في أفغانـــستان

بدأت الإدارة الأمريكية في توزيع القوات في الفلبين لمساعدة مانيلا في كفاحهـــا ضـــد جماعة أبو سياف ، التي يعتبرها الأمريكيون تابعة لتنظيم القاعدة وأيد أكثر مـــن ٦٩% أن يمتد الهدف العسكري ليشمل مساعدة الفلبين وإندونيسيا التي تحـــارب الإرهـــاب ويعتقد ٦٨% أن الولايات المتحدة يجب أن تحتفظ بالقوات العسكرية في أفغانـــستان كوسيلة للحفاظ على الحكم المدني بعد انتهاء القصف

وأظهر آخر استطلاع للرأي أجراه المركز أن الرأي العام الأمريكـــي مـــا زال يساند بقوة امتداد الهجمات العسكرية لما بعد أفغانستان ووافق ٧٣% على استخدام القوة العسكرية لتدمير الجماعات الإرهابية في السودان ، ووافق ٦٥% على استخدامها في الصومال ، ويشعر ٢٧% من الأمريكيين بالتعاطف مع روسيا في كفاحهـــا ضـــد الجماعات الثورية الإسلامية في الشيشان ، و ٤٤% لا يشعرون بأي تغير في تعاطفهم مع روسيا ، بينما شعر ٨% بتعاطف بسيط مع الحليف الجديد

واهتم الأمريكيون بإعطاء أولوية كبيرة لبناء دفاع أمن داخل الوطن ، وزيـــادة الإنفاق العسكري لتأمين الولايات المتحدة وذلك بعد أن عبر ٦٢% عن قلقهم مـــن هجمات إرهابية جديدة ضد الولايات المتحدة ، وأعطى ٤٤% أولوية للأمن الداخلي عن تدمير الشبكات الإرهابية في الخارج حيث يشعر الأمريكيون بأنهم سيكونوا ضحية للإرهاب هم أو أقاربهم أو أسرهم

وإلى جانب الحل العسكري أيد الأمريكيون حلولا" أخرى بنسبة أقل من الحل العسكري ولكنها كلها حلول وضعتها الحكومة كبدائل للتنفيذ للقضاء على الإرهاب. وهذه الحلول هي قطع اعتماد الولايات المتحدة على البترول مـــن الـــشرق الأوســـط (٥٣%) وشجع حوالي ٤٢% الولايات المتحدة للديمقراطية في الشرق الأوسط، بينمـــا

يعتقد حوالي ٢٤% أن الحملة لمكافحة الفقر في الشرق الأوسط هي وسيلة هامة جـداً للحد من ظاهرة الإرهاب. وفضل ٢٢% زيادة وقوف الولايات المتحدة بجانب إسرائيل بينما وجد العكس ١٤% وفضل ٥٤% أن تبقى المساندة لإسرائيل مثلما كانت بـلا تغيير.

وبشكل عام فإن هناك قلقاً لدى المواطن الأميركي العادي من تمادي الحكومة في تقييد الحريات المدنية للأشخاص. وذلك على الرغم من محافظة الأميركيين بعد أربعة أشهر من الهجمات الإرهابية على واشنطن ونيويورك، على اعتقادهم بأن الحرب ضـد الإرهاب تتطلب من المواطنين التضحية ببعض الحريات الشخصية حيث رأى ٥٥% أنه على الإنسان العادي التنازل عن جزء من حرياته الشخصية لمحاربة الإرهاب في بلده بينما يرى ٣٩% أن هذا غير ضروري.

ووافق ٦٥% على خطة إدارة بوش لإخضاع المواطنين غير الأميركيين المتهمين بالتورط في الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة إلى المحاكم العسكرية الخاصة وليس الجنائية العادية. وأظهر الاستفتاء الذي أجرته جريدة نيوزويـك الأميركيـة أن هنـاك انقساماً حول هذا الموضوع. فبالنسبة للبيض وافق ٦٨% على هذا الموضوع أما السود فوافق منهم ٤٨%، وبالنسبة للديمقراطيين وافق منهم ٣٠% مقارنـة ب ١٢% مـن الجمهوريين، بينما وافق ٢٦% من المعتقلين.

وبالرغم من عدم وجود فجوة نوعية بين الجنسين حول التنازل عن الحريـات الشخصية ٥٦% للرجال و٥٥% للنساء، إلاّ أنه كانت هناك فجـوة كـبيرة حـول خضوع غير الأميركيين المتهمين بالتورط في الهجمات الإرهابية للمحاكم العـسكرية، حيث وافق ٧٢% من الرجال بينما من النساء وافق ٥٨%.

والخوف الأميركي الآن هو من أن تضع الحكومة الأميركية القوانين التي تكافح الإرهاب على حساب الحريات المدنية للأشخاص العاديين.

****

# بلطجة النفط الأميركية

*(النص الحرفي ل"مبادرة الشراكة بـــين الولايـــات المتحـــدة والـــشرق الأوسط"التي أعلنها وزيـــر الخارجيـــة الأميركي كولن باول)*

" النص الحرفي لخطاب وزير الخارجية الولايات المتحدة الأميركية كولن باول في مؤسسة التراث في واشنطن في ١٢ / ١٢ / ٢٠٠٢، كوثيقة للرجوع إليهـــا عنـــد الحاجة، خصوصا وأن الخطاب – المشروع الذي أعطي اسم "بناء الأمل للسنين القادمة" يشكل منعطفا في السياسة الأميركية الخارجية تجاه "الأصدقاء" و"الحلفاء" قبل الأعـــداء، حقيقيين كانوا أم مفترضين، أم "مخترعين"؟! وفي ما يلي نص الخطاب مع التعقيب عليه:

"شكرا جزيلا يا أيد (مدير مؤسسة التراث) لتلك المقدمـــة الحـــارة.
شكرا لك ولمؤسسة التراث لدعوتي إلى هنا لكي أناقش الآمال والتطلعات التي نتقاسمها مع شعوب الشرق الأوسط.

وأود أيضاً أن أرحب بضيوفنا الممتازين الآخرين من الـــسلك الديبلوماســـي، والعاملين في الكونغرس، والمنظمات غير الحكومية، والقطاع الخـــاص. شـــكرا لكـــم لتخصيصكم الوقت للمجيء اليوم.

وأنه لمن المناسب أن نجتمع في مؤسسة التراث. ذلك أن رؤيا المؤسسة — ببناء وطن "تزدهر فيه الحرية، والفرص، والرخاء، والمجتمع المدني، - هي نفس الرؤيـــا الـــتي نتقاسمها مع شعوب الشرق الأوسط لبلدانها.

الشرق الأوسط هو منطقة شاسعة فائقة الأهمية للشعب الأميركي.فالملايين منا يتعبدون في كنائس، ومساجد، ومعابد يهودية، مبشرين بالديانات العظيمة الثلاث التي ولدت في الأراضي الممتدة في بين الأبيض المتوسط والخليج الفارسي.

ولغتنا وتقاليدنا حافلة بإشارات إلى بيت المقدس وبيت لحم ومكـــة المكرمـــة. ودليل الهاتف لدينا يحمل تلك الأسماء أمثال موسافي، ليفي، وشاهين — التي تتحدث عن جذور عائلات عريقة في الشرق الأوسط إلى بلدنا.

ومن المفجع أن آلافا من رجالنا ونسائنا ماتوا في ١١ أيلول/سبتمبر، ٢٠١، إلى أيدي إرهابيين ولدوا وأصبحوا راديكاليين هناك.

واعترافا منا بأهمية المنطقة كرسنا دمنا ومالنا لمساعدة شـــعوب وحكومـــات الشرق الأوسط على مدى نصف قرن الزمن وأكثر / تعليق ( هل لهذا التذكير علاقة ما بمبلغ ال ٢٩ مليون دولار الذي تعرضه هذه المبادرة؟ أم أنه على علاقة بالنهب الأميركي لثروات الفقراء حول العالم؟ وهل ينكر السيد باول حجم الأربـــاح الأميركيـــة مـــن إحتكارات اميركا لنفط المنطقة وتحكمحا بأسعاره بما يناسب مصالحها؟. وهـــل يمكنـــه العودة الى الصحف الأميركية قبل ١٨ شهرا" من كلمته ليجد فيها التهديدات الأميركية بخفض سعر النفط الى ٥ دولارات للبرميل بهدف افقار المنطقة والتسبب بانهيار اغنيائها)

/ انتهى التعليق. والحقيقة، أن سيرتي في الخدمة العامة مرافقة للأحداث هناك. فقد كان لي امتياز أن أكون رئيس هيئة الأركان المشتركة عندما قادت الولايات المتحدة التحالف الدولي، بما فيه عدد كبير من الدول العربية، الذي أخرج الغزاة العراقيين من الكويـــت. واليوم، كوزير للخارجية، يتطلب الشرق الأوسط قدرا عظيما من اهتمامي.

**الإرهاب والتعاون**

وقد شددت سياستنا الشرق أوسطية كحكومة، على كسب الحـــرب ضد الإرهاب، وتجريد العراق من الأسلحة،وإنهاء التراع بين إسرائيل والفلـــسطينيين. / تعليق ( حبذا لو يشرح السيد باول بهذه المناسبة اسباب امتناعه عن مجـــرد البحـــث في موضوع الانتفاضة في أول زيارة له للمنطقة / شباط ٢٠٠١ عندما أصر علـــى دفـــع المسؤولين العرب للموافقة على ضربة أميركية للعراق وذلك قبل ٧ أشهر من حـــوادث ١١ أيلول؟). / انتهى التعليق

والحرب على الإرهاب لا تقتصر على الشرق الأوسط، طبعا، غير أن أصدقاءنا هناك لهم مصلحة مهمة بها بوجه خاص. فقد عانى كثيرون من بلاء الإرهاب مباشـــرة، ويسرني أن أصدقاءنا سارعوا لمواجهة التحدي بأن منحوا حقوق إنشاء قواعد لعمليـــة "الحرية المستدامة" في أفغانستان، / تعليق ( هل يقصد العدالة البوشية المطلقة ؟ الـــتي لم تعد تنطلي على أحد بدليل الملايين المتظاهرين في أنحاء العالم ضد هذا النوع من العدالة) / انتهى التعليق. ومبادلتهم المعلومات الاستخباراتية وتلك المتعلقـــة بتنفيـــذ القـــانون، واعتقالهم إرهابيين مشتبها بهم، وفرضهم قيودا على التمويل الإرهابي.

وعلينا أيضا، مع دول الشرق الأوسط، ومع أصدقائنا وحلفائنا، ومجتمع الدول، أن نعالج أيضا الخطر الجسيم والمتنامي الذي يشكله نظام صدام حسين العراقـــي. وقـــد

أعطى مجلس الأمن الدولي، موافقته الاجماعية على القرار ١٤٤١، العراق فرصة أخـــيرة للوفاء بالتزاماته. فالنظام العراقي يمكنه إما أن يترع أسلحه. أو أنه سيجرد منها. الخيـــار خيارهم. لكنه لا يمكن أن يؤجل بعد الآن.

ولدينا أيضا اهتمام قومي عميق وثابت بإنهاء التراع الإسرائيلي – الفلـــسطيني. ونحن نعمل مع أصدقائنا في المنطقة ومع المجتمع الدولي، لتحقيق سلام دائم يرتكز علـــى رؤيا الرئيس بوش لدولتين تعيشان جنبا إلى جنب، في سلام وآمـــن. وهـــذا الـــسلاح سيتطلب من الفلسطينيين قيادة جديدة ومختلفة، ومؤسسات جديدة، ونهاية الإرهـــاب والعنف. وإذ يحقق الفلسطينيون تقديما في هذا الاتجاه، سيكون مطلوبا من إسرائيل أيضا أن تأخذ خيارات صعبة، بما فيها إنهاء جميع أوجه النشاط المتعلق بالاستيطان، بـــصورة تتماشى مع تقرير ميتشيل. وكما قال الرئيس بوش، إنه جهد مكثف من قبل الجميـــع، سيكون إيجاد دولة فلسطينية قابلة للحياة أمرا ممكنا في عام ٢٠٠٥. / تعليق ( أي بعد نهاية ولاية بوش صاحب هذه النظرية الفذة التي قد يتهمها الرئيس التالي لبوش بالحماقة معتبرا" كل التنازلات العربية التي تتطلبها هذه النظرية مجرد مراحل!. فهل نسينا مبادرات الرؤساء السابقين؟ وهل يدفع الفلسطينيون اليوم سوى ثمن الإنزلاق الى أوسلو؟ وهـــل يعتقد باول فعلا" بحكمة رئيسه؟) / انتهى التعليق.

إن هدفنا النهائي هو تسوية عادلة وشاملة عربية-إسرائيلية، تكون فيها جميـــع شعوب المنطقة مقبولة من بعضها البعض كجيران تعيش في سلام وأمن.

وقد كانت هذه التحديات ولا تزال في مقدمة سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية، ولسبب وجيه، فكل منها يؤثر تأثيرا عميقا على مصالحنا القومية، وعلى مصالح الشعوب التي تعتبر الشرق الأوسط وطنا لها.

ونحن وما زلنا ملتزمين التزاما عميقا بمواجهة كل واحد من هذه التحديات بهمة وعزم وتصميم.

**الإصلاح والديموقراطية**

وفي الوقت نفسه اصبح واضحا بصورة متزايدة أنه يجب علينا أن نوسع تعاطينا مع المنطقة إذا كان لنا أن نحقق نجاحا. وعلينا خصوصا أن نحقق نجاحا. وعلينـا خصوصا أن نوجه اهتماما متواصلا ونشيطا إلى الإصلاح الاقتـصادي، والـسياسي، والتعليمي. وعلينا أن نعمل مع شعوب وحكومات المنطقة لسد الفجوة بـين التوقـع والواقع التي دعتها الملكة رانيا ملكة الأردن بصورة بليغة، "فجوة الأمل".

وقد أوجد انتشار الديموقراطية والأسواق الحرة، التي الهبتها عجائـب الثـورة التكنولوجية، قوة محركة تستطيع أن تولد ازدهارا ورفقا إنسانيا على نطاق لم يسبق لـه مثيل. إلا أن هذه الثورة خلفت الشرق الأوسط وراءها إلى حد كبير.

لقد قدمت دول الشرق الأوسط على مدى التاريخ، مساهمات لا تقدر بـثمن للعلوم والفنون. لكن اليوم، توجد شعوب كثيرة هناك تفتقر إلى ذات الحرية الـسياسية والاقتصادية، وفاعلية المرأة، والتعليم الحديث التي تحتاج إليها لكي تزدهـر في القـرن ال٢١. وكما جاء في تقرير التنمية الإنسانية العربية العام ٢٠٠٢، الذي وضعه أسـاتذة عرب / تعليق ( وهل يجهل السيد باول أن نتائج هذا التقرير موضوعة سلفا" بإعتمادها لمعايير مخالفة لمنطق البحث العلمي وبعيدة عن الواقع المعيش في المنطقة. فهل يجـوز ان نطالب شعوبا" متوسط أعمارها ٤٥ سنة بضرورة الحد من التوالد؟ إلا إذا كنا ننـوي إبادتها والخلاص منها... إن هذه التقارير تفبرك واقعا" موازيا" وهي أشبه بالهذاء منـها

بالموضوعية...) / انتهى التعليق بارزون وأصدرته الأمم المتحدة فإن ســـكان المنطقـــة يواجهون خيارا أساسيا-بين "كسل وجمود...(و) ونهضة عربية تبني مـــستقبلا زاهـــرا لجميع العرب".

هذه ليست كلماتي. إنها كلمات خبراء عرب نظروا بعمق إلى القضايا، وهـــي تستند إلى الحقائق الصارخة. إن حوالي ١٤ مليون راشد عربي يفتقرون إلى وظائف هم بحاجة إليها لوضع طعام على موائدهم، وسقوف فوق رؤوسهم، وأمـــل في قلـــوبهم. وسيدخل زهاء ٥٠ مليون عربي آخر من الشبان والشبات سوق الوظائف المزدحم أصلا خلال الأعوام الثمانية المقبلة.

إلا أن الاقتصاديات لا تولد ما يكفي من الوظائف. فالنمو ضعيف. والنـــاتج المحلي الإجمالي ل٢٦٠ مليون عربي هو أقل من ذلك الذي لأربعين مليون إسباني، كمـــا أنه أخذ في التدهور حتى أكثر من ذلك. أضيفوا إلى ذلك إنتاج ال٦٧ مليـــون إيـــراني والنتيجة تبقى مجرد ثلثي الناتج الإيطالي.

داخليا، كثير من الاقتصاديات تخلقها التنظيمات والمحسوبيات، وتنغلق في وجه مغامرات في التجارة والأعمال، وفي وجه الاستثمار والتجارة.

**غياب شرق أوسطي**

ودول الشرق الأوسط غائبة أيضا إلى حد كبير عن الأسواق العالميـــة. إنها بالكاد تولد ١ في المئة من صادرات العالم غير النفطية. وهناك عـــشر دول شـــرق أوسطية فقط تنتمي. إلى منظمة التجارة العالمية. وكما حذر الرئيس المـــصري حـــسني مبارك، "إعطاء دعم للصادرات

هو قضية حياة أو موت". / تعليق ( هل تلتزم اميركا بالغات وهل مـــا تـــزال عضوا فيها؟؟؟) / انتهى التعليق.

إن العجز في الفرص الاقتصادية هو تذكرة إلى اليأس. وهو، إضافة إلى الأنظمة السياسية المتصلبة، الها لخميرة خطيرة حقا. وإلى جانب اقتصاديات أكثر تحررا، يحتـــاج كثير من شعوب الشرق الأوسط إلى صوت سياسي أقوى.

إننا نرفض الفكرة المتعالية القائلة إن الحرية لن تنمو في الشرق الأوسط، أو أن هناك أي منطقة في العالم لا تستطيع أن تحتمل الديموقراطية.

وقد جسد الرئيس بوش تطلعات الشعوب في كل مكان عندما قال، في خطابه في وست بوينت، إنه عندما يتعلق الأمر بالحقوق والحاجات المشتركة للرجال والنساء، ليس هناك تصادم حضارات. فمتطلبات الحرية تنطبق كليا على أفريقيا وأميركا اللاتينية وكامل العالم الإسلامي". / تعليق ( لا نعرف ما إذا كانت هذه الديموقراطيـــة تتـــسع لمحاسبة بوش وفريقه على السبيل التي سلكها للوصول الى البيت الأبيض؟. ولا إذا كانت تتضمن حرية شراء الايرباص بدل البوينغ الأميركية؟. ولا تضمنها لإمكانيـــة المطالبـــة بتفعيل الأسلحة المباعة للدول العربية بدون كومبيوترات تشغيلها؟... إننـــا نحتـــاج الى تعريف لهذه الديموقراطية!) / انتهى التعليق.

وإذا أعطيت الشعوب خيارا بين الطغيان والحرية، فإلها ستختار الحرية. علينـــا فقط أن ننظر إلى شوارع كابول، المزدحمة بأشخاص يحتفلون بانتهاء حكم طالبـــان في العام الماضي. / تعليق ( من يقوم بالعمليات في أفغانستان اذا وهل نـــستمر في تجاهـــل الاعتراف وهوخطيئة فوكوياما حيث الاعتراف بالباشتون وبالديانة الاسلامية اهم مـــن

الحرية المشروطة بوجود عسكري اميركي. ثم لماذا تأخرت شفقة ورحمة اميركا حتى الآن وهي التي ورطت الافغان في الحرب ضد دولة كانت عظمى هي الاتحاد الـــسوفياتي) / انتهى التعليق.

وهناك بصيص أمل في الشرق الأوسط أيضا. فدول من أمثال البحرين، وقطر، والمغرب قامت بإصلاحات سياسية جريئة / تعليق ( ربما اهمها توزير اليهـــود واقامـــة علاقات مباشرة مع اسرائيل على حساب استقلالها وقهرا" لارادة شعوبها فهل هذه هي ديموقراطية باول؟؟) / انتهى التعليق.. والمنظمات المدنية ناشطة بصورة متزايدة في كـــثير من الدول العربية، تعمل في قضايا تتعلق بالخبز والزيدة مثل تأمين بطاقات هوية للنـــساء توجد حاجة ماسة إليها.

ونحن نرى أيضا ثورة عارمة في وسائل الإعلام، من محطات التلفزيون الفضائية إلى المجلات أسبوعية صغيرة الحجم. وعلى الرغم من أن البعض منها لم يـــرق بعـــد إلى مستوى مسؤولياته للقيام بتغطية مسؤولة وتقديم معلومات واقعية، فإنه يجعل المعلومات في متناول أعداد من السكان أكثر من أي وقت مضى.

ومع ذلك، ما زالت تحكم كثيرا من الشرق أوسطيين أنظمة سياســـة مغلقـــة. وكثير من الحكومات يكافح مؤسسات المجتمع المدني باعتبارها تهديدا، بـــدلا مـــن أن يرحب بها كأساس لمجتمع حر، ديناميكي، ومبشر بالأمل / تعليق ( نجحت المخـــابرات الاميركية الممولة غير المباشرة لمعظم هذه المؤسسات في تحويلها من مؤسسات بديلـــة الى سلطة موازية. بل أن اميركا تحاول توظيف هذه المؤسسات لتوليد جيل مـــدجن مـــن السياسيين المستقبليين الخاضعين للإيهامات الأميركية) / انتهى التعليق. ناهيك عن أن لغة الكراهية والاستبعاد والتحريض على العنف لا تزال هي اللغة السائدة.

وكما قال الملك محمد عاهل المغرب لبرلمان بلده قبل سنتين، إنه لتحقيق التنمية، والديموقراطية،والتحديث، من الضروري تحسين وتقوية الأحزاب السياسية، والنقابـات العمالية، والجمعيات، ووسائل الإعلام وتوسيع مدى المشاركة".

وأخيرا ، إن عددا كبيرا من أطفال المنطقة يفتقر إلى المعرفة ليستفيد من عالم من الحرية الاقتصادية والسياسية. فعشرة ملايين طالب في سن الدراسة هم إما في المنازل، أو يعملون، أو في الشوارع بدلا من أن يكونوا في صفوفهم المدرسية. وحوالي٦٥ مليونا من أبنائها لا يحسنون القراءة أو الكتابة. دع عنك مساعدتهم في دروسهم. وبالكاد يستطيع شخص واحد من كل مئه الوصول إلى كومبيوتر. ومن أولئك النصف فقـط يـستطيع الوصول إلى العالم الأوسع عبر الإنترنت.

وحتى عندما يذهب الأطفال فعلا إلى المدرسة، غالبا ما يتعذر علـيهم تعلـم المهارات التي يحتاجون إليها لكي ينجحوا في القرن ال٢١. "التعليم" غالبـا مـا يعـني الاستظهار من غير فهم بدلا من التفكير الخلاق الحيوي الضروري للنجـاح في عالمنـا المتصف بالعولمة.

وقد وجد واضعو تقرير التنمية العربية أن "التعليم أخذ يفقد دوره الهام كوسيلة لتحقيق تنمية اجتماعية في الدول العربية، متحولا عوضا عن ذلك إلى وسيلة لاسـتدامة الفقر والطبقات الاجتماعية". وتلك إدانة دامغة ودعوة للعمل.

**التخلف والنساء!**

هناك موضوع دائم يبرز من خلال هذه التحديات، ألا وهو تهمـيش المرأة في كثير من دول الشرق الأوسط. فأكثر من نصف النساء في العالم العـربي هـن

أميات. وهن يعانين أكثر من جراء البطالة والافتقار إلى فرص اقتصادية. وتشكل النساء أيضا نسبة من أعضاء البرلمانات في العالم العربي أصغر منها في أي منطقـــة أخـــرى في العالم. وإلى أن تطلق دول الشروق الأوسط العنان لقدرات النساء فإنها لن تبني مستقبلا من الأمل.

إن أي معالجة للشرق الأوسط تتجاهـــل تخلفـــه الـــسياسي، والاقتـــصادي، والتعليمي، ستكون مبنية على رمال.

سيداتي، سادتي، حان الوقت لوضع أساس متين من الأمل. إنني أعلـــن اليـــوم مبادرة تضع الولايات المتحدة بثبات في جانب تغيير، وإصلاح، ومستقبل حديث للشرق الأوسط.

خلال زيارة الرئيس مبارك لواشنطن في آذار/مارس الماضي، طلب مني الرئيس بوش أن أتولى رئاسة جهد جديد للحكومة الأميركية لدعم شعوب وحكومات الشرق الأوسط في جهودها لمواجهة هذه التحديات الإنسانية الملحة.

ويسرني أن أعلن النتائج الأولية لعملنا وهي كناية عن مجموعة مبتكـــرة مـــن البرامج وإطار لتعاون مستقبلي نسميها مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والـــشرق الأوسط.

إن مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط هي جـــسر بـــين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، وبين حكومتينا وشعبينا، يسد فجوة الأمل بالطاقة، والأفكار، والأموال.

ومبادرة شراكتنا هي استمرار، تصعيد الالتزامنا القائم منذ زمن طويل بالعمل مع جميع شعوب الشرق الأوسط لتحسين حياتها اليومية ومواجهة المستقبل بأمل. وكما قررنا إعادة الانتساب إلى اليونسكو هو رمز لإلتزامنا بتعزيز حقوق الإنسان والتـــسامح والتعلم، فإن هذه المبادرة هي دليل قوي على التزامنا بكرامـــة الإنـــسان في الـــشرق الأوسط. / تعليق ( وهل يذكر السيد باول سبب انسحاب بلده من هذه المنظمـــة؟. ثم هل بقيت من منظمة دولية ، بما فيها الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، بمعزل عن التوظيف المناسب لأميركا والإستغلال لمصالحها تحت وطأة التهديد والامتناع عن دفع حـــصتها والعزوف عن احترام ارادة الشعوب عبرها!. هل يقول لنا السيد باول عما تنوي بلاده فعله بشأن المحكمة الجنائية الدولية؟ وهل هي مصرة على إعتبار جرائم الحرب حقا" من حقوقها وحقوق أصدقائها؟.) / انتهى التعليق .

إننا سنخصص بصورة أولية مبلغ ٢٩ مليون دولار لجعل هذه المبادرة تنطلـــق بقوة. وسنعمل مع الكونغرس للحصول على تمويل جوهري إضافي للعام القادم. وهـــذه الأموال ستكون زيادة على الأكثر من مبلغ الألف مليون دولار الذي نقدمه كمساعدة اقتصادية للعالم العربي كل عام.

**ثلاث ركائز**

**وتستند مبادرتنا إلى ثلاث ركائز:**

إننا سنشترك مع مجموعات من القطاعين الخاص والعام لسد فجوات الوظائف بإصلاح اقتصادي، واستثمار الأعمال، وتنمية القطاع الخاص.

وسنشترك مع قادة المجتمع / تعليق ( ما هي معايير إختيار المخابرات الأميركية لقادة المجتمع؟ هل هم شركاء سعد الدين ابراهيم في الدول العربية مـــثلا" ؟) / انتـــهى

التعليق. لسد فجوة الحرية بمشاريع لتقوية المجتمع المدني، وتوسيع المشاركة السياسية ورفع أصوات النساء.

وسنعمل مع المربيين لسد فجوة المعرفة بمدارس أفضل ومزيد من الفرص للتعليم العالي. / تعليق ( وهل يدخل التضييق على الطلاب العرب في أميركا ودفعهم للهرب من الاضطهاد العرقي في إطار سد هذه الفجوة؟.) / انتهى التعليق.

سيداتي، سادتي، الأمل يبدأ براتب عمل. وذلك يتطلب اقتصادا مليئا بالحيويـــة والنشاط. وعن طريق مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط، ســـنعمل مع حكومات لإنشاء أحكام وأنظمة اقتصادية ستجتذب الاســـتثمار الأجـــنبي وتتـــيح للقطاع الخاص أن يزدهر.

وسنساعد شركات الأعمال الصغيرة والمتوسطة على تحقيق وصول إلى الرأسمال الذي هو قوام الحياة. وكخطوة أولى، يسرني أن أعلن أننا سننـــشئ صـــناديق أمـــوال للمشاريع في الشرق الأوسط، على غرار المشاريع البدء في الاستثمار فـــورا في أعمـــال جديدة واعدة. / تعليق ( وهل تكفي ال ٢٩ مليـــون دولار لكـــل هـــذه الـــصدقات والتبرعات والمشاريع؟) / انتهى التعليق.

سنساعد أيضا مزيدا" من الدول على المشاركة في سخاء الاقتـــصاد العـــالمي. وذلك يعني تقديم مساعدة فنية إلى الدول الأعضاء الطموحة في منظمة التجارة العالميـــة كالمملكة العربية السعودية، والجزائر، ولبنان، واليمن، لتلبية معـــايير منظمـــة التجـــارة العالمية. وهو يعني البناء على اتفاقنا الناجح للتجارة الحرة مع الأردن بالبدء بمفاوضـــات اتفاق تجارة حرة مع المغرب. وهو يعني الاستمرار في العمل مع دول كمصر والبحـــرين

لاستكشاف طرق لتعزيز علاقتنا الثنائية من التجارة الاقتصادية، بما في ذلك عبر اتفافات تجارة حرة ممكنة.

وتتطلب الاقتصاديات المنفتحة أنظمة سياسية منفتحة. وعليه فإن الركيزة الثانية لمبادرتنا من الشراكة ستدعم المواطنين عبر المنطقة الذين يطالبون بأصواتهم السياسية.

وقد بدأنا المشروع الأخباري الأول في هذا المجال الشهر الماضي، عندما أحضرنا وفدا من ٥٥ زعيمة سياسية عربية إلى الولايات المتحدة لمشاهدة انتخاباتنا النصفية.

وقد عقدت اجتماعا عظيما جدا مع هذه المجموعة الرائعة، وكـــان التزامهـــا وطاقتها مصدر إلهام لي. وقد وجهت إلى أسئلة صعبة، وناقشنا القضايا كما يفعل الناس في مجموعات حرة.

وقد تحدثت أولئك النساء إلي ببلاغة عن قلقهن بالنسبة إلى المستقبل وأحلامهن بعالم حيث يمكن لأطفالهن أن يعيشوا في سلام. وحدثني عن أملهن بأن يـــرين نهايـــة للتراعات التي تشل منطقتهن. وتحدثن إلي كيف يردن أن يتحكمن بحياقمن ومصائرهن. وطلبن أن يعرفن المزيد عن الديموقراطية الأميركية، وكيف يجعلن أصواتهن أكثر فعالية.

وتتطلب زيادة المشاكة السياسية أيضا تقوية المؤسسات المدنية التي تحمي حقوق الأفراد وتوفر فرصا للمشاركة. وعن طريق مبادرتنا للمشاركة سندعم هذه الجهود.

ولكي تعمل الاقتصاديات الحرة والأنظمة السياسية بنجاح فإنها تحتاج إلى مواطنين متعلمين، وعليه ستركز الركيزة الثالثة لمبادرة التعاون بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط على إصلاح تعليمي.

ستشدد برامجنا على تعليم الفتيات. فعندما تتحسن نسبة التعليم بين الفتيات، تتحسن كذلك جميع مؤشرات التنمية المهمة الأخرى في أي بلد. ولقد أصاب شاعر النيل حافظ إبراهيم عندما قال:

"الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق"

وسنوفر منحا دراسية لإبقاء الفتيات في المدارس وتوسيع التعليم للفتيات والنساء. وبصورة أوسع، سنعمل مع الأبوين والمربين لتعزيز الإشراف المحلي وإشراف الأبوين على الأنظمة المدرسية.

***

# الفوضى الإستراتيجية الأميركية

همس مستشار غورباتشوف المدعو جورجي آباتوف في أذن أحد المـــسؤولين الأميركيين بالعبارة التالية :"... إننا نصيبكم بخطب جللٍ فنحن نجردكم من العـــدو.." وفي نشوة النصر فإن مثل هذه العبارة لا تترك أي صدى سوى الظن بأنها محاولة تعويضية للموقف السوفياتي الضعيف. ثم انتهت الحرب الباردة وانـــهار جدار بـــرلين ليخلّـــف وراءه عالماً شديد الإختلاف إلى حدٍّ يصعب استيعابه فقد تحولت دول الكتلة الشرقية إلى دول وطنية وتفكك الإتحاد السوفياتي إلى جمهوريات نفضت عنها ثوب الشيوعية لترتدي الأثواب الوطنية التي كانت ترتديها قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧. وهكذا بـــدأت النهايـــة بفوضى جغرافية لا مثيل لَها في تاريخ البشرية وكان من الطبيعي أن تَمتدّ أصداء هـــذه الفوضى إلى دول العالم التي كانت موزعة بين الجبارين. وبِمعنى آخر فـــإن الفوضـــى تحولت إلى عالمية. مِمّا أغرى الدول القومية في كل منطقة للتحرك لِملء الفراغ الـــذي خلّفته الشيوعية. وهذا التحرك لم يكن على صعيد التسلح والأعمال العسكرية فقط بل تعداه إلى صعيد التحرك للسيطرة الاقتصادية. وأخطر من هذين التحركيِن ذلك التحرك الساعي لتكوين تجمعات عرقية. وهذه التحركات تفجّر بعضها بشكل مباشرٍ في حـــين يَعِدُ بعضها بالتفجر لاحقاً. مِمَا يجعل العالم في حالة الفوضى الاقتـــصادية والعـــسكرية والجغرافية.

أمام هذه الفوضى المتعددة الصعد كان لا بد للولايات المتحدة من إيجاد صيغ تكتيكية للتعامل مع الواقع الجديد. وهي قد أجادت في وضع هذه الصيغ لكنـــها افتقدت فجأة للرؤية الاستراتيجية الطويلة الأمد لمصالحها ولدورها في العالم. وفقـــدان هذه الرؤية يجعل من مصطلح "النظام العالمي الجديد" عبارة بدون مضمون. بل أنّ هـــذا المصطلح يكاد يتطابق مع مصطلح سابق له تاريخياً وهو مصطلح الإمبراطورية الرومانية

المقدسة التي لم تكن لا إمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة !. فهل تـــصح مثـــل هـــذه المقارنة؟. لنأخذ أولاً كلمة "نظام" حيث نجد عالَمَ ما بعد الحـــرب البـــاردة مزروعـــاً بالنِّزاعات فنعدد :

١- أزمة ناغورني-كاراباخ — (أذربيجان — أرمينيـــا) ٢- حـــرب عاصـــفة الصحراء

٣- حرب البوسنة - الهرتزك ٤-حرب كوسوفو ٥- صراع القبائل الأفريقية و٦- العنف الجزائري و٧- أزمة كشمير ٨- أزمة تايوان ... الخ.

والولايات المتحدة لم تكن مجرد متفرج في هذه النّزاعات أو مجرد متـــدخلٍ (أو حتى طرف) لِحلّها. بل هي عانت من أنعكاساتِها داخل الولايات المتحدة نفسها ولعل انفجار أوكلاهوما أحد أخطر الأمثلة حيث يتساءل هنتنغتون في مقالته "تآكل المـــصالح الأميركية" عن إمكانية حدوث مثل هذا الإنفجار لو كان للولايات عدواً ما ؟! حيـــث يخلص هنتنغتون لمعادلة قوامها : استحالة توجيه المصالح الأميركية (وضـــع اســـتراتيجية متماسكة) في غياب العدو. مِمّا يعني ضمناً اعتراف هنتغتـــون بغيـــاب مثـــل هـــذه الإستراتيجية. وتردّدت تُهمة الغياب هذه على لسان المستقبلي الفرنسي جاك آتـــالي إذ يقول : "إن إدارة كلينتون تريد أن تفرض حلولاً مؤقتة ومتخيلة لا ترتكـــز إلى رؤيـــة استراتيجية متماسكة" وفي الإتجاه عينه يقول غور فيدال بأن إدارة كلينتون تتجنب إتخاذ خيارات واضحة أو تقديم رؤية كلية متماسكة. وحول هذا الإطار تتوالى الإنتقـــادات للسياسة الأميركية من داخل الولايات المتحدة وخارجها. ولكن دون أن يعـــني ذلـــك إهمال النّجاحات الاقتصادية التي حققتها إدارة كلينتون وهي نجاحات أكيدة وملموســـة وأن كانت تستند إلى صيغ تكتيكية غير قابلة للإعتماد كاستراتيجية. وبعضهم يعتبر أن فقدان الإستراتيجية يدفع بالإدارة الأميركية للتعامل مع الأزمات من مبدأ : علاج كـــل

حالة بحالتها (Case by Case). وفي ذلك ثغرة خطيرة لأن الكـــلّ يختلــف عـــن مجموعة الأجزاء. فإذا ما عدنا للأخطار الأميركية الداخلية، التي أشار إليها هنتنغتـــون، أمكننا القول بأن الصيغة التكتيكية التي يعتمدها كلينتون هي تصدير الفوضى إلى العـــالم حتى لا تتفجر داخل بلاده. وهذا يفسر العديد من المواقف الأميركية في قيادة المفاوضات وإيصالها للطرق المسدودة التي يعقبها الطوفان. ومن الخطأ تجاهل الخوف الأميركي مـــن الفوضى الداخلية خصوصاً بعد أن نعرف بأن الحكومة الفيدرالية تنفق ســـتة مليـــارات دولار سنوياً لمكافحة الإرهاب الداخلي. وهو ضعف المبلغ الذي وفرته مـــن خفــضها للمعونات الخارجية بعد انتهاء الحرب الباردة. إذ تدنت هذه المعونات من اثنَـــي عـــشر مليار دولار إلى تسعة مليارات دولار سنوياً(١).

ولنأخذ كلمة "عالَمي" فنجد أن تناقضات الداخل الأميركي تتحدى هذا التعبير فالميليشيات الأميركية البيضاء (المسؤولة عن انفجار أوكلاهوما) تطالب بسيادة الجـــنس الآري (الأبيض) وطرد الساميين والملونين(٢). وهو طرح تؤدي تداعياتـــه إلى تَهديـــد النسيج الأميركي التعددي. وإلى عودة كل جماعة إثنية إلى قيمها الخاصة المتعارضة مـــع القيم الأميركية. ومن هنا الاستنتاج بأن تناقص القدرة الأميركية على استيعاب التعدّدية في داخلها يوازي استحالة تحويل قيمها إلى عالمية. وبالتالي فإن مقطع "العالَمي" يـــصبح بدوره كلمة من غير مضمون ونأتي إلى كلمة "الجديد" حيث العجز الأميركي عن إنتاج استراتيجية جديدة ملائمة للواقع العالَمي الراهن، يعني أن الجديد لم يحن أوانـــه بعـــد؟ والفوضى قديمة قدم التاريخ نفسه وبناء عليه فإن "النظام العالَمي الجديد" ليس بالنظـــام ولا بالعالَمي ولا هو بالجديد.

٢- الشرق الأوسط وصدام الحضارات

عندما يطرح الإسلام كعدو حضاري فإن الجمهور الغربي يفسر هذا الطرح عبر دلالاته الخاصة إذ يعتبر هذا الجمهور أن كل دولة إسلامية هي دولة عربية بمـــا يعـــادل القول بأن صدام الحضارة الغربية سيكون صداماً مع قوميات دينية (العرب والـــصينين).

بهذا يحتفظ هذا الطرح بعضوية كافة دول الشرق الأوسط في نادي العـــداء لأميركـــا (باستثناء إسرائيل اليهودية) وللغرب عموماً. وهكذا فإن عضوية النادي تضم بالإضـــافة للدول العربية (بما فيها فلسطين — حماس) كلاً مـــن تركيـــا - وإيـــران وأفغانـــستان وباكستان وصولاً إلى الصين. دون إهمال الحزام الأوراسي المسلم (جهموريات سوفياتية مسلمة سابقة). وهكذا فإن مقولة صدام الحضارات تنعكس أول ما تـــنعكس بتغـــيير الدلالة الديموغرافية لمصطلح الشرق الأوسط لتحوله إلى دلالة الشرق المسلم. بما في ذلك من توسيع لرقعته الجغرافية. وهو توسيع يجد تبريره في تغيير جغرافية المصالح الإستراتيجية لدول المنطقة في فترة ما بعد الحرب الباردة. حيث نلاحظ رغبة كل دولـــة في تـــأمين مصالحها الإستراتيجية في هذا الفراغ ونعدد :

١- تركيا: التي تحاول ملء الفراغ في جمهوريات آسيا الوسطى ذات الأصول التركية ولدى الأقلّيات التركية في دول أوروبا الشرقية ومنها ألبانيا المسلمة .

٢- ايران : التي احتوت أعداد كبيرة من الأذربيجانيين هاجرت إليها عقب قيام الدولة الشيوعية. والتي تجد لنفسها حقوقاً في كافة جمهوريات آسيا الوسط المتاخمة لحدودها. كما في أفغانستان والدول التي تحوي أقلّيات شيعية.

٣ - اسرائيل: التي تطالب بحصتها في ثروات آسيا الوسطى وتتخـــذ مـــن تحالفها مع تركيا مدخلاً لتأمين هذه المصالح لكلا البلدين.

٤- الدول العربية : الباحثة عن تحالفات جديـــدة لِحمايـــة ثرواتهـــا مـــن الاستنـــزاف وهكذا فإن حدود الشرق الأوسط الجغرافية تشهد توسعاً لا يمكن للتسمية أن تستوعبه. كما تشهد المنطقة احتمالات تصادم المصالح في ما بينها لدرجة يمكنها أن

تصل إلى حدود التفجير. ولو كانت فرصة "صدام الحضارات" قابلة للاعتماد والتصديق لكانت قارب نجاة لِهذه الدول وحماية لَها من تفجر صراعاتِها الخارجية والداخلية على حد سواء. ولا نستثني إسرائيل كونَها أكثر دول المنطقة استفادة من هذه المقولة.

وهذه الوقائع تدفعنا للتساؤل عما إذا كان من الممكن احتواء صراعات المنطقة و الحؤول دون تفجرها لنجد أنفسنا في شرق أوسط مُمتد ومتجاوز لِحدوده الجغرافية ؟

أم أن الصراعات ستفجر هذه المنطقة لتحدث فيها تغييرات جذريـــة يـــصعب تحديدها بدقة؟ وهنا نجد أمامنا احتمالات متعددة :

أ- أن تتابع الولايات المتحدة إثارة مشاكل الأقليات في المنطقة فتقضي بذلك على توازنها الديموغرافي الراهن. بِما ينْزع عن المنطقة طابعها الإسلامي أو العربي المهيمن. فتصبح قادرة على استيعاب الحاقات جيوسياسية تمهد الطريق أمام شرق أوسطية ممتـــدة وغير قادرة على رفض عضوية إسرائيل ؟

ب- أن تركز الولايات المتحدة على مصالحها في آسيا الوسطى (حيث بلغت استثماراتها حدود الـــ ٢٠٠ مليار دولار) فتعمد إلى إلْهاء الدول المتاخمة لآسيا الوسطى بجملة مشاكل داخلية تجعلها عاجزة عن تَهديد هذه المـــصالح ؟ وبـــذلك تمتنـــع عـــن استمرارية الشراكة مع إسرائيل. مقابل ضمان أمنها بتسوية مع العرب أو بالحفاظ على تفوق عسكري يبقيها في إطار حرب باردة معهم.

ج- أن تسعى الولايات المتحدة لاستغلال القبول السياسي الذي لم يسبق لَها و أن تمتعت به في دول المنطقة لتحول كامل المنطقة إلى حزام أمني في مواجهـــة الخطـــر

الأصفر سواء كان صينياً أو يابانياً ؟ مع ما يتيحه ذلك من استفادهما من ثروات المنطقة ؟ مع تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة عولمة نموذجية ؟

ومهما يكن فإن غموض مستقبل المنطقة مرتبط بغموض الإستراتيجية الأميركية فلو نحن تجرينا أوضاع المنطقة ما بعد حرب "عاصفة الصحراء" لوجدنا أنها شديدة السوء بالمقارنة بفترة ما قبلها. وهذا يشكل إدانة جماعية، من أطراف متناقضة، للسياسة الخارجية الأميركية. فعداك عن الخسائر الخليجية الفادحة والانهيار العراقي فإنك تجد أن الانعكاسات الاقتصادية لهذه الحرب تؤثر على دول الجوار الجغرافي وعلى دول العمالة البعيدة عن المنطقة. دون تجاهل العواقب التفككية لهذه الحرب. حيث أدت لوضع مشاكل دول الشرق الأوسط الداخلية على نار متقدة . حتى بتنا نلاحظ علائم التفكك وكأنها تنتظر الفرص حتى تنفجر.

ويكفي أن نذكر في هذا المجال الأزمات التالية :

أ- احتمالات تقسيم العراق والتي تولد انقسامات عنقودية في أرجاء المنطقة في حال حدوثها.

ب- أزمة الأقلية الشيعية في الخليج (البحرين والعراق خصوصاً).

ج- أزمة الجزر الثلاث بين الإمارات وإيران.

د- أزمة المياه مع تركيا.

٥- توجه المعارضة الداخلية باتجاه لعب دور السلطة الموازية وليس البديلة.

وهذا دون أن نذكر الإزمات المزمنة للمنطقة والتي عادت للظهور .

أما إسرائيل فقد تضررت بدورها من عاصفة الصحراء فهي وأن حققت فائدة اقتصادية منها فإنّها قد أفقدتْها دور الناطق باسم الولايات المتحدة والمدافع عن حقوقها في المنطقة. وهو دور طالما أحسنت إسرائيل استغلاله. وتلازم فقدان هذا الدور مع الحد من صلاحيات إسرائيل وتعرضها لضغوطات أميركية لم تتعرض لِمثلها منذ مـــشاركتها بالعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦. وانعكس ذلك في داخل إسرائيل بتصاعد تأثير الأصـــولية اليهودية واغتيالِها لرابين وإتيانِها بنتنياهو الذي صرح أن هنالك ٤ إسرائيلات ولـــيس إسرائيل واحدة في إشارة له إلى تفجر التناقضات الإسرائيلية — الداخلية. وها هو باراك يعود بإرادة أميركية ليكمل دور رابين وليتعرض لعدة محاولات اغتيال لم يعلن عنها بعد لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو هل السلام بالنسبة لأميركا هو مسألة استراتيجية أم مجرد صيغة تكتيكية ؟ وبالتالي هل هو سلام ؟ أم تسوية ؟ أم حرب باردة ؟

٣- الموقف الأميركي من السلام الشرق أوسطي

أن تحديد هذا الموقف يقتضي أولاً الإجابة على الموقف الأميركي من صـــدام الحضارات. فكما أسلفنا فإن هذا الصدام يعني الصدام مع كافة الدول الشرق أوســطية وبالتالي فإن الإحتواء الأميركي لِهذه الدول يصبح ضرورياً. وإسرائيل هي أداة الاحتواء المفضلة. وفي هذه الحالة فإن السلام يفقد مبرراته في ظل الحمايـــة الأكيـــدة للمـــصالح الأميركية في المنطقة (عبر تواجد قوات أميركية فيها).

وكان الرئيس كلينتون قد أعلن رفضه لِهذه المقولة(٣) وبالتالي إسقاطها مـــن الحسابات الإستراتيجية الأميركية(٤). ويحق لنا أن لا نخشى تغيير الـــرئيس الأميركـــي القادم لهذا الموقف وذلك لعدة أسباب أهمها :

١- أن السيطرة اليهودية في الإدارة القادمة لن تكون أكبر أو أكثر تأثيراً منها في إدارة كلينتون الثانية .

٢- أن الإسلام لا يمكنه في المدى المنظور أن يشكل خطراً حقيقياً على المصالح الأميركية.

٣- أن صدام الحضارات ليس سوى شائعة (سنشرح ذلك لا حقاً).

فإذا ما حق لنا بعد ذلك إسقاط مقولة الصدام مع الإسلام، وأضفنا إليه الرغبة الشخصية الملحة لكلينتون كي ينهي عهده بمثل هذا الإنجاز، يحق لنا التأكيد على وجود موقف أميركي حاسم لتحقيق السلام العربي – الإسرائيلي ( عبر تسويات تتلائم وواقع القوة الإسرائيلية).لكن سيرورة السلام على طريقة كلينتون هي سيرورة من نوع خاص بحيث لا يمكن لأحد أن يتوقع من الرئيس المقبل اعتماد طريقة الحكم التفاوضـــي الـــتي يعتمدها كلينتون. وتتجلى طريقة كلينتون بالتورط في المفاوضـــات والـــدخول طرفـــاً ضاغطاً باتجاهين. فيها وفي النهاية فإنه ينحاز للطرف الأكثر خضوعاً لضغوطاته. فهو قد أجبر الفلسطينيين في واي بلانتيشن على تقديم تنازلات تحرجهم أمام الرأي العام العربي والفلسطيني في حين امتنع نتنياهو عن التجاوب ثم عاد وتراجع عن التنازلات المحـــدودة التي قدمها. وعندها بلغ التورط الشخصي لكلينتون حدود إعلان العداء لنتنيـــاهو مـــع زيارة مجاملة للسلطة الفلسطينية.

أما في مفاوضات "رامبوييه" المتعلقة بكوسوفو فقد ضغط كلينتون على إبراهيم روغوفا (ممثل الكوسوفيين الألبان) وقاده إلى تنازلات هزت صورته لدى الكوســوفيين ولما رفض الصرب تقديم تنازلات مقابلة كانت حرب كوسوفو وإعلان كلينتون عـــن ضرورة القضاء على شخص ميلوسوفيتش.

والمشكلة الآن أن ما تبقى لكلينتون في البيت الأبيض لن يكون كافياً لإنجــاز مهمة السلام وهذا سوف يسبب له إحباطاً قد يؤدي به لاتخاذ خطوات انتقاميـــة مـــن الطرف الأقل خضوعاً لضغوطاته. ولكنه على أية حال سيترك المهمة للرئيس المقبل الذي سيواجه خطر نهاية الفوضى الاصطناعية (أو ما سبق أن أسميناه تصدير الفوضى. الــذي أجاد كلينتون لعبته وحقق المكاسب الاقتصادية لبلاده عبره) كما سيكون اهتمامه منصباً على حماية المصالح الأميركية في أماكن أخرى من العالم (دول بحر قــزوين خــصوصاً) وأيضاً فإنه لن يكون مستعداً لاعتماد طريقة كلينتون التورطية الأمــر الــذي ســيتيح لإسرائيل هامشاً واسعاً للمناورة. فإسرائيل ترفض توقيع السلام في عهد كلينتون. وذلك لجمله أسباب أهمها :

١- أن السلام اليهودي مع العرب لا يمكنه أن يكــون تكتيكيـــاً لكونـــه اعترافاً ناجزاً بالأغيار (أي غير اليهود). وبالتالي فإن خطوة كهذه تقتضي التعرف الدقيق على حيثيات الإستراتيجية الأميركية (أقله حيال المنطقة) وبما أن هذه غائبة فإن إسرائيل سوف تماطل.

٢- كانت إسرائيل تتوقع تغيرات عميقة في الأنظمة السياسية لدول المنطقة. بل أنّها مساهمة فعالة في التخطيط لهذه التغيرات. وبالتالي فإنها تفضل التريـــث بانتظـــار

مناخات أفضل. بل أن نجاحها في إعادة ترتيب المنطقة قد يساعد على تجنـب كـأس السلام التي تفجر تناقضاتها الداخلية.

٣- كانت الشيوعية مبرر المعونات الخارجية الأميركية وبانقضائها انتفى هـذا المبرر. وباتت الولايات المتحدة تسعى لإلغاء هذا البند. أو على الأقل تقليصه إلى الحدود الدنيا وعليه فإن تحقيق السلام العربي – الإسرائيلي سيريح الخزينة الأميركية من المعونات المقدمة لإسرائيل. ومن الطبيعي أن تسعى هذه الأخيرة للاحتفاظ بأكبر قدر ممكن مـن هذه المعونات.

٤- أن حاجة إسرائيل (بعد السلام) للأسواق العربية سيحرمها مـن متعـة الانغلاق على ذاتِها الأمر الذي يمكنه أن يشكل خطراً على تركيبتها الديموغرافية ذلـك أن قسماً كبيراً من اليهود الشرقيين يحلم بالعودة إلى البلدان التي أتوا منـها (خـصوصاً اليهود الإيرانيين والمغاربة).

٥- أن السلام سيحرم إسرائيل من قدرتها على التحكم بالتكاثر الـسكاني الفلسطيني حيث تعتمد حالياً وسائل (منها هدم البيوت ومنع بنائها) لا يمكن اعتمادهـا بعد السلام.

٦- يمكن للسلام أن يعرض الاقتصاد الإسرائيلي لأزمات واختناقات يصعب التعامل معها بعد أن تعودت إسرائيل على اقتصاد المعونات. وهذا يعني دخول إسـرائيل في سوق المنافسة وهو دخول قد يولد تناقضات وصراع مصالح بينها وبين بعض كبـار الأثرياء اليهود.

**خلاصة القول أن الفترة المتبقية من ولاية كلينتون ستشهد التجاذبـات التالية :**

١- الرغبة الشخصية الجامحة للرئيس الأميركي لتحقيق السلام في الشرق الأوسط .

٢- محدودية صلاحيات الرئاسة الأميركية بالمقارنة مع الرغبة الشخصية لكلينتون.

٣- تعويق الكونغرس الجمهوري لِجهود كلينتون الديمقراطي ومحاولة تأجيل السلام ليكون إنجاز الرئيس المقبل وحرمان كلينتون من هذه الفرصة.

٤- المماطلة الإسرائيلية الهادفة لانتظار ظروف أفضل تخلقها المتغيرات القادمة في المنطقة. وذلك عن طريق الدخول في لعبة المسارات المتشابكة ولِهذه اللعبة حسنات وفوائد متعددة . فهي تتيح لإسرائيل إغلاق المنافذ على أحد المسارات لتفتح الحوار على مسار آخر. كما تتيح لَها إغراء كل مسار بتحقيق السبق مقابل تقديم تنازلات جديدة.

٥- الإدارة الأميركية ، بالرغم من التناقضات المشار إليها أعلاه تنظر بعين العطف للشروط الإسرائيلية وتجد لِهذا التشدد مبرراً. وهو خوف إسرائيل من ابتلاع العرب لَها بعد السلام حيث علق أحد المسؤولين الأميركيين على ذلك بالقول بأن السلام سيحول إسرائيل إلى سوبر ماركت عربي.

**وهذه التجاذبات ستجعل من إنجاز كلينتون للتسوية مهمة مستحيلة .**

٤- الشائعات العالمية

تبدو نبؤة ألفين توفلر (مؤلف كتاب تحول السلطة) في طريقهـــا إلى التحقيـــق وهي تقول بأن من يملك المعلومات يملك العالم. ولعل هذه الملكية تتجسد بقدرة مالكي المعلومات (وهم عينهم محتكرو الإعلام والاتصالات ) على إطلاق شائعات عبر بـــضعة جمل، وتحويلها إلى عالمية متداولة وفتح أبواب الجدال حولَها. بما يزيد من ترسيخ الشائعة وتحقيقها لأغراضها . حتى يمكننا الحديث عن تطور تقنية الشائعة يوازي تطور وســـائل الاتصال الناقلة للمعلومات.

والتعريف التقليدي للشائعة يصفها بأنه قضية أو عبارة نوعية مطروحة للتصديق والتناقل من شخص لآخر دون أن تكون هنالك معايير أكيدة لصدقها.

أما عن شروط نجاح الشائعة فهي تختصر تقليدياً بمجموعتين من الـــشروط أو العوامل وهما: ١- الأهمية .٢- الغموض.

هذا وتصنف الشائعة بحسب السيكولوجيين وفق معايير تصنيف مختلفة ومـــن أهم أصناف الشائعات نذكر :

أ- الشائعة البطيئة : وهي تنتشر بصورة بطيئة ولكن على مـــدى زمـــني أوسع.

ب- الشائعة الاندفاعية : وهي تنتشر بسرعة فائقة لاعتمادها علـــى إثـــارة انفعالات قوية.

ج- شائعات الأماني: ويتقبلها الجمهور دون تحري صحتها لأنّها تـــستجيب لأمانيه.

د- شائعات المشاعر السلبية : من خوف وكراهية ورغبة في الانتقام .

هـــ شائعة البعبع : وهي شائعة تثير الهلع عند الجمهور ولا تترك لـــه فرصـــة تحري صدقيتها .

و-الشائعة العنصرية : وتعتمد في انتشارها على المواقف العنصرية المسبقة.

ز-الشائعة الغاطسة : وهي شائعة تروج لمدة ثم تغطس لتعود فتطفوا إلى السطح من جديد في الوقت المناسب .

**وبالانتقال إلى الشائعة الحديثة نجد أنها تتمتع بالمواصفات التالية :**

أ- إنّها تعتمد على عبارة نوعية (وليس على أحداث) تتجلى بمـــصطلحات يتم إطلاقها عبر وسائل الاتصال المتطورة حتى تثير أكبر قـــدر مُمكـــن مـــن الجـــدال والتفسيرات المتضاربة المؤدية لزيادة انتشارها لغاية التعميم.

ب- أن الغموض الذي يلف عالم ما بعد الحرب الباردة يخلق أجواء مناسبة لإطلاق الشائعات المرتبطة بالفوضى الناجمة عن نهاية هذه الحرب .

ج- أن أية شائعة تتعلق بترتيب أوضاع العالم الجديد تملك أهمية تدعم انتشارها لكن عصر المعلومات يحد من غموض الشائعة لأنه يسهل الحصول على المعلومات التي تزيل هذا الغموض فتؤكد الصدق أو تنفيه لذلك فإن الشائعة الحديثة تستغل الفوضى العالمية لتكتسب أهمية فائقة ولتثير الانفعالات وتتجنب أزمة افتضاح الغموض بلجوئها للطروحات المستقبلية التي لا يمكن الحكم على صدقيتها إلا بانتظار ما سيأتي به المستقبل.

ولما كانت المستقبليات تعتمد مبدأ الاستقراء التاريخ وتستمد منه طروحاتِها فإنه من الطبيعي أن تكون الشائعات المستقبلية مستندة إلى هذا الاستقراء وبالتالي فإنّها غالباً ما تكون غاطسة.

وبما أن موضوعنا يتعلق تحديداً بشائعتين رئيسيتين من هذه الشائعات وهما :

١- النظام العالمي الجديد و٢- صدام الحضارات (ومسرحه الشرق الأوسط).

٥- النظام العالمي الجديد مجرد شائعة

أشرنا أعلاه بأنه ليس نظاماً ولا عالمياً ولا جديداً وهذا يعني أن هذا المصطلح هو مجرد شائعة منطلقة من "عبارة نوعية" ويبقى أن نلاحظ أن هذه الشائعة من نوع الشائعات الغاطسة ولتبيان ذلك يكفي أن نتذكر أحلام سيادة العالم لدى الأباطرة القدماء والجدد وأن نتذكر مصطلحات مثل "المملكة التي لا تغيب عنها الشمس" وأوهام

ظهور أشخاص يسودون العالم كمثل السيد في رواية "١٩٨٤" لجورج اورويل ... الخ
.

وإذا كنا في مجال القراءة السيكولوجية لهذا المصطلح فإننا نتسائل عن وجـــود دوافع عاطفية كامنة خلف صياغته. فقد أطلق المكتشفون على القارة الأميركية تــسمية الأرض الجديدة أو العالم الجديد فهل لهذه التسمية حصة دلالية في المصطلح كي تمكننـــا ترجمته إلى "النظام الأميركي" ؟.

على أن قراءتنا لهذا المصطلح على أنه شائعة لا تكتمل إلا بطرح احتمـــالات الفائدة المرجوة من إطلاقها. وهي احتمالات غير خفية ومناقشتها باتت معلنـــة. حـــتى يمكن القول بأنها باتت عبئاً على الولايات المتحدة نفسها. حيث نلاحظ تراجـــع إدارة كلينتون عن هذه الشائعة عبر عودتها إلى سياسة الأحلاف وتدعيمها لحـــف الأطلـــسي وتأكيدها على توريط أعضائه. وأيضاً عبر العمل على عولمته ليضم أوســـتراليا وبعـــض الدول الآسيوية بحيث تصبح تسميته بالأطلسي تسمية تحتاج للمراجعة. حيـــث تـــصح تسميته بالحلف الأميركي (أو حلف العالم الجديد) وإذا كان مـــصطلح النظـــام يعـــني مسؤولية أيجاد قوانين تنظم العالم فإن مصطلح حلف أخف وطأة كونه يعـــني اتفـــاق أصحاب مصالح مشتركة وإبقاء منافسيهم خارج الاتفاق.

لكن التفكير في هذا الاتجاه يعني سقوط العولمة بدلالة معنى الأمركة وهو سقوط قبلت به الإدارة الأميركية عندما وقعت على بيان الأهداف الإستراتيجية الجديدة للناتو . هذا التوقيع كان بمنْزلة الإعلان عن سقوط العولمة وانبعاث سياسة الأحلاف و الولايات المتحدة تقبل بإسقاط أي مصطلح من هذا النوع إذا ما تعارض مع مصالحها. وفي حالة العولمة تحديداً وجدت الولايات المتحدة أن سوق العولمة في طريقها إلى الكساد بعد تجربة

النمور الآسيوية وانهيار بورصاتها. بل هي وجدت أن هذه العولمة قد تضعها في وضـــع المضطرة للتدخل ولتحمل الخسائر لإنقاذ الدول المتعولمة وفي حينه كان موقف كلينتـــون واضحاً وصريحاً وهو :

"لن نتدخل لإنقاذ البورصات الآسيوية وبمعنى آخر فإننا سنتدخل عبر اليابـــان وعبر تطبيق مبادئ طوارئ البورصة الأميركية لكننا غير مستعدون لتحمل الخسائر. مِما تقدم يحق لنا استبدال مصطلح النظام العالمي الجديد بمصطلح حلف العـــالم الجديـــد في مناقشتنا لأية قضية مستقبلية ومنها "موقع الشرق الأوسط في حلف العالم الجديد".

**٦- صدام الحضارات مجرد شائعة**

بعد الإعلان الصريح لتخلي كلينتون عن هذه المقولة لم يعد من مجال لمعاملتها على أنها نبوءة مستقبلية قابلة للدخول في اعتبارات صناعة الإستراتيجيا خـــصوصاً وأن كلينتون أعقب رفضه هذا بخطوات عملية معاكسة لهذا الطرح.

ومهما يكن فإن هذه المقولة تملك كافة شروط الشائعة الغاطسة. فالصدام مع الإسلام شائعة تعود إلى بدايات الفتح الإسلامي وتمر بالحروب الصليبية لتتجسد بصدام بواسطة إسرائيل. ولكن هذه الشائعة بقيت شائعة وستبقى لأن الإسلام هو ديانة تبشيرية وبالتالي فإن الآخر بالنسبة له هو إنسان كامل الإنسانية (على عكس اليهودية) وهو قابل للتوبة وبالتالي للتحول إلى مسلم. وهذه النظرة للآخر تكرسها نظرة الحضارة العربية — الإسلامية للآخر في أوج مجد هذه الحضارة .

أما بالنسبة للصين فإن انغلاقها التاريخي على ذاتها يؤمن الغموض لأية شـائعة تطلق حولَها وشائعة الصدام معها تعود في العصر الحديث إلى نابليون الذي حذر مـن إيقاظ المارد الصيني وإلى الفيلسوف الفرنسي أوغسطين كورنو الذي رشـحها قطبـاً مواجهاً للولايات المتحدة خلال القرن العشرين (جاء الترشـيح في العـام ١٨٦١). ثم جاءت تسمية مارك آرثر للصين بالخطر الأصفر وتم تداول هذا التعبير على ألسنة رؤساء ومسؤولين أميركيين طيلة عقود ثم جاء هنتنغتون ليطفو بهذه الشائعة إلى السطح. منطلقاً من حيوية وضرورة إيجاد عدوْ للولايات المتحدة. وهو لم يلاحـظ في هـذه العجالـة سطحية مقولته التي يمكن إدراجها في خانة الشائعة الاندفاعية التي تشهد انتشاراً سـريعاً وإقبالاً ملفتاً لكنها سرعان ما تنطفئ وتعود للغوص (إذا كانت من النوع الغاطس).

وبناء عليه فإن حلف العالم الجديد لن يجد نفسه في صراع مع الإسلام. وبالتالي مع منطقة الشرق الأوسط. الأمر الذي يسمح له بمراجعة عقلانيـة لأوضـاع المنطقـة ولتاريخ علاقات دولها بالولايات المتحدة وبالغرب إجمالاً. خصوصاً بعـد العـودة إلى سياسة الأحلاف.

### ٧- الحلف الأميركي والشرق الأوسط

قد تبدو العودة لسياسة الأحلاف مجانبة للواقع العالمي الراهن. فالحلف لا يزال يفتقد للعدو كي يصبح حلفاً. لكن حاجة الولايات المتحدة لحماية مصالحها، وجلـب التأييد لهذه الحماية، دفعها لاصطناع أعداء وإن كانوا دون القياس المطلوب. فبمراجعـة محادثات رامبوييه نجد أن شروط يوغوسلافيا كانت شكلية أكثر منها مبدئيـة. وكـان بالإمكان تجاوزها إلى حل سلمي مقبول لأزمة كوسوفو. لكن حاجة الولايات المتحدة إلى عدو جعلتها تخوض حرباً مقسطة (بالتقسيط) ضد يوغوسـلافيا شـبيهة بأقـساط

الضربات الأميركية المستمرة للعراق. واستناداً إلى عداء ميلوسوفيتش تم إحيـــاء حلـــف الأطلسي. مع وضع استراتيجيات جديدة له قادرة على تحويله إلى عالمي. وعلى السماح له بالتدخل في مناطق مخلفة من العالم ومن بينها منطقة الشرق الأوسط. وهـــذا مجـــرد نموذج عن خدمات سياسة الأحلاف للمصالح الأميركية. إضافة لكون هذه الأحـــلاف بمنْزلة الإستعداد الوقائي لظهور أي عدو محتمل.

ولكن ما هي القواعد التي سيتعامل الحلف الأميركي وفقها مع دول الـــشرق الأوسط ؟

فهل سيستخدم تجربته في عاصفة الصحراء للضغط على دول المنطقة للـــدخول فرادى إلى الحلف ؟ أم أنه يفضل إحياء "حلف بغداد" نمطي بعد زوال التهديد السوفياتي لمثل هذا النمط من الأحلاف ؟

للوهلة الأولى نجد حماسة ملفتة من قبل الولايات المتحدة لتجميع دول المنطقـــة في حلف يتخطى حدوده الجغرافية. فقد شجعت أميركا الحلف التركي – الإســـرائيلي ودعمته وأمنته من شرور المعارضات العربية والإسلامية. كما عملت على ترسيخه بتهيئة بعض الدول العربية للإنضمام إليه. ويمكن للولايات المتحدة أن تفكر باستخدام الأزمات الاقتصادية لدول المنطقة لتضغط عليها باتجاه الدخول في هذا الحلف. وبطبيعة الحال فإن هذا الحلف لا بد له من أن يتسع لعضوية الأعماق الإستراتيجية لدول المنطقة. وخصوصاً جمهوريات القوقاز والإسلام الشرق أوروبي. وتتدعم هذه الصورة الورديـــة للحلـــف الشرق أوسطي بإنهاء حالة العداء العربي – الإسرائيلي عبر معاهدة سلام معجلة(٨).

إن مثل هذا السيناريو ينتمي إلى الطوباوية أكثر منه إلى البراغماتية الأميركيـــة. فهو يحول الشرق الأوسط إلى جنة متكفلة برعاية المصالح الأميركية. لكن هذه الكفالة لا تلغي قائمة من الأسئلة المصيرية بالنسبة لمستقبل المصالح الأميركية في المنطقة وفي طليعتها :

أ- ما هي الفائدة الأميركية من إجبار أغنياء المنطقة علـــى تـــبني فقرائهـــا والدخول معهم في حلف استراتيجي ؟.

ب- أن هذا الحلف يجمع بين مالكي الثروات ومالكي التقنيات العـــسكرية وبالتالي فإنه يشكل خطراً على المستقبل الأميركي في المنطقة .

ج- أن التناقضات بين دول هذا الحلف تجعله قابلاً للانفجار في أيـــة أزمـــة مفصلية. خصوصاً وأنها تجمع بين التناقض العرقي والديني والمذهبي والثقافي واللغـــوي. وقبل هذه الأسباب، وكثيرة غيرها ، فإن البراغماتية الأميركية لا تؤمن أساساً بالأحلام الوردية فهي سياسة مصالح تحسن تحديد غاياتها وهي تحدد أهدافها في المنطقة على النحو الآتي :

١- الدول النفطية : وتضم دول الخليج العربي والعراق وإيران.

٢- التخلص من أعباء المعونات المقدمة لإسرائيل والتي لَـــم تعـــد مـــبررة استراتيجياً. وتسوية الصراع العربي — الإسرائيلي هي أكثر الحلول وجاهة بهذا الصدد.

٣- التحكم في تناقضات المنطقة وملكية خيوطها التي تسمح بقلب الطاولـــة على أي نظام أو توازن يهدد المصالح الأميركية في المنطقة.

وهذه الأهداف باتت بحكم المضمونة التحقيق وهي لا تحتاج ســوى لــبعض اللمسات التجميلية الأخيرة لإخراجها. ومن هذه اللمسات نذكر أهمها :

١- إخراج تسوية سلام مقبولة من جميع الأطراف أو التأسيس لحرب باردة عربية — إسرائيلية.

٢- إيجاد منافذ لتأمين الانفتاح الإيراني على الحلف الأميركي.

٣- تعويض مشاعر الخسارة الناجمة عن عاصفة الصحراء .

٤- تأمين مخرج مقبول للأزمة العراقية حيث يرجح تشجيع مخرج عربي لَهــا وذلك على غرار المخرج الأفريقي للأزمة الليبية.

والسؤال هنا لا يطرح حول القدرة الأميركية على تأمين ضبط الحلول بل هو يطرح حول قبول إسرائيل بتهميش دورها الإستراتيجي على هذا النحو. حيث الإغراء الاقتصادي ضعيف في هذا السيناريو لأن إسرائيل محاطة بفقراء العرب. ولأن أغنياءهم لا يحتاجون للأسلحة في ظل تحالفهم مع الولايات المتحدة. فإذا ما لاحظنا أن متوسط دخل الفرد الإسرائيلي الحالي هو في حدود الستة عشر ألف دولار سنوياً فإننا ندرك خطــورة هذا التهميش على إسرائيل، فاليهودي يفضل الشتات على تدني المدخول المادي. وهــو سيترك أرض ميعاده إذا ما تراجع دخله.

ولكن هل يصل الخلاف الأميركي — الإسرائيلي إلى حدود التصادم ؟

لقد وصل هذا الخلاف لغاية الآن إلى حدود تضارب المصالح والصراع الخفي. أما أن يتحول إلى صدام فهذا أمر مستبعد تماماً. فاليهود أحسنوا، عبر تاريخهم المتقطـــع، تجنب مصادمة الأقوياء. كما أحسنوا الهروب من أية مواجهة من هذا النـــوع. لكنـــهم أتقنوا في المقابل التخطيط طويل الأمد لإحتواء أعدائهم وتأجيج صراعهم مـــع الغـــير. ويبدو أن محاولات احتواء اليهود للولايات المتحدة قد بدأت منذ فترة ليست بالقصيرة. ومن علائم هذا الاحتواء نذكر :

أ- الحضور السياسي اليهودي وأثره على الحكومة الفيديرالية. ومُمارسة هذا التأثير بصورة استعراضية – استفزازية (تعكس جنون العظمـــة اليهوديـــة). هـــذه الصورة التي كانت سبباً لردود فعل تاريخية سببت لليهود محاولات جادة لتصفيتهم. أما عن ردود الفعل الراهنة فتمثلها داخل أميركا مجموعات من الآريين المتطرفين (الميليشيات الأميركية البيضاء التي تضع الخلاص من اليهود في مقدمة أهدافها).

ب- التدخل اليهودي المباشر في الأسرار الأميركية الإستراتيجية. ســـواء عن طريق تجنيد عملاء للموساد داخل المخابرات الأميركية أو عن طريق اليهود الـــذين تتيح لَهم وظائفهم الإطلاع على هذه الأسرار.

ج- الخيانة الإستراتيجية : حيث تورد تحقيقات وزارة الدفاع الأميركية ما يشير إلى أن إسرائيل قد حصلت على أسرار القنبلة النوترونية من مخترعها اليهـــودي الأميركي صمؤيل كوهين. وذلك قبل إطلاع الرئيس نيكسون عليها. كما تشير هـــذه التقارير إلى أن إسرائيل باعت هذه الأسرار للصين لقاء مبالغ طائلة وهذا النـــوع مـــن الخيانة لا يخضع عادة لاعتبارات الصفح والغفران.

د- إن اعتماد الإدارة الأميركية مبدأ "حقوق الأقليـــات" وترجمتـــه إلى قانون يعكسان السيطرة اليهودية على العقل السياسي الأميركي. ذلك أن أثارة الفوضى الديموغرافية في أي مكان من العالم هي فلسفة يهودية بحتة. فاليهود عملوا عبر تـــاريخهم على استغلال مثل هذه الفوضى بعد إثارتها. وفي خضم الفوضى الإستراتيجية الأميركية الراهنة فقد تحولت هذه الفوضى إلى بديل استراتيجي ورط الولايات المتحدة في حروب صغيرة ذات منحى ديموغرافي. وصحيح أن هذه الحروب قد عـــادت علـــى الولايـــات المتحدة بفوائد اقتصادية لكنها في الوقت ذاته ورطت الولايات المتحدة في صراعات من شأنها تعميق العداء لأميركا وتشعيبه. بحيث يتحول إلى تهديد مستقبلي جاد للمـــصالح الأميركية. مثال ذلك التورط الأميركي في يوغسلافيا وما يستتبعه من تـــورط بلقـــاني مستقبلي. والتورط في القضية الكردية (خصوصاً بعد اعتقال أوجلان) وغيرهـــا مـــن التدخلات المعلنة وغير المعلنة.

ه- إن اليهود الأميركيون يهددون التوازن الاجتماعي داخل الولايـــات المتحدة بما يمهد لتنامي مشاعر الاضطهاد لدى الأميركيين غير اليهود إذ يبلغ متوســـط دخل الفرد الأميركي حدود السبعة وثلاثين ألف دولار سنوياً في حـــين يبلـــغ مثيلـــه لليهودي الأميركي خمسة وأربعون ألف دولار أميركي. مع ملاحظة إنكار أو كتمـــان عدد كبير من يهود أميركا ليهوديتهم.

ولعله من المنطقي بعد كل ذلك التأكيد على أن أية محاولة لإعـــادة ترتيـــب المصالح الأميركية، ووضعها في إطار استراتيجي، ستكون مـــضطرة لأن تأخـــذ هـــذه الأضرار اليهودية في حسبانها.

## ٨-الشرق الأوسط في النظام العالمي الجديد

أن كل ما جرى في الشرق الأوسط بعد نهاية الحرب الباردة كان منافياً للمنطق ومتحدياً له. لذلك لا يمكن وصفه سوى بالفوضى. وفوضى الشرق الأوسط إن هي إلا انعكاس لفوضى النظام العالمي الجديد فالقراءة السيكولوجية الهادئة لِهذه الأحداث تبين عبثية حرب "عاصفة الصحراء". ذلك أنّها انطلقت من خلاف على مديونيـــة محـــدودة وتكلفت مئات أضعاف قيمة هذه المديونية. فمن الناحية الاقتصادية نجد أن هذه الحرب قد كبّدت جميع الأطراف خسائر باتت مستحيلة التعويض. أما من الناحية الـــسياسية – المصلحية فإن مصالح الولايات المتحدة كانت مضمونة دون حاجة لخوض مثـــل هـــذه الحرب. وكانت لَها قواعد عسكرية في دول خليجية لزيادة تأمين هذه المصالح. وفي ظل القدرة العسكرية الأميركية الفائقة فإن أية دولة من دول المنطقة لم تكن مستعدة لِخوض مواجهة حقيقية مع الولايات المتحدة. فإذا ما أضفنا إلى ذلك فعالية التـــأثير الأميركـــي وجهوزية معلوماته وجدنا أن هذا البلد كان، ولا يزال قادراً على تفجير الدول المناوئة له من داخلها. وهذا يستتبع سؤالاً منطقياً عن السبب الحقيقي لهذه الحرب ؟ و بمعنى آخر هل كان الخوف من العراق ومن إيران مبرراً لهذه الحرب ؟ وإذا كان الأمر كذلك لماذا عملت الولايات المتحدة على إنهاء الحرب العراقية – الإيرانية وتخلت عن سياسة الاحتواء المزدوج معهما ؟ أم أنّها خشية تلزيم العراق المسألة العسكرية العربية بدعمه مالياً وتحويله لا حقاً إلى رأس حربة عربي ضارب ؟ ولكن هل يتم مثل هذا التلزيم بـــدون موافقـــة أميركية ؟

وإذا نحن تخطّينا الخوض في مسألة الأسباب المبررة فإننا نصل للسؤال عن عدم استخدام الجامعة العربية لحل الأزمة الكويتية – العراقية ؟ بل عن الـــرفض الأميركـــي الحاسم لهذا الدور؟

ولو نحن سلمنا باقتصار هدف الحرب على تحقيق نسبة أعلى مـــن مبيعـــات الأسلحة الأميركية للمنطقة وبالتالي استنفاد ثرواتها النفطية، فإننا نجد أن البعبع الإيـــراني كان قادراً على لعب الدور ؟ وتتابع الأسئلة على هذا النمط بدون أجوبة إلا تلك الـــتي يمكن استنتاجها من خلال الحروب الأميركية الأخرى اللاحقة لحرب الخليج الثانية. ومن هذه أن الحرب كانت تؤسس لحلف إقليمي يضم أصدقاء الولايات المتحدة في المنطقة. فيجمع بين إسرائيل وتركيا والدول النفطية ومصر (بحكم حجمها الديموغرافي) والأردن بحكم أهميته الجغرافية. ويضع الدول المستبعدة من هذا الحلف أو الرافضة للحاق به، تحت حصار اقتصادي متغير الدرجات.

وهذا السياق هو الوحيد المتاح أمامنا من أجل حد أدنى من استيعاب ما جرى. ويتدعم هذا النمط في التفكير من خلال جملة مؤشرات تالية لعاصفة الصحراء وأهمها :

١- عقد مؤتمر مدريد وبداية مفاوضات السلام وملحقاتها. مع الضغط غـــير المتوازي على مختلف الأطراف لتحقيق التسوية السلمية.

٢- عقد المؤتمر الاقتصادي لدول المنطقة. حيث من الطبيعـــي أن تقتـــصر المشاركة فيه على الدول المستعدة لإعلان دخولها في الحلف. ومعارضة الدول العربيـــة الأخرى لِهذا المؤتمر.

٣- التجسيد العملي لِهذا الحلف على الصعيد الاقتصادي بعقـــد صـــفقات اقتصادية عربية –إسرائيلية. حيث تم بالفعل عقد مئات من هذه الصفقات. ولعل صفقة

بيع الغاز القطري لإسرائيل هي أكبر هذه الصفقات. وقد شاركت عدة دول عربيـــة في هذه الصفقات عن طريق رجال أعمال ينتمون إليها .

٤- تعزيز الحصار الإقتصادي على الدول المؤهلة لمعارضة هذا الحلـــف. ثم استثناء الأردن منها بعد إعلان التوبة عن دعمه للعراق.

وهذه المؤشرات ليست مجرد تنازلات أو تضحيات عربية بل أنها تعكس النوايا العربية الحسنة والاستعداد العربي للعمل على تحمل الأضرار الجانبية المميتة لزراعة العضو الإسرائيلي في المنطقة. وقبول إدماج هذه الدولة في المنطقة. مع ما يمكن لهذا الإدماج أن يحققه من تفخيخ العلاقة بين الدول العربية وبينها وبين الرأي العام داخل كل منها.

فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة كانت إصرار إسرائيل على بقائها وكيلة حصرية للمصالح الأميركية في المنطقة وانقلابها على جميع الأطراف العربية الـــصديقة للولايـــات المتحدة والقابلة للإقرار بوجود كامل للدولة اليهودية والاعتراف بها شريكة في حلـــف استراتيجي يستبعد بعض العرب.

وهذا يدفع للسؤال عن موقف الولايات المتحدة من هذا الإنقلاب الإسرائيلي الذي تنصل من تعهداته ورفض الوفاء بإلتزاماته واضعاً الزعماء العرب المتجاوبين مـــع النصائح الأميركية في وضعية حرجة وأكاد أقول مهددة ؟!.

وهذا يقودنا إلى مناقشة الموقف الأميركي من الصراع العربي – الإسرائيلي قبل وبعد نهاية الحرب الباردة. حيث بات هذا الموقف مقرراً بعد الإعـــلان عـــن الحلـــف الأميركي.

٩- الموقف الأميركي من الصراع العربي – الإسرائيلي

بعض نقاط التشابه بين الولايات المتحدة وإسرائيل تصل إلى حدود التطابق بما يكاد يحول إسرائيل إلى الولاية الأميركية الحادية والخمسين. ومن هذه النقاط نذكر :

١- التخلص من السكان الأصليين بوسائل تعتبر معيبة أخلاقياً وإنسانياً.

٢- التركيبة السكانية غير المتجانسة التي تمكن المجتمع من صهرها وإيجاد لُحمة لَها قادرة على تجاوز تناقضاها.

٣- خضوع إسرائيل لمبادئ الديمقراطية الليبرالية (الأميركية) وقبول التوجهات والتدخلات الأميركية بهذا الخصوص وخصوصاً إبّان الحرب الباردة.

٤- التزام إسرائيل التام بخدمة المصالح الأميركية في المنطقة والعالم. بما يحولهما إلى قاعدة إستراتيجية أميركية متقدمة. لدرجة اعتبار المخزون النووي الإسرائيلي مخزوناً أميركياً إضافياً.

وانطلاقاً من هذه النقاط فإن الإدارة الأميركية اعتبرت إسرائيل بمنْزلة قاعدة عسكرية – إستراتيجية متقدمة لحماية مصالحها في المنطقة ومنابع النفط خصوصاً. أما اليوم ومع بداية الشعور بالقدرة الأميركية على إعادة ترتيب توازنات المنطقة، بدءاً من سلام عربي – إسرائيلي ، فإن الإدارة الأميركية تحاول تسويق صورة جديدة لإسرائيل

وتعميمها على الرأي العام العربي ولا شك بأن هذه الصورة كان متداولة ومعروفة لدى أصدقاء الولايات المتحدة من العرب .

**ومعالم هذه الصورة هي التالية :**

لقد لعبت إسرائيل دوراً هاماً في حماية المنطقة العربية. فهي حمتــها أولاً مــن الشيوعية. فقد جاءت الشيوعية في زمن الفراغ بالنسبة للدول العربية. والتي كانــت في حينها تركة الدولة العثمانية التي تقاسمتها قوى شائخة وفي طريقها للتراجع (بريطانيا – وفرنسا) بحيث كانت دول المنطقة مرشحة للخروج من أربعة قرون عثمانية للدخول في غيبوبة حضارية أخرى قد تَمتد بدورها لبضعة قرون. و لم تكن الشيوعية لتجد من يصد غزوها للمنطقة (على غرار ما فعلته في أنحاء عديدة من العالم) لولا وجــود إســرائيل. فإسرائيل وحدها هي التي صانت المنطقة من الغزو الشيوعي لَها. ومن جهة أخرى فقد لعبت إسرائيل دور العدو المشترك للعرب وهو دور محرك للحمة العربية ومساهم في الحد من أخطار الخلافات العربية – العربية. التي كان يمكن لَها أن تفكك المنطقة إلى دويلات صغيرة متناحرة استناداً إلى الخلفية القبلية –العشائرية للعقل العربي. لكن وجود إسرائيل هو الذي أبقى على الحدود الحالية للدول العربية. كما أن هذا الوجود كان وقاية لهــذه الدول من الأطماع التركية والفارسية. لكن العدائية العربية ذات الطابع القبلي كانــت تضغط على إسرائيل وتدفعها لمحاولات حسم الصراع مع العرب عن طريــق الحــرب النووية. وحماية العرب من هذه الحرب لا تعود إلى وجــود الاتحــاد الــسوفياتي وإلى احتمالات تدخله إذا ما تجاوز الصراع حدوداً معينة بل أن الفــضل في ذلــك يعــود للولايات المتحدة التي كانت تضغط على إسرائيل كي تبقى الصراع ضــمن حــدوده المقبولة وغير المخلة بالتوازن ولولا هذا التدخل الأميركي لأمكننا أن نشهد آثار الحرب النووية في العواصم العربية وربما في مكة نفسها. والصداقة الأميركية للعرب لم تقف عند

حدود ردع إسرائيل بل هي تجاوزها إلى تعامل حضاري مع الثروات النفطية العربيـــة. فهي لم تستولي عل هذه الثروات كما كان يمكن لبريطانيا مثلاً أن تفعل بل هي قامـــت بتوزيع عادل ومنظم لعائدات النفط مما أتاح لدول المنطقة فرص الازدهار الاقتـــصادي والحضاري.

إن هذا المنطق يتردد اليوم داخل دوائر القرار الأميركي وداخل مجلس الأمـــن القومي حيث يسود الإعتقاد بأن الحل الوحيد لتحويل سكان المنطقة مـــن البـــداوة إلى الحضارة يكمن في إدماج إسرائيل في هذه المنطقة. وبالتالي فإن فشل التسوية الـــسلمية سوف يعنى ابتلاع كل من إيران وتركيا لأكبر قدر ممكن لهما من الأراضي العربية. كما سيعني اندلاع النّزاعات الدموية بين العرب أنفسهم وبهذا فإن إسرائيل لن تكون بحاجـــة للتورط عسكرياً كي تشهد نهاية دول المنطقة وعليه فإن النصيحة الأميركية للعرب هي ... "هيا هرولوا إلى السلام".

ويضيف بعضهم إلى هذه النصيحة تنبيه العرب إلى احتمال مساعدة إســـرائيل لَهم من أجل حمايتهم من دول الجوار بل إن بعضهم يراهن بـــأن الحلـــف العـــربي – الإسرائيلي في مواجهة هذه الدول هو أمر واقع في حال قدوم السلام. لكن هذه التسوية تقتضي تفهم الخوف الإسرائيلي من التفوق الديموغرافي العـــربي. وبالتـــالي الخـــضوع لشروطها التي قد تبدو مبالغة إذا لم ننظر لعنصر الخوف هذا ؟ وهذا المنطـــق يتجاهـــل وجود الإتحاد السوفياتي وخطوطه الحمراء. التي ساهمت في الحد من قدرة إسرائيل على استخدام قوتها العسكرية ومن قدرة الولايات المتحدة على التحرك بحريـــة في المنطقـــة. وأيضاً على إجراء تغييرات في جغرافية المنطقة و إذا كان بعـــضهم يـــضيف التـــسامح الأميركي في توزيع عائدات النفط والذي حوّل العرب إلى أثرياء فإن هذا التسامح كان

مفروضاً فبدونه كان يمكن للإتحاد السوفياتي أن يعطي شروطاً أفــضل وأن يتـــسلل إلى المنطقة.

لكن المصرين على هذا السيناريو يقولون بأن الإتحاد السوفياتي كان القطـــب الأضعف وبأنه كان يعاني دوماً من مشاكل اقتصادية. الأمر الذي كان يسمح للولايات المتحدة باعتماد سيناريو مضاد للعرب لو هي أرادت.

واختصاراً للجدل نسأل عن المواقف الأميركية بعد نهاية الشيوعية فنجد تغييراً جذرياً في هذه المواقف إذ ورطت أصدقاءها العرب في صراع عـــسكري مـــع عـــرب آخرين. وهي الورطة التي بدأت بعاصفة الصحراء و لم تنتهي بها. وبمعـــنى آخـــر فـــإن الولايات المتحدة قد عمقت التزامها بحماية هذه الدول على حساب تراجعها عن ضمان حيادها. والمصلحة الأميركية غير خافية في هذا التعميق إذ يمكن التأكيد على أن الولايات المتحدة كانت الرابح الوحيد من هذه الحرب. (ومعها إسرائيل طبعاً).

عند هذا الحد يمكن التساؤل عما إذا كان الربح (المكاسب الاقتصادية والتواجد العسكري) هو الدافع الأميركي الأوحد لعاصفة الصحراء ؟ ويسهل الجواب على السؤال بعد مضي كل هذه السنوات حيث نعيش ما خلفته هذه الحرب مـــن فوضـــى عربيـــة استراتيجية – شاملة ومن تجلياتها :

١- تحولت أنظمة الحكم في المنطقة إلى مهددة. وهو تهديد لا تمكـــن مواجهة إلا بالدعم الأميركي أو على الأقل فإن الولايات المتحدة باتت تملك القدرة على التهديد المباشر لأنظمة الحكم في المنطقة. وتحت وطأة هذا التهديد تم اقتياد الدول العربية

إلى مؤتمر مدريد واستدراجها إلى ملحقاته. وإذا أردنا أن نكون أكثر ديبلوماسية فإننــا نختصر القول بأن أنظمة الحكم العربية تأمركت بعد عاصفة الصحراء.

٢- عدم تنفيذ قرارات إعلان دمشق. بما يعكس عدم جديــة النظــر لأي تكامل عربي.

٣- التوتر داخل التجمعات العربية القائمة بما يقطع الطريق أمام أية جهـــود عربية جامعة ويبقي على قابلية الخلافات العربية – العربية للإنفجار.

٤- تطبيق سياسة الحصار الاقتصادي الأميركية على عدة دول عربية. مـــع عدم وجود موقف عربي جامع حول هذه الحصارات.

٥- العجز عن عقد قمة عربية بالرغم من الزلازل العاصفة التي تتعرض لهـــا المنطقة.

٦- بروز خلافات جديدة تستند إلى مبدأ علاقة الأخ الغني بالأخ الفقـــير. وهي خلافات تجذر الشقاق العربي وتنقله من حيز السياسة إلى مستوى التعصب القطري الذي يحول العداء من السياسي إلى الفردي.

٧- تحول الدول العربية الغنية إلى دول مدينة بما يعكس تسرب ثروات هذه الدول وفقدانها لوضعها كعمق استراتيجي – اقتصادي عربي وإسلامي.

وباختصار شديد فإن هذه الفوضى جعلتنا عاجزين عن التوجـــه في الزمـــان والمكان ومعه العجز عن تحديد موقفنا من الآخرين (بما فيهم إسرائيل) وأيضاً من بعضنا

البعض وهذا هو الأخطر. الذي يبشر بخلافات جديدة بدايتها فقدان التوجه في العلاقـة مع الجارتين الإقلميتين الكبيرتين : تركيا وإيران وبما يستتبع السؤال عن إمكانية توجهنا توجهاً صحيحاً في المفاوضات مع إسرائيل ؟

٨- المستقبليات ودول المنطقة .

تنعكس الفوضى الاستراتيجية الأميركية على العالم ومنه دول المنطقة. بحيـث يرتبط بمستقبل هذه الدول بقدرة الولايات المتحدة على تكوين إطار استراتيجي جديـد لمصالحها في المنطقة. ولعله من الممكن اعتبار الشرق الأوسط أحد أوضح مناطق العالم في الرؤية الاستراتيجية الأميركية. الأمر الذي يتيح إمكانية تطبيق مبادئ علم المـستقبليات على كل دولة من دوله على حدة أو على كل مجموعة منها على حدة ونبدأ بـ :

١- تركيا: لقد كانت تركيا دائماً بمنْزلة الصديق المزعج للولايات المتحدة. فأهميته تجعلها تتمسك به ومشاكله ونزاعاته تنفرها منه وتجعلها تتحمل التبعات والأعباء. فتركيا تعاني من جملة مشاكل داخلية بينها الأقليات العرقية (الأكراد) والدينية والمذهبية. إضافة إلى تناقض التوجهات الاجتماعية التركية وتوزعها ما بين قومية طورانية وإسلامية ويسارية وعلمانية. وذلك بحيث يحتاج ضبط الوضع الداخلي التركي إلى رقابة عسكرية مباشرة واستعداد دائم لتدخل العسكر في الحكم.

أما على الصعيد الخارجي فإن لتركيا مشاكل جدية مع كافة جيرانها (اليونـان وإيران وسوريا والعراق وحتى دول بحر قزوين). ويضاف إلى هذه المشاكل عجز تركيا عن الإيفاء بشروط الإنضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة. مع ما يعكسه هذا العجـز من رفض أوروبي جماعي يحرج الولايات المتحدة.

في المقابل فإن تركيا خاضعة، منذ بداية عهد أتاتورك خضوعاً كلياً للتوجهات الغربية وتالياً الأميركية وهي بذلك تقدم نموذجاً للدولة التابعة لكنه نموذج سيء ومنفر. لأنه لا يشجع بقية الدول على حذو حذوها. فقد انتهجت تركيا سياسة علمانية بحتـــة (بقوة العسكر أحياناً) وتخلت عن جهاز قيمها لصالح القيم الليبيرالية الأميركية. لغايـــة استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني. ومع ذلك فقد عجزت عن تحقيق تنمية صحيحة لتبقى في الإطار الدول الفقيرة ولتبقى ديمقراطيتها بحاجة إلى العسكر ؟!.

وإذا كانت الولايات المتحدة مضطرة أيام الحرب البادرة لتحمل كـــل هـــذه الإزعاجات التركية فإنها لم تعد كذلك بعد نهاية الحرب الباردة فهل تفكـــر الولايـــات المتحدة بالخلاص من هذا الصديق المزعج ؟ أو تكتفي باحتوائه جزئياً لخفـــض ســـقف طموحاته ؟

أن الموقع الإستراتيجي لتركيا وإتمامها للحزام الآوراس يجعل الولايات المتحدة بعيدة عن التفكير في التخلي عن تركيا. خصوصاً بعد أن تحدد مستقبل المصالح الأميركية في منطقة القوقاز الواقعة على تخوم تركيا الشرقية. وهكذا فإن دعم الولايات المتحـــدة للحلف التركي مع إسرائيل هو بمثابة تعويض عن عدم قبول تركيا في السوق الأوروبية المشتركة.؟

من هنا نجد أن من مصلحة الحلف العالمي الجديد الإبقاء على تركيـــا أســـيرة تناقضات وباحثة عن حلول لأزماتها وذلك بحيث يسهل توظيفها لمصلحة الحلف ولخدمة استراتيجياته المستقبلية. وبمعنى آخر فإن من مصلحة الحلف وضع تركيا في حالة الحرب

الباردة مع جيرانها مما يجعلها بحاجة دائمة لتدخل الحلف ووساطته ودعمه. وبما يحد مـــن جموحها في آن معاً.

٢- إسرائيل : عندما يكون هذا البلد في حالة عداء مع العرب فإنه يكون صاحب حقوق والتزامات أميركية غير قابلية للجدل. فإنهاء حالة العداء هذه يعني فقدان إسرائيل للدعم والإنحياز الأميركي لصالحها. وإسرائيل غير مستعدة أن تقبل مجرد التفكير في خطوة من هذا النوع في ظل الفوضى الاستراتيجية الأميركية. فهي تريد أولاً أن ترى بوضوح تام استراتيجية أميركية حاسمة لفترة ما بعد الحرب الباردة كي تحدد مواقفهـــا. وبانتظار ذلك فإن التفكير بسلام عربي – إسرائيلي هو مجرد سراب. ففي المرحلة الراهنة لا يوجد لدى إسرائيل أي سبب يدفعها لاستعجال أي حل نهائي لصراعها مع العرب. وأن كانت الفوضى العربية الراهنة شديدة الإغراء بالنسبة لَها. وهي ستستغلها من أجل تسويات مؤقتة تحقق لها الأهداف الإستراتيجية التالية.

أ- الأمن الإسرائيلي : حيث قوة الردع العسكري تضمن أمـــن إسرائيل في وجه الحروب مع الجيوش العربية. ويبقى الأمـــن الإســـرائيلي في مواجهـــة الحركات ذات الطابع الفدائي (الإرهاب العربي كما تسميه إسرائيل) وهذا يقتضي تحقيق تسوية تلزم الدول العربية بعدم احتضان هذه الحركات (حتى لا تجد لها مقراً للإنطلاق) وعليه فإن الإنسحاب من لبنان سيكون من الأولويات الإسرائيلية ويتبعه تعهدات عربية بعدم احتضان زعماء هذه الحركات.

ب- حرق الأوراق العربية : بمعنى تسجيل اختراقـــات في المواقـــف العربية المبدئية تجاه إسرائيل (مثال السعي الأميركي – الإسرائيلي الحثيـــث لاســـتغلال جنازة ملك المغرب الحسن الثاني لالتقاط صورة ومصافحة بين الأسد وبـــاراك. لكـــن

الأسد تغيب وتجنب هذا الفخ الذي يعني الكثير (ومِما يعنيه تقديم إذن سمـــاح لكافـــة العرب الراغبين في الاتصال مع الاسرائليين). وهذه الورقة فائقة الأهمية بالنسبة لإسرائيل لأنها تفتح أمامها أبواب اختراقات إسرائيلية اقتصادية وثقافية. لذلك فإنــه مـــن غـــير المستبعد أن يتعجل باراك ترتيب لقاء له مع الأسد سواء عبر وساطة أميركية أو عربية أو حتى بإعلان رغبته بزيارة دمشق.

ج- وهذه الأوراق قد لا تبدو بالأهمية الحقيقية لها. إلا أن العارفين ببواطن الأمور يدركون أن مثل هذه المواقف هي من معايير التوجه القليلة الباقية لـــدى الرأي العام العربي الفاقد توجهه وعليه فإنّ التسوية مع العرب تتيح لإسرائيل حرق هذه الأوراق العربية. مِما قد يحول الرأي العام العربي إلى ما يشبه الفوضى الكلية.

ج- تشجيع الفوضى الديموغرافية : استناداً إلى تاريخ الشتات اليهودي هنالك قناعة إسرائيلية راسخة مفادها قدرة الفيتو اليهودي في بلدان العالم على تحقيق مكاسب تفوق حجمه بأضعاف مضاعفة. لذلك فإن إسرائيل مستعدة دائماً للتورط في منـــاطق الفوضى الديموغرافية. كونها تحسن جني مكاسب هذه الفوضى. ومن هنا عملها الدائب على إثارة مشاكل الإقليات في كل بقاع العالم. أما في الداخل الإسرائيلي فـــإن بنـــاء المستوطنات هو أداة الفوضى الديمغرافية التي قامت إسرائيل على أساســـها. علـــى أن تشجيع إسرائيل لِهذه الفوضى لا يقف عند حدود بناء المستوطنات بل يتعداه إلى سلسلة من التحركات الفوضوية في هذا الإتجاه منها :

١- استغلال التسوية القادمة من أجل مطالبة إسرائيل (بوصفها ممثلة لحقوق اليهود في العالم) بحقوق اليهود في الدول العربية. على غرار ما تفعله في مصر.

٢- تسجيل اختراقات عربية بتحريك اليهود العرب تمهيداً لإعـادة تصديرهم (ربما كانت بداية إعادة التصدير ستبدأ باليهود الإيرانيون).

٣- إغراء الأقليات المتواجدة في الدول العربية لفتح وتعميق قنـوات اتصالها بإسرائيل وذلك وفق النموذج الأميركي – الكردي (يحول الأقلية إلى مجرد ورقة للضغط).

٤- تحقيق اختراقات عربية عبر المنظمات الدولية وعـبر مؤسـسات المجتمع المدني (خصوصاً المعتمدة منها على التمويل الأجنبي).

د- الهروب من السلام : إن الثمن المطلوب دفعه من قبل إسـرائيل لتحقيـق السلام يعتبر زهيداً بالقياس مع الثمن الذي كان مطلوباً خلال الحرب البـاردة. لكـن اليهود متخصصون في لعبة العرض والطلب. وعليه فإنّهم يجدون هذا الثمن باهظـاً في الزمن الراهن. وهم يدركون أن تحقيق التسويات يؤمن لَهم غاية الأمـن الإسـرائيلي. ويدفع العرب باتجاه ترتيب أوضاعهم الداخلية. ونسيان سيرورة الـسلام. بِمـا يتـيح لإسرائيل انتظار الظروف الملائمة وتحديد الوقت المناسب لإنهاء مفعول التسويات والعمل على استبدالها. إما بتسويات أخرى أو ربّما بسلام شبه تلقائي وشبه مجاني. ولعـل مـا يسمى بتفاهم نيسان (عقب عملية عناقيد الغضب في لبنان) خـير نمـوذج للـسلوك الإسرائيلي. حيث كان التفاهم في بدايته يكاد يعادل الإعتراف الإسرائيلي بالهزيمة. لكن إسرائيل نجحت تدريجياً في تحويله إلى ذريعة للعدوان وإلى ورقة ضـغط علـى جميـع الأطراف العربية الموقعة عليه. وصولاً إلى مطالبتها بسحب المقاومة إلى مسافة ٤٥ كـم شمال الحدود الإسرائيلية (بما يعادل نهاية المقاومة).

٥ – مستقبل إسرائيل في المنطقة : لم يتخلـى الإسـرائيليون عـن حلمهـم الأسطوري بتحقيق إسرائيل الكبرى. لكنّهم يقدمون عليه حلماً أكثر واقعية هو حلـم تحويل إسرائيل إلى دولة كبرى. حيث تمكن العرب بالرّغم من ظروفهم السلبية وضعفهم العسكري من الحؤول دون تحقيق هذا الحلم لغايـة الآن. حيـث لا يـزال الإقتـصاد الإسرائيلي اقتصاد معونات. وإسرائيل تريد استغلال الفوضى العالمية الراهنة (بما فيهـا العربية) للخروج من هذه الوضعية. هذا الخروج الذي يقتضي إلصاق المصالح الإسرائيلية بالأميركية (تتجه التوظيفات والاستثمارات اليهودية بذات اتجاه الاستثمار الأميركـي. حيث تتركز راهناً في منطقة القوقاز) بما يجعل إسرائيل مستفيدة من أي استراتيجية يمكن للولايات المتحدة اعتمادها. خصوصاً وإن البوادر تشير إلى الرغبة الأميركيـة بتخطـي المفهوم الجغرافي للشرق الأوسط. عن طريق إلصاق مناطق النفوذ الأميركية الجديدة فيه. كما عن طريق فصله عن شمال أفريقيا الذي اعتبر لفترة طويلة امتداداً استراتيجياً للشرق الأوسط.

هذا التصور يحقق لإسرائيل مكاسب عديدة وفي طليعتها نهاية السيطرة العربية (اقتصادياً وديموغرافياً وثقافياً) على الشرق الأوسط. وهذا من شأنه أن يساعد إسرائيل على اختراق حاجز العزلة العربي القائم في وجهها منذ إعلانها. وهكذا فـإن الـسعي الإسرائيلي يتجه باتجاه المحاصصة مع النفوذ الأميركي. حيث إسرائيل شريكة في الحرب الباردة وفي المخاطرة بالاستثمار وبالتالي فإنّها تستمر في دور الـشريك الاسـتراتيجي للولايات المتحدة. هذه الشراكة التي تؤمّن لَها التغذية من الدماء الأميركية. سواء عـن طريق المعونات أو عن طريق تقاسم الأسواق الجديدة.

٣- مصر : إن رغبة الولايات المتحدة بخفض معوناتِها تنعكس علـى مـصر بصورة أساسية. إذ تأتي مصر في المرتبة الثانية (بعـد إسـرائيل) في قائمـة المعونـات

الأميركية. وبالنظر إلى الفوضى العربية والشرق أوسطية الراهنـة (والمتفاقمـة خـلال السنوات القادمة) فإن التوجيه الأفضل لمصر هو باتجاه دول المغرب العربي (شمال أفريقيا) حيث اعترفت الولايات المتحدة لأوروبا بمصالحها الاستراتيجية في هذه المنطقة. وهـو اعتراف تكرس عبر الإعلان عن الأهداف الجديدة لحلف الأطلسي. وكان من مقدمات هذا الإعتراف قيام الولايات المتحدة بتسوية أوضاع المنطقة. إذ قبلت بفك الحصار عن ليبيا عن طريق قبولها بحل لازمة لوكربي. وتركت للجزائريين فرصة العمل للخروج من الصراع الدامي. وغيرها من إعفاءات الهيمنة الأميركية في الشمال الإفريقي. مِما يعطي الفرصة لِهذه المنطقة كي تعيد استغلالَها لثرواتها النفطية والخروج من الفقر الذي داهمها بذرائع مصطنعة وغير مقنعة. لكنّه التسلط الأميركي الذي لا يحتاج إلى مبررات.

وهكذا بات من الطبيعي أن تتجه مصر باتجاه هذه الدول التي ستستعيد غناهـا لتتحول إلى أسواق غنية مفتوحة في وجه الإقتصاد المصري. وهذا الإنفتاح كفيل بحـل أزمات مصر الإقتصادية بما يجعلها قادرة على التخلي عن المساعدات الأميركية ويـزيح العبء عن الخزينة الأميركية. لكن هذا الإتجاه نحو الدول المغاربية لن يعني القطيعة مـع المشرق العربي وإن كان يعني محدودية الدور المصري فيه مع إعطاء دور أكبر للأردن. بِما في ذلك اقتراحات حل المسألة العراقية ومفاوضات السلام.

لكن الولايات المتحدة ستعيد مصر إلى عضوية كاملة في الشرق الأوسط بعـد مضي الفترة اللازمة لتأمين المصالح الأميركية في القوقاز. ومع هذه العودة سيتم اتباع كل من السودان والصومال بالشرق الأوسط الجديد. فهذه الدول الثلاث تملك ثروات مـن اليورانيوم (المحظر الإعلان عن وجوده عداك عن استغلاله). والولايات المتحدة لن تترك هذا اليورانيوم تابعاً لمنطقة النفوذ الأوروبي.

٤- العراق : يشكل العراق لغزاً عصياً على الفهم الأميركي. فالولايات المتحدة لا تجرؤ على تحميل مواطنيها أعباءً ضريبية جديدة لعدم ثقتها باستعداد المواطن للتخلـــي عن جزء من بحبوبته الإقتصادية. مع التأكد على أن أزمة إقتصادية أميركية جدية يمكنها أن تؤدي إلى الانهيار الأميركي. أما بالنسبة لإسرائيل فإن أزمة شبيهة من شأنها أن تخلق موجة هجرة معاكسة (من إسرائيل إلى الخارج) تزداد حدّتها بازدياد حدة الأزمة.

أمام هذه المعطيات يطرح السؤال : كيف استطاع العراق المقاومـــة مـــع أنّ الحصار أصابه بانهيار اقتصادي كامل ؟

هذا السؤال لا يعدم قائمة من الأجوبة على غرار العصبية العشائرية والحكـــم الديكتاتوري...إلخ. ومع ذلك فإن اللغز يبقى محيراً. وعلى أية حـــال فـــإن الولايـــات المتحدة باتت مقتنعة بعدم جدوى الإستمرار في حصار هذا البلد. وهي تعد العدة لإيجاد سيناريو لفك هذا الحصار. وإن كانت تؤجّله إلى ما بعد التسوية العربية الإسرائيلية. وإلى ما بعد المتغيرات التي ستشهدها دول المنطقة خلال هذه المدة. وهي متغيرات لا تقـــف عند حدوث المستجدات المرافقة للأوضاع الجديدة بل تتعداها إلى تغيرات جذريـــة في علاقة دول المنطقة بعضها بالبعض الآخر.حيث الحلف التركي – الإســـرائيلي ســـيجد إنعكاسه ورد فعله الطبيعي في حلف يقابله في المنطقة (على أن لا يتعارض هذا الحلـــف الجديد أو يهدد المصالح الأميركية في المنطقة). فإذا ما تأمنت عضوية العراق في الحلـــف الجديد فان ذلك سيكون أحد السيناريوهات المقبولة أميركياً. فإذا ما تعذر ذلك أمكـــن لقمة عربية، تستدعيها ظروف التفاوض مع إسرائيل وضرورات التنـــسيق العـــربي، أن تسهل عودة العراق وإخراجه من الحصار. فالولايات المتحدة تعلم أن الرأي العام العربي في حالة سبات ولكنه لم يمت بعد.

وان القاعدة العربية وان كانت لا تبالي كثيراً بما يجري على مستوى القمة. إلا أنها تتألم لما يجري للشعب العراقي. وأستطيع التأكيد بان المخابرات الأميركية تملك نص دراسة نفسية أجراها الدكتور الكويتي عويد سلطان المشعان وعرضها في مؤتمر عقــد في الكويت في أبريل العام ١٩٩٤. وتؤكد هذه الدراسة على أن المواطن الكويتي لا يــزال يستشعر مشاعر الاخوة والتعاطف مع المواطن العراقي بغض النظر عن أيــة اعتبـــارات سياسية.

في المقابل علينا أن لا نتوقع أن تكون عودة العراق مجانية بل هي ستتــضمن شروطاً ملزمة يتم طرحها وفق قنوات وصيغ تختلف باختلاف السيناريو المعتمد للحــل العراقي. ولسنا بحاجة للتوقع كي نقول بان العراق سيكون خلال الفترة المقبلة في حالة انشغال تام بعلاج آثار فترة الحصار وانعكاساتها. بحيث سيتحول إلى الحاضر-الغائــب بعدان أن كان الغائب-الحاضر.

٥- سوريا: بقي هذا البلد العربي متمسكاً بمبادئ التفاوض المعلنــة رافــضاً السلوك التفاوضي الإحتيالي المتبع من قبل الإسرائيليين. و كان لِهذا الموقــف أثــره في إحراج الإسرائيليين كونه يفضح واقعة التحفظ الإسرائلي على السلام عبر دفع إســرائيل لإعلان شروط غير موضوعية لتحقيقه. واتباع سلوك مشبوهة للتهرب منه. وهذا يعطي انطباعاً معاكساً لصورة الحمل الإسرائيلي الوديع الباحث عن السلام.

لكن هذا الموقف السوري يصطدم اليوم بجملة متغيرات دولية وإقليمية وحتى داخلية تجتمع على إضعافه. حتى يمكن القول بان هذا الموقف يحتاج الآن إلى تحرك الرأي العام العربي الضاغط في دعمه لهذا الموقف وفي رفضه لتعديلاته. فها هو باراك يبدو بطل سلام يتجه نحو المفاوضات بعزيمة تجعله يواجه احتمالات قيام المتشددين اليهود بأعمـــال

تعرقل السلام وربما محاولاتهم اغتياله و مع ذلك فـــهو يمضي في طريق السلام. وهـــذه الصورة صالحة لسيناريو فيلم أميركي مؤيّد لإسرائيل لكنّها لا تمت إلى الواقع بصلة. فقد رفع باراك لاءات ثلاث لا يمكن تفسيرها إلا في سياق واحد. وهو سياق البحث عـــن الأمن الإسرائيلي عبر تسوية مقابل رفض تام لأي حل نهائي. وسوريا تقع اليوم تحـــت وطأة التفسير الإنتقائي لمصطلح "سلام". فالمفاوض الإسرائيلي اليوم يطلب تفسيراً لمبـــدأ "الأرض مقابل السلام" ويقول بأنّ الأرض عنصر مادي قابل للقياس. أما السلام فهـــو مصطلح معنوي غير قابل للقياس. وهذه الجدلية لا تعكس فقط الـــرفض الإســـرائيلي للعودة بالمفاوضات مع سوريا إلى حيث انتهت (كما هو المطلب السوري). وإنّما هـــو يعني رفض المبدأ الذي قام عليه مؤتمر مدريد. بمعنى أنّها عودة إلى ما قبل مدريد.

وهذا الوضع يجعلنا نرسم صورة للرئيس السوري شبيهة (أو شـــديدة الـــشبه) بصورة الرئيس عبد الناصر. حيث يستطيع الرئيس كسب تعاطف الرأي العام في الأقطار العربية أكثر من قدرته على كسب تعاطف الرأي العام في بلده. دون أن يعني ذلـــك أن الرّأي العام المحلي معارض للرئيس. بل هو يعني أن الرّأي العام المحلي مستقيل من السياسة الخارجية (مسلماً ذمامها للرئيس) ومنشغل في الأمور الداخلية والمعيشية. التي لا يمكنها أن تكون مثالية في بلدٍ نامي يخوض صراعاً مع قوى كبرى. لذلك رأينا سوريا تعاني من وطأة ضغوطات خارجية عصية على الاحتمال (حصار اقتصادي جزئي لتـــسجيلها في جدول الدول الداعمة للإرهاب مع جهود حثيثة لتفجير مشاكلها الداخلية وتهديـــدات تركية متكررة ومدعمة... إلخ).

يضاف إليها ضغوطات داخلية يصعب التعامل معها. وفوق هذا وذاك فقـــدان العمق الاستراتيجي.

هذه الأمور مجتمعة لا تمكن مجابَهتها إلا برفض سوري لأية تسوية عداك عــن السلام. فالتسوية في هذه الظروف تمنح الأمن لإسرائيل وتنتهك الأمن السوري. وموقف الرفض هذا يحتاج إلى حركة جماهيرية واسعة ومنظمة تبدأ برفض اســتمرار العــدوان الأميركي على الشعب العراقي. وتمر برفض أية مشاركة سورية في المفاوضات ما لَــم تستعيد سوريا توازنَها وتتخطى الضغوطات. وبدون دعم مثل هذه الحركة فإن الموقف السوري سيتحول إلى لعبة تجاذبات يصعب التكهن بنتائجها.

٦- الولايات المتحدة : يمكن التأريخ لاستراتيجية أميركية جديدة ابتداءً مــن احتفال الحلف الأطلسي بيوبيله الذهبي. الذي ترافق مع إعلان أهداف استراتيجية جديدة له. حيث تمكن قراءة هذه التغيرات على النحو التالي :

أ-تخلي الولايات المتحدة عن الآحادية القطبية بضم الشركاء الأوروبيين والاعتراف لَهم بمناطق مصالح سواء داخل أوروبا أو في شمال أفريقيا. بما يعادل سقوط مصطلح "النظام العالمي الجديد".

ب -عودة إلى المفهوم الاستعماري القاضي بتقاسم مناطق النفوذ. حيث أعلن الأوروبيون قبل سنوات عن رغبتهم بإنشاء قوة أوروبية للتدخل السريع في شمال أفريقيا. وجاءت المباديء الأطلسية الجديدة تلبي الرغبة في مقابل تحديد مناطق نفوذ أميركــي في الشّرق الأوسط وآسيا الوسطى وأوروبا.

ج- اعتماد مبدأ ترك المشاكل الصعبة للوقت والتصدي للمــشاكل الأقــل صعوبة. حيث ترك الأطلسي فراغاً جغرافيّاً أهم مناطقه الشرق الأقصى (في رغبة لعــدم

إثارة المشاكل مع الصين راهناً) والإقرار الأطلسي بِهذا الفراغ يعني التراجع عن "العالمية" وربّما عن "العولمة" إذا نحن أمعنّا النّظر في العلاقة بين العولمة وبين الأمركة.

ج - استدراج دول الفراغ الجغرافي (آسيا وأفريقيا) وتشجيع القوية منـــها على الدخول في لعبة "شرطي المنطقة" أو في لعبة الأحلاف. بِما يعتبر تكريساً لمنـــاطق نفوذ الأطلسي ويعطل دور الأمم المتحدة فيها.

د - الالتفاف على احتمالات نشوء الأحلاف الغاطسة (أي الأحلاف الـــتي تقوم ثم ينفرط عقدها في مراحل تاريخية معينة. بحيث تتوقع نظريات "الاستقراء التاريخي" المستقبلية قيامة هذه الأحلاف من جديد في ظروف ملائمة وأخطر هـــذه الأحـــلاف الحلف الروسي — الصيني — الأوراسي. وهو الحلف الذي يشكل تَهديداً جدّياً، في حال قيامه، لمصالح الأطلسي.

ه-تفسر لنا النقطة السابقة أسباب السماح بمشاركة روسية محدودة في قـــوة حفظ السلام في كوسوفو. والتخلص السريع من رئيس الوزراء الروسي بريماكوف لأنّه صاحب أحلام من هذا النّوع.

إنْهاء بعض الأدوار الوظيفية لما أصطلح على تسميته بـــ "الإتحاد الأوروبي"

وبناء عليه فإننا نستنتج بأن الرؤية الاستراتيجية — الأميركية للشرق الأوســـط الجديد تتلخص بالنقاط التالية :

١.تأمين استمرارية السيطرة التامة (المدعومة عسكرياً) علـــى الـــنفط العـــربي الخليجي.

٢.ربط رفع الحصار عن إيران بتأمين المصالح الأميركية فيها (حتى ولـــو أدى ذلك إلى تغيير النّظام).

٣.فرض تسوية تستجيب لدواعي الأمن الإسرائيلي. مع إعطاء فرصة زمنيـــة كافية لإسرائيل لانتظار المتغيرات الإقليمية القادمة. التي قد تتيح لإسرائيل فـــرض حـــل نهائي مناسب لَها في صراعها مع العرب.

٤.إبقاء تركيا مشغولة بأزماتِها وربّما توريطها في أزمات جديدة. بما يمنعهـــا من المطالبة بحصص أكبر في منطقة القوقاز أو في البلقان. وربّمـــا تـــسمح الظـــروف بتعويضها عن ذلك بغض النّظر الأميركي عن أطماعها في شمال العراق وسوريا.

٥.التفرغ الأميركي لاستثمار ثروات دول بحر قزوين (آسية الوسطى). بِمـــا يدعم الحزام الأوراسي الإستراتيجي لمجابهة أي تحرك صيني مستقبلي.

٦.تأجيل الإهتمام بحقول اليورانيوم الصومالي (والمصري والسوداني) إلى مرحلة لاحقة. حيث لا داعي للتعجل في كشف ثروات جديدة في المنطقة.

٧.بناءً على ما تقدم يصبح من الأسهل على الولايات المتحدة تغـــيير الحـــدود الجغرافية الراهنة للشرق الأوسط. وذلك على صعيدين.

**الخارجي** : بضم الإمتدادات التركية (دول القوقاز والبلقان) إليه مع تثبيت عضوية أفغانستان وباكستان فيه. ثم لاحقاً إضافة مصر والسودان والصومال إليه.

**الداخلي** : التدخل لمنع التفكك العنقودي لدول المنطقة مع تشجيع انفجـــار المشاكل الأقليات فيها.

٨.إيجاد مخرج مقبول للمسألة العراقية من شأنه أن يخفي الوجه البشع للولايات المتحدة في ممارساتِها السياسية والأخلاقية والعسكرية على هذا البلد.

١- الدور المستقبلي للملكة العربية السعودية.

إن المراجعة المتأنية لمواقف المملكة تبين أن السعوديين لَم يَتَخَلّـوا يومـــاً عـــن مسؤولياتِهم تجاه القضايا العربية. ومواقفهم تنطلق من مبادئ ثابتة تشكل استراتيجية بحد ذاتِها. فموقفهم من الإتحاد السوفياتي لَم يكن موقفاً سياسياً أو تكتيكياً بَل كان موقفـــاً مبدئِياً قوامه رفض الإلحاد الشيوعي والتصدي لَه. وبالتالي فإنّه لَم يكن موقفـــاً لخِدْمـــة الغرب والولايات المتحدة تحديداً. ومثله الموقف السعودي في أفغانستان. فـــصحيح أن هذه المواقف تقاطعت مع المواقف الأميركية لكن ذلك لا ينفي مبدئيتـــها. وإن كــــان يكرس لقاء مصالح استراتيجي.

**واليوم إذ أدركنا الزَمن الصعب فإننا ننكص لمراجعة المواقف المفصلية منـــذ قيام إسرائيل وحتى اليوم فنجد أن العالم العربي كان منقسماً كما كل أرجاء المعمورة إلى :**

١- أصدقاء الولايات المتحدة

٢- أصدقاء الإتحاد السوفياتي.

فإمّا المجموعة الثانية فقد وقعت في الفراغ والفوضى منذ انْهيار الـــشيوعية في العالم (١٩٨٩). أمّا المجموعة الأولى فهي وجدت نفسها (بعد هـــذا الإنْهيـــار) أمـــام متطلبات أميركية جديدة. وذلك عوضاً عن مشاعر العرفان ومظاهره مِما يمكن للصديق توقعه بعد تقديم العون والدّعم لصديقه. على أن هذا الإنقلاب الأميركي لَم يبدأ بعـــد نهاية الحرب الباردة بل قبلَها بسنوات طويلة. فالإطاحة بشاه إيران لَم تكن لتَتُم بـــدون تَخلي أميركي عنه. ولَم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن تـــوريط الـــسعودية والعـــراق والمنطقة كلَها في الحرب مع إيران. بل إنّه من المستبعد تبرأة الولايـــات المتحـــدة مـــن مسؤولية تمديد أمد هذه الحرب التي شهدت نهاية غير مكتملة. بما يوحي بأنّ حـــرب الخليج الثانية إنّما جاءت تَتِمّة لَها. وبات من المعروف اليوم جهود السعودية للحيلولـــة دون اندلاع هذه الحرب وللتوفيق بين العراق والكويت. وندرك اليوم أن نجـــاح هـــذه الجهود كان مَمنوعاً أميركياً. ومع ذلك فقد بَقِيَ اللوم للسعودية شديداً بهذا الخصوص. بَل إنّه تعمق بالسّماح بتواجد أجنبي في الأراضي المقدسة الإسلامية. لكن هذا اللوم يفقد حدّته عندما نَرى الإتحاد الأوروبي ينساق للتورط في كوسوفو مع ما في هذا التورط من أخطار تهدد بلدانه في إقتصاديتها واســـتقرارها وأيـــضاً في إجبارهـــا علـــى تعـــديل استراتيجياتِها. وهذا الموقف لَم يكن سوى تكراراً لانسياق هذه الدول إلى حرب الخليج الثانية، مِمّا يعني بأن للشراكة الإستراتيجية حدودها أميركياً. ويجيء الإعلان الأميركـــي عن "صدام الحضارات" بفرعية الصيني والإسلامي. فنجد أنّ السعودية تحولت إلى رمـــز مهدد للمصالح الأميركية وإلى متصادم معها. إذ أن إيران في وضع احتواء أميركي يجعلها عاجزة عن تهديد هذه المصالح إلا عبر النافذة السعودية التي تبقى المعنية بطرح "صـــدام الحضارات". مع أن السعودية لم تظهر يوماً في موقف المتصادم مع الحـــضارات. فهـــي تعاملت مع المسيحيين واليهود (العرب والأجانب) من منطلق إسلامي بحت باعتبـــارهم "أهل كتاب". بل إنّها قدّمت لبعضهم دعماً حيوياً لإستمراريتهم. وهذا أمر يدعونا إلى

تحري سبب إلصاق هذه التَهمة بالسعودية تحديداً ؟. حيث نَجد قدرة سعودية فائقة على الخوض في بِحار المتغيرات العالمية والإنسانية العاصفة. ونبدأ بـــ :

أ- على الصعيد الإنساني : أدركت السعودية أن دور الأفـــراد في التـــاريخ الإنساني غير قابل للإقالة أو للتقاعد. ولكنه قابل لتغيير صعد التأثير. فهو تحول من صعيد الفرد – القائد العسكري إلى صعيد الفرد القائد السياسي إلى صعيد الفـــرد – القائـــد اقتصادياً. وانطلاقاً من هذا الإدراك تمكنت السعودية من تخريج جيش من رجال الأعمال العرب والمسلمين الذين يجيدون اللعبة بحيث دخلوا بِمهارة في نادي الأفراد المـــؤثرين في تحديد اتجاهات المصالح.

كما تَمكّنت السعودية من التأسيس لمحطات اتصال إنساني وسيطة. وبـــذلك استطاعت المملكة المحافظة على النِّظام الإجتماعي وفق التصور الإسلامي. دون أن تنغلق على الأنظمة الأخرى وتفقد الإتصال بِها. وهي اعتمدت على جيل جديد من الأفـــراد المؤهلين لإقامة مثل هذه المحطات.

ب- على صعيد السياسة العالمية : لقد دخلت السعودية كعنصر مقـــرر وذي نفوذ إلى مسرح السياسة العالمية. فاكتسبت بذلك موقعها السياسي المميز. الذي يجعلها مرجعاً لا يمكن تجاوزه في المسائل الإسلامية والشرق أوسطية خصوصاً والعالمية عموماً. وهذا الوزن السياسي المتصاعد جعل الولايات المتحدة عاجزة عن تخطي الرؤية السياسية السعودية أو تجاهلها. ولعل حرب الخليج الثانية كانت بداية الإعلان الأميركـــي عـــن التصادم مع الإسلام (السعودية خصوصاً).

ولا شك أن السعودية، ومعها المنطقة العربية، قد دفعت ثمناً باهظاً لهذا الصدام. لكن الأهم أنّها تمكنت من الخلاص منه سالمة وأن بتضحيات.

ولكن ماذا عن المستقبل ؟ وسؤال المستقبل يستتبع معه السؤال عن مصير الحكم السعودي. وهو سؤال يتكرر طرحه في بعض المناسبات.

والجواب عليه يقتضي التعرف إلى منطلقات أساسية للحكم السعودي وأهمها :

١- أن السعودية لَم تَسعى يوماً لأن تكون قوة عسكرية ضاربة. بالرغم مـــن الإغراءات التي وفرها سياسات الحرب الباردة. فالمملكة موجودة في محيط إسلامي وهي تشكل قبلته. لذلك وجدت أن من واجبها الترفع عن الدخول أو عن الاستعداد لخوض أية معركة كانت. لذلك فهي فضلت دائماً البقاء خارج الصراعات العسكرية. فاقتصر دورها على التدخل لمساعدة العرب والمسلمين في حماية أنفسهم.

٢- أن للسعودية مفهومها الإنتقائي الخاص للأرض. فهـــي تهـــتم بالقـــدس تحديداً. وما دونها هي أراضي خاضعة لمباديء العرض والطلب. والتجاذبات السياسية.

٣- أن التضحيات التي قدمتها الـــسعودية ومعوناتهـــا إلى العـــالمين العـــربي والإسلامي هي تضحيات لا توضع موضع الشك.

٤- أن السعودية هي الدولة الوحيدة في المنطقة التي تملك القدرة على التعامل مع التحولات المرتقبة، بما في ذلك التعامل مع إسرائيل، دون أن تحتاج لإجراء تعديلات أساسية في استراتيجيّتها.

٥- لقد تمكنت الأسرة المالكة السعودية من التحول إلى مؤسسة حديثة قادرة على مواجهة مختلف الإحتمالات. بحيث تمكنت من توظيف طاقاتِها توظيفاً فاعِلاً بمـــا يضمن استمرارية هذه المؤسسة.

مِما تقدم يتبين لَنا أن السعودية ستكون المرشحة الإقليمية الوحيدة للمـــشاركة في ولادة المفهوم الجديد للشرق الأوسط. وهي تضع في المقدمة الإعتبارات التالية :

١- المحافظة على الحق الإسلامي في القدس الشريف.

٢- وضع حد نِهائي لمأساة الشعب العراقي.

٣- إيجاد حلول حاسمة للنـــزاعات الحدودية في المنطقة.

٤- التعايش الهاديء مع الظروف المستجدة في المنطقة.

٥- الإستعداد للأزمنة القادمة نتيجة تدفق بترول القوقاز إلى السوق العالمية.

٦- إعادة إدماج إيران في المنطقة بعضوية كاملة.

٧- محاولة احتواء الدول الداخلة حديثاً إلى المنطقة.

٨- العمل على الحد من جراحات البتر الجغرافي (التقسيم) المتوقعة في المنطقة.

٩- نزع فتيل مشاكل الأقليات المتفجرة.

١٠- الموافقة على توسيع المفهوم الجغرافي للشرق الأوسط لضم دول إسلامية جديدة إليه.

١١- الضغط لإيجاد حل نهائي للمسألة الفلسطينية.

١٢- الإستعداد لتحمل المسؤوليات التي يفرضها دور قيادة السعودية للعالمين العربي والإسلامي. حيث ستخرج معظم دولهما، من الفوضى الراهنة، وهـــي بحاجـــة لترتيب أوضاعها الداخلية وإعادة إلتقاط أنفاسها.

٢- الخلاصة النهائية للتصور

تشكل تسوية الصراع العربي الإسرائيلي الحد الأدنى المقبول أميركيـــاً لترتيـــب أوضاع المنطقة. وهذا يعني عضوية إسرائيلية (جزئية تتحول لاحقاً إلى كاملة) في الشرق الأوسط. ويكتمل التصور الأميركي لمستقبل المنطقة بتحويلها إلى كتلة كاملة تتبع لحلف الأطلسي استراتيجياً. أو بإقامة حلف يستبعد دول المنطقة الفقيرة ويضم إليه أعضاء جدد من أغنياء خارج المنطقة. مع ضمان عضوية إسرائيل في كلتا الحالتين (الكتلة أو الحلف). بما يؤمن المصالح الأميركية في المنطقة تأميناً كاملاً بعيداً عن المتغيّرات العالمية المحتملة. بما فيها احتمال بروز تحالف صيني مع المحيط الآسيوي أو الروسي.

وبما أن مستقبل الشرق الأوسط مرتبط بأهميته الإقتصادية فإن هـــذا الـــربط يقتضي تصفية بؤر الصراع العسكري فيه. وهذا يعطي للسعودية موقع الصدارة في قيادة المنطقة. ويتعزّز هذا الموقع السعودي باستخدام المملكة نفوذها لإخراج العراق من حالته

الإقتصادية. كما في استخدامها لِهذا النفوذ من أجل تصفية الـــصراعات المكبوتـــة في المنطقة. لكن هذا الدور السعودي لن يمر دون اعتراضات إسرائيلية. وفي مقدمتها إعلان إسرائيل عن خوفها من التَحول إلى سوبرماركت عربي (سعودي خـــصوصاً) في هـــذه الحالة.

أما من الناحية الجغرافية وبناءً على ما تقدم فإن خارطة الشرق الأوسط سوف تشهد متغيّرات عميقة خلال العقود القادمة. وستتم هذه التغييرات على مراحل هي :

١- انضمام إسرائيل إلى الشرق الأوسط بعد إبعاد مصر المؤقت عنه وإلصاقِها بالمغرب العربي.

٢- عودة إيران لعضوية المنطقة بعد الدخول الإسرائيلي وفك الحصار عنها بشروط مناسبة.

٣- إلحاق دول بحر قزوين (القوقاز النفطي) بالمنطقة بعد تأمين المصالح الأميركية فيها.

٤- عودة مصر إلى عضوية المنطقة ومعها السودان والصومال بعد تسوية مشاكلهما الداخلية.

٥- إعادة نظر جذرية في جغرافيا المنطقة وفق الإحتمالات التالية :

أ- في حال قدرة المنطقة على التحول إلى كتلة واحدة ونجاح تجربة إلحاقهـــا بالأطلسي يمكن تحويلها إلى متوسطية بضم دول شمالي إفريقيا إليها (حيـــث مـــصطلح المتوسطية كباقي المصطلحات فاقد لدلالاته الجغرافية الدقيقة).

ب- في حال إقرار مبدأ الحلف الشرق أوسطي يتحول الأمـــر إلى تفكيـــك الدول الباقية خارج إطار الحلف وضم أقسامها تدريجياً إلى الحلف.

ج- في حال قيام قطب بديل في مواجهة الولايات المتحدة تعـــود المنطقـــة للتفكك. حيث ستكون إسرائيل الدولة الوحيدة القادرة عسكرياً على التمرد واستغلال الفرص لإعادة إحياء حلم "إسرائيل الكبرى" وهذا الإحتمال يرسم نهاية شهر العـــسل الإسرائيلي – الأميركي (وربَّما قرن العسل).

في النَهاية لا بدّ من التذكير بأن علم المستقبليات، الذي حاولنا الإســـتناد إلى معطياته في الدراسة الحاضرة، لَم يستطع بعد أن يخرج من إطار التكهن. فهو عاجز عن الإحاطة بالإحتمالات الأكيدة للحوادث التي ستقع في الفترة الفاصلة بين الحاضر الذي ننطلق منه (ونستغل تراكماته المعرفية – التاريخية) وبين المستقبل الذي نحاول الـــتكهن بملامحه. خصوصاً وأن كل حادث من حوادث هذه الفترة الفاصلة يمكنه أن يقلب كـــل التوقعات رأساً على عقب. كما لا بد لنا من الإعتراف بأن تـــصوراتنا قـــد أهملـــت مشهدين رئيسيين من مشاهد الراهن العالمي وهما : ١- التطرف : بوجوهه المختلفة من قومية ونازية وآرية وإسلامية ومسيحية ويهودية وغيرها. وكأنّ إهمالنا لِهذا العامل ناجماً عن كونه عاجزاً عن تخطي السيطرة المفروضة عليه راهناً. و ٢- الجوع : وهو عامـــل مفجر للثورات عبر تاريخ البشرية. حيث تعاني منه اليوم دول تملك أســـلحة الـــدمار الشامل مثل كوريا الشمالية والهند وباكستان. كما تعاني منه دول أخرى لا تملك مـــا

تفقده وهي أقدر على المغامرة. ويكفينا، في هذا المجال، التـــذكير بقـــدرة الـــصوماليين الجوعى على تحدي المارينز الأميركي. أما لماذا أهملنا هذا العامل فمرد ذلك إلى التصميم الأميركي على إقرار نفوذ يتوافق والقوة العسكرية الأميركية.

***

# أميركا والعرب

## *العلاقات العربيـــة*
## *الأميركية و حوادث الثلاثاء*

لم تكن العلاقات العربية الاميركية تخلو من الإضطراب بسبب الصراع العربي الاسرائيلي. و لم يكن ينغص هذه العلاقات سوى تزامن أزمة اقتصادية اميركية خانقة مع كارثة اميركية يزعم الأميركيون أنها من صنع عربي. لكنهم يعجزون حتى اليوم عن ايجاد الأدلة على هذا الزعم. لكن هذا العجز لم يمنع تحول العلاقات العربية الاميركية الى علاقة عدائية تبرر للطرف الأقوى ممارسة قوته بدون روادع. فكانت حرب افغانستان وتلتـــها حرب العراق وسلسلة الحروب الأميركية ضد العرب تتوالى

همس جورجي آباتوف (مستشار غورباتشوف) في أذن أحد كبار المـــسؤولين الأميركيين قائلا": "اننا نصيبكم بخطب جلل اذ نفقدكم العدو! ".

نشوة النصر في حينه لم تتح مجالا" لاستشعار الأميركيين لهذا الخطب الجلـــل. لكن الوقائع بينت لاحقا" أهمية وحيوية وجود عدو لأميركا. اذ أنها تكاد لا تقوى على الاستمرار بدون وجود عدو ما!. فالسياسة الخارجية الأميركية تخضع لجملـــة ثوابـــت استراتيجية تنطلق منها في تحديد تعاملها مع الآخر ( أي في تحديد ملامـــح سياســـتها الخارجية ). ولعل أشهر نقاد هذه الثوابت المستشعرين لأهمية وجود العدو هو صموئيل هنتنغتون في مقالته " تآكل المصالح الأميركية" المنشورة في مجلـــة "شـــؤون خارجيـــة" الأميركية واسعة التأثير والانتشار (The Erosion of American Interest

). حيث أكد أن انفجار أوكلاهوما لم يكن ليحصل لو كان للولايات المتحدة عـــدوا" خارجيا". وهو بذلك بدا وكأنه يحذر من أن غياب العدو يستتبع انفجـــار الفوضـــى الداخلية. وبدا كلينتون مقتنعا" بهذه الفكرة فراح يصنع الأعداء ( في غياب عدو حقيقي معلن) ويفتعل المواجهات المحدودة الثمن الاستراتيجي ويستغلها اقتصاديا" فبدا وكأنـــه يصدر الفوضى الى الخارج.

على أننا يجب ألا نفهم هذه الحاجة للعدو على أنها حاجة مازوخية (رغبـــة في تعذيب الذات) لأنها في واقع الأمر حاجة الى الجانب التواطؤي للعدو. وأولى خطـــوات تواطوء العدو الأميركي هو أنه يتيح لأميركا التموقع بالنسبة اليه ( أي يعطيهـــا فرصـــة مخالفته لاثبات تميزها واختلافها. وذلك على غرار ما فعلته مع أوروبا ومع النازية ومـــع الشيوعية). لكن فائدة العدو ،بالنسبة للولايات الولايات المتحدة، لاتقف عند هذا الحد بل تتعداه الى التفاهم الضمني على اقتسام النفوذ وتوزعه بحجة تجنب الصدام بين الأعداء الكبار.

وتوالت الترشيحات الأميركية لمنصب العدو الأميركي. فرشح هنتنغتون كلا" من الاسلام والكونفوشية كعدوين حضاريين. أما جاك آتـــالي ، ومعـــه قائمـــة مـــن الاستراتيجيين، فقد رشح الاتحاد الأوروبي لهذا الدور. ورشح بعضهم الاتحاد الروسي ( الناجم عن التقاء روسيا مع بعض الجمهوريات السوفياتية السابقة). في حين أصر آخرون على ترشيح الصين ولكن بطابعها القومي وليس الكونفوشي. وأغرق بعضهم في التنظير فاعتمد مبدأ أن القطب الجديد يجب أن يكون غير متحضرا" وغير متوقع فكان ترشـــيح أفريقيا لدور العدو (خاصة بعد مشاكل جنوب افريقيا العنصرية). زبغينو بريجنسكي من جهته رأى الخطر في الحزام الأوراسي داعيا" لتركيز الجهود الأميركية عليـــه. اليابـــان بدورها وجدت من يرشحها وان كانت قد أعلنت اســـتقالتها. ولا نغفـــل في ســـياق الترشيحات ترشيح نيكسون لأستراليا ولكن كوريثة للولايات المتحدة وليس كعدو!؟.

أحداث الثلاثاء الأميركي جاءت لتثبت واقعية تحليل هنتنغتــون وتوقعــه انفجار الفوضى الداخلية في غياب العدو الخارجي. كما أثبتت هذه الأحداث مهــارة كلينتون في اختلاق الأعداء واختراعهم كحجج لتصدير الفوضـــى الداخليــة ومنــع انفجارها. الأمر الذي طرح السؤال عما اذا كانت أحداث الثلاثاء لتحدث لــو كــان للولايات المتحدة عدو خارجي؟.

والجواب هو لا قاطعة ومؤلمة لادارة بوش. فأيا" كانت الجهة الفاعلة فان وجود العدو كان سيستوعبها. فوجود العدو المعلن يقضي أو يقلل من قدرة تحــرك الأعــداء المستترين. بل أن الحاجة الماسة والطارئة للعدو جعلت الولايات المتحدة تقبل باعطاء هذا الدور على عجل لشخص فرد هو "بن لادن" !. بما في هذا القبول من احراج وانتــهاك للهيبة الأميركية.

فقد كانت أميركا بحاجة ماسة وحيوية الى متهم جاهز يساعدها على ضـــبط الفوضى اللاحقة لمثل هذه الاعمال. حيث كان من المحتمل أن يقوم الفرقاء الـــداخليين المعادين للحكومة الفيديرالية باستغلال الموقف الفوضوي ليقوموا بعملياتهم وليتحركـــوا باتجاه تحقيق أهدافهم. واستنادا" الى حادثة أوكلاهوما فان الجمهور الأميركـــي يـــشك بالشرق أوسطيين وهو بالتالي يقبل اتهامهم دون تفكير أو مناقشة. مما يجعلهم متـــهما" جاهزا" لانقاذ أميركا من احتمالات اندلاع فوضاها الداخلية. وبات لزاما" علـــى ادارة بوش أن تعود الى اسلوب كلينتون في تصدير الفوضى الى الخارج. لكن هذا التـــصدير تأخر الى ما بعد انفجارها وهنا الخطورة.

كن ماذا عن آثار هذا التصدير المتعجل وانعكاساته الجانبية؟. وهل يمكـــن أن يكون هذا التصدير بمستوى خطورة الفوضى الداخلية نفسه؟

لا شك أن التصدير قد جنب أميركا ويلات كثيرة أهمها الويلات الاقتصادية. فلو بقيت الفوضى داخلية لانهار الاقتصاد الأميركي دون رجعة. فقد ســاعد التــصدير على تقنين المشاعر السلبية لدى الجمهور الأميركي ووجهها باتجاه عدو معروف ومحدد

بدل أن يفقد السيطرة عليها. فافتقاد الجمهور لحاجاته الأمنية في غياب تعريـــف دقيـــق للعدو من شأنه أن يدفعه باتجاه تذنيب مسؤوليه الأمنيين مما يجعل الشكوك تطاول قواعد الأمن الاجتماعي في المجتمع الأميركي. مع ما ينطوي عليه ذلـــك مـــن فقـــدان ثقـــة الأميركيين أنفسهم باقتصاد بلادهم وتحويلهم لاستثماراتهم الى خارجها. بما كان يمكنـــه أن ينعكس بانهيار درامي في وول ستريت. الا أن هذه الفوائد لا تلغي الآثار الجانبية المرة لهذا التصدير المتسرع ومن أهم هذه الآثار نذكر:

١. . تهديد الولايات المتحدة الذاتي لمصالحها النفطية. اذ أن اتهامها لـــبن لادن أثار نوبة حساسية جديدة تجاه تواجدها في منابع النفط وهدد هذا الوجود بـــدعم شعبي لمعارضيه.

٢. اصطناعها لصدام حضاري يحيد بل يشل قدراتها العسكرية المتفوقة.

٣ . اختزال العدو الحضاري للأمة الأميركية بشخص فرد!. واقامة تحالف دولي ضد فرد؟. مع اعطائه صفة رمزية تحوله الى مناضل أسطوري.

٤. التورط العسكري مع عدو ليس لديه ما يخسره. لذا فهو راغب في استدراجها الى حرب عصابات لا تدع مكانا" لممارسة التفوق التكنولوجي.

٥.. عدم امكانية حسم مثل هذا التزاع بما يليـــق بـــالتفوق الاميركي وعضلاته.

٦.. ازمة ايجاد القرائن القانونية الحاسمة لاثبات التهمة على بن لادن وتنظيمه.

٧.التساؤلات التي تتوالى مثل كرة الثلج حول التقصير الأمني الأميركي. فلـــو كان العدو أكبر قياسا" لاجترحت الأجوبة والتمست الأعذار للتقصير الأمني. أمـــا أن يكون العدو شخص فرد ويتمكن من تحقيق كل هذه الاختراقات فان ذلك يعني غياب الأجهزة الأمنية عن الوعي وفقدانها له. بما يستتبع سلسلة من التحقيقات والمحاكمات غير ممكنة التجنب. مع ما تنطوي عليه من احراجات وتهديدات لاحقة للأمن الأميركي.

٨ . اثارة المعتقدات الضمنية عند العرب والمسلمين. وهذا النـــوع مـــن المعتقدات يكون في العادة فرديا" وضمنيا" وغير ممارس. مع قناعة بعدم اتـــساع دائـــرة المؤمنين بهذه المعتقدات الضمنية. فاذا ما جاءت قـــضية بـــن لادن انفجـــرت هـــذه الاعتقادات لتعلن العداء للولايات المتحدة.

أمام هذه الوقائع بات على الولايات المتحدة أن تنقذ علاقاتها مع العـــرب والمسلمين. أقله حفاظا" على مصالحها معهم. وذلك بحيث أصبح من المستحيل علـــى ادارة بوش الاستمرار في سلوكها الموحي برغبتها في اعادة احياء حلف بغداد جديد يضم اصدقاءها في المنطقة. وكذلك اصبح التفكيك العنقودي لدول المنطقة أكثر صعوبة. لكن العودة الى التحليل النفسي لبوش الابن وديك تشيني تظهر أن عنادهما قد يـــدفع بهمـــا لركوب مخاطر هذه الحلول المستحيلة. وحدها أزمة الاقتصاد الأميركي قد تكون الرادع لتنفيذ مثل هذه السياسات. فخلاص الولايات المتحدة من الانهيار مرتبط بالنفط العربي. فهو الدماء التي يحتاجها هذا الاقتصاد كي ينجو من الموت.

الا أن المأزق الأميركي الراهن يعيد طرح الـــصراع النظـــري بـــين التيـــارين الأميركيين الرئيسيين في السياسة الخارجية الأميركية. وهما التيار الانفتـــاحي ونقيـــضه الانعزالي الداعي الى تجنب زيادة الانفاق بالتسلح وتقديم التضحيات المهددة للاقتـــصاد الأميركي. وهو تيار لاقى هزيمة منكرة على يد كلينتون الذي تمكن من تحقيق أول فائض أميركي في ميزان المدفوعات منذ العام ١٩٥٦ وكان ذلك في العام ١٩٩٩ حيث أثبت امكانية تعويض التضحيات الأميركية في سبيل العام الحر. لكن هذا التيار عاود الظهـــور بقوة مع مجيء بوش الأبن. فقد اقترنت الأشهر الأولى لولايته بجملة حـــوادث. بـــدءا" بباخرة الصيد اليابانية (اصطدمت بمدمرة أميركية فاعادت طرح المطالبة بالغاء القواعـــد الاميركية في اليابان) مرورا" بأزمة الطائرة الصينية ومعها اصرار بوش علـــى مـــشروع الدرع الصاروخي الذي استفز الحلفاء قبل غيرهم وأيضا" رفض التوقيع علـــى ســـبعة معاهدات دولية (بما فيها التراجع العلني عن كيوتو الخاص بالبيئة والذي أعلن بوش عن

تأييده أثناء الانتخابات ليتراجع بعدها). مرورا" بحوادث سينسيناتي العنـصرية (ابريـل ٢٠٠١) التي قمعت بعنف يتعارض والليبيرالية الاميركية. وصولا" الى ذلـك الثلاثـاء الأميركي. الذي أصاب الولايات المتحدة في مقتل وأجج الفوضى الاستراتيجية فيها.

فقد أخذ الجمهوريون على كلينتون أنه لم يتصرف وفق استراتيجية واضـحة. بل أنهم اتهموه بالتسبب في فوضى استراتيجية جاء بوش لاصـلاحها. حيـث بـدت اصلاحات بوش على النحو التالي: العودة الى زمن ريغان الجمهوري الجميـل. حيـث تقتصر أهمية الشرق الأوسط على نفطه وبالتالي على نفط العراق وايران. ممـا يـسمح بتوسيع اطار الشرق الأوسط ليضم جمهوريات بحر قزوين النفطية والسودان لاحقـا". فتتسع المنطقة للعضوية الاسرائيلية وللسيطرة الأميركية النفطية. وهذا السيناريو يقتـضي استغلال الصراع الأهلي في السودان والخلاف الايراني – الأذربيجاني وايجاد المخـرج للمسألة العراقية بما يؤدي لتسهيل حل الصراع العربي – الاسرائيلي بتسوية مقبولـة أو بحرب باردة مديدة. أما في الشرق الأقصى فيعود الـسيناريو الى نـصائح الجمهـوري نيكسون ليرى في أوستراليا خليفة للولايات المتحدة في المنطقة. بما يأتي استمرارا" لدعوة كلينتون لضمها الى حلف الناتو. واقتضى هذا السيتاريو خطوات عملية نفذها بوش في أشهره الأولى وهي: الاصرار على الدرع الصاروخي واقتراح العقوبات الذكيـة ضـد العراق والتمديد لايران كراعية للارهاب لخمس سنوات وتخفيض الفائدة والعمل علـى تدعيم المخابرات واستعادتها لدور فاعل.

لكن أحداث الثلاثاء عطلت هذا السيناريو فوضعت ادارة بوش أمام مأزق استراتيجي بحجم الأحداث. حتى بدت تصرفاتها وكأنها تعتمد فرضـية صـراع الحضارات ( الاعلان عن حرب صليبية والتراجع عنها وعن اسم الحملـة – العدالـة المطلقة). ثم كان دخولها الى باكستان موحيا" باعتمادها نظرية بريجنسكي حول الحـزام الأوراسي. وبعدها بداية القصف على غرار حرب المخدرات الكولومبية. وأخيرا" هذيان

اللوائح المحددة للتنظيمات الارهابية وفيها نسبة من التنظيمات المنحلة منذ سنوات بمـــا يفضح تخبط المخابرات الأميركية ومأزق اداراتها.

في المقابل تمكن العدو ،المحضر على طريقة الوجبات السريعة، مـــن مـــساعدة اميركا على تطبيق مقولة نيكسون "... على أعدائنا أن يدركوا أننا نتحول الى حمقى اذا ما ضربت مصالحنا. بحيث لا أحد يعرف كيف سنتصرف بالقوة التدميرية الهائلة الـــتي نمتلكها. وعندها فقط يرتعد أعداؤنا خوفا" منا..." وبحجة هذه الحماقة وجـــدنا دول الاتحاد الأوروبي تنساق للمشاركة في التحالف ضد أفغانستان وروسيا تكاد توافق على الدرع الصاروخي والصين تسكت على التواجد الأميركي على تخومها المباشرة. ونتائج هذه الحماقة تقدم مكاسب هائلة للولايات المتحدة. لكن هذه المكاسب مؤقتة وغير قابلة للاستمرار. فالصين لن تتحمل طويلا" هذا التواجد على تخومها ولن تقبل ان تساق على غرار الاتحاد السوفياتي. أما الجنرالات الروس فانهم لن يصمتون طويلا" أمام هذا الوضع. كما خبر الأوروبيون التزام أميركا حرب كوسوفو والعرب التزامها لحرب الخليج الثانية. من هنا فانه من الطبيعي أن تحاول ادارة بوش استغلال هذه الفرص العابرة قدر الامكان والاحتياط للكوارث الاميركية المحتملة لاحقا". لكن الادارة الاميركية تتصرف باطمئنان جالب للشكوك. اذ تبدو وكأنها توصلت للسيطرة على أي تهديد مستقبلي. مع اعلانها ان الحرب ضد افغانستان قد تستغرق عشر سنوات. مما دفع بالعديد مـــن المحللـــين الى اعتبار هذه الحرب نسخة منقحة عن حرب الخليج الثانية. حيث من الممكن دعم تحالف المعارضة الشمالي دون تحالف اميركي مباشر لانشاء منطقته الخاصة ليكون نسخة عـــن المنطقة الكردية شمالي العراق. كما أن مساحة ضيقة جنوبية لاتضم البلوشتان يمكنها أن تلعب دور المنطقة الجنوبية العراقية. وعندها تبقى القوات الأميركية في المنطقـــة لتقـــوم بغارات مقسطة تقسيطا" مريحا" على مدى سنوات.

ولكن ماذا عن العلاقات العربية — الأميركية وهي موضوع حديثنا ؟.

في سيرورة الحدث كما هو مشروح أعلاه ،وفق التخيل الأميركـــي، لا مكان للعرب في أية معادلة استراتيجية. وأهميتهم انما هي أهمية نفطهم الـــذي ستـــسعى اميركا لتأكيد سيطرتها عليه والاطمئنان على هذه السيطرة. بما يضع العـــرب خـــارج الحسابات الأميركية الاستراتيجية لكونهم لايشكلون أي تهديد قابل للنقاش وفق السياق المعروض أعلاه. وربما كان للقوة الايرانية دورها في هذا الـــسياق. ويبقـــى أن تعمـــل المخابرات الاميركية على توسيع الهوة بين الحكام العرب وبين شعوبهم. ولعـــل أســـذج الفرضيات المطروحة بعد ١١ سبتمبر هو أن أميركا باتت تسأل نفسها لمـــاذا يكـــرهني العالم على هذا النحو؟. أما الفرضية الغبية فتقول بأن أميركا ســـوف تـــسعى جاهـــدة لاسترضاء العرب ولو على حساب اسرائيل !؟.

من هنا فان على العرب الجد في السعي لكسب الرضى الأميركـــي وتقـــديم نفطهم ليكون وسيلة ابتزاز لأوروبا واليابان أمام الكوارث الأميركية الاقتصادية المقبلـــة وغير ممكنة التجنب. فالولايات المتحدة أمام التهديد الاقتصادي مستعدة لاحتلال الشرق على الطريقة الكولونيالية القديمة كبديل لصيغة الانتداب التي تمارسها راهنا".

لكن حكمة لابد من ذكرها في سياقنا وهي القائلة أن القوة ليست واقية مـــن الموت. وأن الجبابرة الأسطوريون يموتون دائما" بصورة مفاجئة وغير متوقعة وهـــم في أوج قوتهم وجبروتهم. هكذا مات شمشوم وأخيل والاتحاد السوفياتي. واذا كان لكل من هؤلاء الجبابرة نقطة ضعفهم المميتة فلا بأس من مجرد تعداد نقاط ضعف الجبار الأميركي وهي التالية:

١. الثغرات الأمنية واختراقات ما بعد التراخي الأميركي في التسعينيات.
٢. ثغرات النظام الرأسمالي ( انظر كتاب شوروش: أزمة الرأسمالية العالمية).
٣. انفجار الايديولوجيات الذي صاحب انفجارات الثلاثاء.
٤. التفرقة العنصرية داخل اميركا ( من ليتل روك الى سينسيناتي).

٥. ثغرات جهاز المناعة في الجسد الاميركــي ( الجمــرة الخبيثــة كنمــوذج اختباري).

٦.عشوائية السوق والبورصات ( لم تتوصل اميركا حتى اليــوم الى اســتقرار مؤشرات بورصتها. وبينت جميع الدراسات أن للسوق مزاجها الخاص).

٧.الميليشيات الأميركية البيضاء ( المسؤولة عن انفجار اوكلاهوما).

٨.حرب المعلوماتية وفيروساتها القادمة ( فيروس ريد كود هو مقدمتها).

## تغيير الخارطة العربية :

تقـــرير مخابراتـــي: أميركا ســتعيد رســـــم خريطــة جديــــــدة للشـــرق الأوســـط

يُفيد تقرير مخابراتي ورد في نــشرة "فــورين ريــورت" الأميركيــة الاستراتيجية إن من بين المصالح الأمنية الأميركية في المنطقة، بعد الحملة الأميركية علــى أفغانستان، إبرام تسويات سلمية في الشرق الأوسط تستقر مع إعادة رســم الخريطــة السياسية الجديدة للمنطقة التي تشتعل بالصراعات الاقليمية والدولية وفقــا للتخطــيط الأميركي، بينما يبقى الاهتمام الأميركي في المنطقة هو المحافظة على التفوق العــسكري الاسرائيلي وخلق كيانات صغيرة في المنطقة للمحافظة على ذلك التفوق، ومن ثم تأمين تدفق البترول من الخليج العربي وبحر قزوين الى الغرب بالمعدلات والأسعار الملائمة لــه، وتأمين خطوط المواصلات البحرية العالمية بما يخدم حرية التجارة الدولية بلا قيود، وتدفق الصادرات الأميركية والأوروبية، وفي مقدمتها السلاح، الى الدول العربية، ودول جنوب آسيا. ويضيف المصدر الآنف الذكر "ان هناك في بعض الدول العربية المجاورة لاسرائيل فريقا أميركيا من كبار المخططين السياسيين يدرس أحوال الدول العربية وذلك بهــدف تفكيك دول المنطقة وإعادة تركيبها من جديد، بل ان بعض الدول ستظهر في المنطقــة وسيختفي بعضها الآخر". ويرى المخططون الأميركيون أنه بالإمكان تفتيت دول المنطقة

وإعادة تركيبها كما حدث عندما قام في ٣ نوفمبر ١٩١٦، السير مارك سايكس، ممثل الامبراطورية البريطانية، والمسيو فرنسوا جورج بيكو، ممثل مصالح الامبراطورية الفرنسية، بالتوقيع على ما سمي بـــ "اتفاق سايكس بيكو" وتم التصديق عليه في فبرايـــر، وهـــو الاتفاق الذي تمت على يده ولادة الكيانات العربية كما نعرفها اليوم.

ولا شك في أن اتفاق "سايكس ـــــ بيكو" كان نتيجة صراع بريطاني ـــــــ فرنسي، اعاد تشكيل الشرق الأوسط كعمل من أعمال سياسة القوى الأوروبية الكبرى في زمن التوسع الاستعمار الأوروبي عقب الحرب العالميـــة الأولى، وصـــحيح ان هـــذا الاتفاق كان محصورا في المشرق العربي "أي سوريا، لبنان، فلسطين، الأردن، العراق" إلا انه دوره كان يشمل الشرق الأوسط بمفهومه الأوسع، أي بالاضافة الى دول المـــشرق، كانت هناك مصر وايران وتركيا والجزيرة العربية، الى جانب أفغانـــستان ودول آســـيا الوسطى الروسية آنذاك، السوفياتية فيما بعد، وكانت ساحة الصراع تمتد حول طريـــق الهند الذي، حتى ذلك الوقت كانت بريطانيا تحاول الدفاع عنه في وجه هجمات فرنسا وروسيا. وقد كان من أهم أسباب "اتفاق سايكس ـــــ بيكو" التي اتضحت فيما بعد إبعاد روسيا عن الشرق الأوسط، خاصة بعد قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧، ووضع حد نهائي للصراع الروسي ـــــ البريطاني الذي بلغ ذروته في القرن التاســـع عـــشر، وعُرف باسم "اللعبة الكبرى". ومع بدايات القرن العشرين، وسقوط روسيا القيـــصرية، وقيام ثورة شيوعية غير معروفة الأهداف لأغلب الأوروبيين وغامضة لمعظـــم العـــالم، أرادت بريطانيا وفرنسا احتكار هذه المنطقة باستبعاد روسيا كليا عنها، لـــذا، قـــررت بريطانيا وفرنسا احتلال الجزء العربي من الشرق الأوسط لصد الثورة البلشفية عن هـــذه المنطقة. وقد كان قيام الثورة البلشفية هو ما كشف عن "اتفاق سايكس ـــــ بيكـــو" الذي كان سريا، وشكل هذا الكشف الروسي أول فجيعة لحلفاء بريطانيا وفرنسا مـــن العرب في التاريخ المعاصر، ولما كان كل شيء ممكنا في عصر الـــسير مـــارك والمـــسيو

فرنسوا، العصر الذي اصطنعت فيه اوروبا كيانـــات المنطقـــة، كـــان لـــدى اوروبـــا الاستعمارية، بما في ذلك روسيا، وهم في انها تستطيع ان تغير العالم العربي "كذلك آسيا الاسلامية" عن طريق اصطناع كيانات من الممكن ان تتحول مع الـــزمن الى بلـــدان او اوطان أو أمم. ولكن تلك الكيانات كانت تفتقر لشرعية سياسية او وطنية في الداخل، فلما طرحت روسيا البلشفية، الشيوعية كنظام سياسي لهذه الكيانات، سارع البريطانيون الى طرح القومية العربية كبديل ايديولوجي لها، ولو عن طريق الولاء للأسر الحاكمة على الأقل، فبين عامي ١٩١٤ و١٩٢٢م لم يكن النفط عنصرا هاما ولا اساســا في حيـــاة الشرق الأوسط، ولا فاعلا في السياسة الأوروبية، و لم تكن أميركا أصلا موجودة سياسيا في المنطقة لذلك لم تدخل الثروة النفطية كثيرا في حسابات خرائط الدول لحظة اعـــداد المساطر وبري الأقلام. وجاءت فرنسا لتعلق انتدابها على سوريا ولبنان، فنال الفرنسيون حصة أقل قليلا مما اتفق عليه، وسمح للروس بالاحتفاظ فقط بما كـــان لهـــم في العهـــد القيصري، وان يشاركوا في اقتسام حكم آسيا الإسلامية مع بريطانيا "ايران وأفغانستان مثالا"، اما بريطانيا فقد فازت في التسوية حسب مخططات "سايكس" بنصيب الأســـد، وحكمت البلدان العربية المستقلة اسميا، لكن ذات الأنظمة الملكية، حكما غير مباشـــر، بصفتها الدولة الحامية المنتدبة ، وطرحت نفسها داعية للقومية العربية وراعية للصهيونية في آن معا، وكانت بريطانيا تعتبر روسيا في المنطقة خطرا وفرنسا مصيبة. وبذلك وصلنا الى عام الشؤم ١٩٢٢ الذي كان عام التحولات التاريخية والتسوية الشاملة في الـــشرق الأوسط، والذي أقرت ولادة كياناته في القرن العشرين، وكانت هذه الولادات في بعض منها عسيرة، إلا انها في نهاية المطاف حددت ملامح ومعالم المولود الجديد الـــذي ظـــل ضمن نطاق الأسرة التي فُرضت عليه و لم يغادرها، وان تشاجر معها كثيرا طـــوال ٧٢ سنة. وبانهيار النظام القديم في المنطقة، ومعه بالدرجة الأولى الوجود البريطـــاني ـــــــ الفرنسي، على امتداد حدود العالم العربي الجديد تسرب احساس بأن هذه التسوية غـــير مقنعة وغير دائمة، ولا أحد يُدافع عنها أو يريدها، لكنها عاشت الى اليوم ثلاثة أربـــاع

القرن. ويعتــقـــد بعض مــــؤرخي المنطــقــــة ان التــــاريخ يُعيد نفسه كل مائة سنة او نحوها، إذ أنه منذ عام الشؤم ذاك، والى يومنا هذا، ونحن في العالم العــربي نعيش هاجس ما اتفق عليه السير مارك والمسيو فرنسوا، حتى أصبحت لتلك الكيانـــات قدسية لدينا ولكن كل الذي فعله السيــــدان المحتــرمان انهما رسما خطوطـــا علـــى خريطة من دون الأخذ في الاعتبار الحقائق التاريخية ولا الجـغـــرافيا الـــسياسيــــة وكانت تلك الخريــطـــة تقبل التعديل في حـــدودها وخطــوطــهـــا حسب مقايضة العـــرض والطلـــب بـــيـــن الدول الاستعمارية الكبرى وكانت جثة السلطان العثماني لم تُدفن بعد، و لم تُرسم معالم حدود ورثته من فتيان الأتراك العثمانيين عندما صار لهذه الأقطار العربية دساتير ومجالس وحكام وأعلام وتمثيل، ومع مرور الزمن، اكتسبت هذه الكيانات القدسية عندما ظنت أنها أصبحت أزلية سرمدية. ونامت هذه الكيانات أكثر من ثمانية أجيال على حرير، وهي مطمئنة بأنه لا يمكن تغييرها او اعادة النظر بحدودها. ظنا منها ان التاريخ قد ينسى، بمرور الزمن، مَنْ أنشأها ولماذا وكيف؟. وهذا الـــشعور بالديمومة، لا يشمل ورثة سايكس ـــــ بيكو من دول المشرق وحسب، بقدر ما يشمل ايضا ورثة الانسحاب البريطاني من شرق السويس بعد عام ١٩٦٧، من دول الخلـــيج العربي، ومع الفارق في الظروف التاريخية بين المشرق والخليج، الـــتي أدت الى ظهـــور كيانات كل منهما، إلا ان القاسم المشترك الدائم، هو ان هناك خريطة جديدة رسمـــت على الأرض. وقد أعادت أحداث العراق منذ الحرب العراقية ـــــ الإيرانيـــة في عـــام ١٩٨٩، ومن بعدها "عاصفة الصحراء" في عام ١٩٩١، والحـــرب الأميركيـــة علـــى الارهاب منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١، الى الأذهان هاجس إعادة رسم الخريطـــة العربيـــة الجديدة، مشرقا ومغربا وخليجيا، وهذا الهاجس الذي لم يكن بعيدا عن تفكير صـــانعي القرار الدولي، بعيد إعلان الرئيس الأميركي السابق جورج بوش تأسيس النظام العـــالمي الجديد، بقطبه الأميركي الأوحد، وهاجس رسم خرائط جديدة للشرق الأوسط، ما زال احتمالا و لم يصبح امكانية!

# العمى الأخلاقي والفكري في الولايات المتحدة

هناك مثل عربي يقول بأن صديقك هو من صدَقك لا من صدّقك. وقـــد يُدرك الأميركيون بعد سنوات أن الملك حسين عبّر عن صداقته عندما أبلغ الولايـــات المتحدة أن المملكة"... اختارت بأن لا تعتبر نفسها القوة الوحيدة في الشرق الأوســـط التي تستطيع مساعدتنا جميعاً على التوصل إلى سلام عادل ودائم."

والعجيب أن إدارة ريغن وكثرة من أهل البلاد تلقّوا بيان الملك حسين بدهشة وشعور بالصدمة. ومما يدل على السذاجة ويبعث على الأسى هو أن تعتقد أمّة عظيمـــة كأمّتنا أن باستطاعتها اتّباع دبلوماسية جين كيرباترك، والبرنامج التشريعي لدانيال باترك موينهان، والسياسات الأمنية لريتشارد بيرل، وأن تنصّب نفسها في الوقت ذاته "وسيطاً نزيهاً" للسلام في الشرق الأوسط.

لكن جذور الفشل الأميركي الأخير المحرج في المنطقة لا يُبحث عنـــها في إدارة ريغن وحده، ولا حتى في سياسات الرؤساء السابقين، فأنتم بوصفكم أميركيين عربـــاً تعرفون أن المشكلة أعمق من ذلك. فهي تكمن في التحامل والجهل اللذين يميّزان نظـــرة الأميركي العادي إلى الشرق الأوسط والنزاع القائم فيه منذ أمد طويل.

فقبل سنة ونصف تقريباً جلست في بيتي بفيرمونت لأبدأ بكتابة الفصل الأول من كتاب "الانحياز" الذي يدور حول حرب عام ١٩٤٨-١٩٤٩ في الشرق الأوسط.

وكنت قد فوجئت بالعثور في مركز الوثائق الرسمية على مواد عن قدرة وعدد القـــوات العسكرية الإسرائيلية التي شاركت في تلك الحرب. ودفعني ذلك إلى إلقاء نظرة علـــى الصورة الشعبية التي رُوّجت في أميركا "لمعجزة النصر التي حقّقتها إسرائيل الصغيرة".

وعندما راجعت قصة "الشتات" الشعبية التي كتبها ليون أورس تبيّن لي أن بحثي حقّق ما يُعرف بلغة الكومبيوتر "بالضربة الموفّقة".

يقول أورس في معرض وصفه لجيش الهاغاناه الذي وصفه "بجيش من الـــورق" بأنه كان يتألف من ٥٥٠٠٠ محارب وأنه كان يواجه خمسة جيوش عربية قوية تتـــألف من مليونين ونصف المليون من الجنود، أي أن العرب كانوا يتفوقون بنسبة ٤٠ إلى واحد في العدد، وبنسبة ١٠٠٠ إلى واحد في الأعتدة، ونسبة ٥٠٠٠ إلى واحـــد في مـــساحة الأرض.

وحسن الحظ أنني كنت قد حصلت من مخابرات الجيش الأميركـــي والهيئـــة المشتركة لرؤساء الأركان على وثائق مدعومة بأدلة من القيادة البريطانية العليا تقول بأن الإسرائيليين كانوا في الحقيقة يتفوّقون في العدد على القوى العربية بنسبة ٢,٥ أو ٣ إلى واحد. وعليه سارعت إلى اقتباس ما أورده أورس في كتابه.

على أن ما راعني في كتابه "الشتات" وأنا أقلب صـــفحاته هـــي العنـــصرية المفضوحة التي تصبغ كل فقرة منه. فالعرب على اختلاف فئاتهم في نظهـــره قـــذرون، كسالى، جبناء وقساة، واليهود من أي فضة كانوا شرفاء، أقوياء، شـــجعاناً ولطفـــاء. واكتشفت بأن "الكتاب" ليس إلاّ قطعة من البذاءة العنصرية. وهو- باختصار- ككتاب الجنس الذي يخلو من أي قيمة اجتماعية.

وعجبت عندئذ كيف أمكن نشر مثل ذلك الكتاب حــتى في أميركــا ذاتهــا وقدّرت بشيء من الثقة أن عمر الكتاب يبلغ حوالي خمسة وعشرين عاماً وأنه كُتب قبل نضال الستينات من أجل الحقوق المدنية، وقبل أن يشحذ اهتمامُنا بحقوق الإنــسان في السبعينات حساسياتنا القومية تجاه العنصرية. وقلت عندئذ في نفسي إنــه لا يمكــن أن يُكتب مثله في الثمانينات.

هذا ما قدّرته. لكني فوجئتُ بأنه كُتب مثله. فقبل حوالي شهر رأت دار النشر الأميركية "دوبلدي" أن تنشر للمؤلف نفسه- أي أورس — قصة أخرى عــن الــشرق الأوسط بعنوان "الحج". وجاءت هذه القصة أكثر عنــصرية مــن الكتــاب الــسابق "الشتات". ففي إحدى المواقف يتفقّد بطل القصة جدعون آش الخراب في قريــة ديــر ياسين العربية مع كولونيل بريطاني غاضب اسمه برومبتون. ثم ينظر إلى الكولونيل قائلاً:

"يؤلمني أننا اضطررنا إلى القيام بمثل هذه الأعمال من أجل البقاء. وأنــا أغفــر للعرب قيامهم بقتل أطفالنا. لكن ما لا أغفره لهم هو أنهم اضطرونا إلى قتل أطفالهم".

وفيما بعد يقول جدعون أيضاً للكولونيل:

"أليس من الغريب أن نجد أنفسنا — نحن اليهود — مرة أخرى ملزمين بالقيــام بعمل قذر لا يريده الآخرون؟ إنك أنت وجميع أصدقائك الخبثاء في وزارات الخارجيــة تعلمون في قرارة نفوسكم مبلغ القسوة والشر اللذين يصدران عن العــالم الإســلامي. لكنكم لا تجرؤون على إظهار حقيقة المسلمين ولا تقولون لشعوبكم: هذا هو الوضــع، وعلينا أن نتعايش معه. وتفضّلون أن تتركوا لليهود أن يقوموا بذلك. فمرة أخرى نجــد

أنفسنا وحدنا وراء الاستحكامات نتحمّل تقريع المستسلمين القانعين ممّن يُعرفون بحلفائنا في الديموقراطيات الغربية. إن المسلمين سيقلبون العالم رأساً على عقب قبل نهايـــة هـــذا القرن، ومن الأفضل لكم أن تجدوا في أنفسكم الشجاعة الكافية لمجابهتـــه. إن الإنـــسان يشعر بالوحشة هنا يا برومبتون".

وليس في هذا الهراء الحقير سوى نقطة واحدة تلفت النظر. ففي صفحة ٢٠٢ من القصة يقوم قائد إسرائيلي بإبلاغ بن غوريون أنه لن يكون لدى الهاغانـــاه ســـوى ٣٠,٠٠٠ جندي لخوض الحرب. وكان عددهم في كتاب الشتات ٥٥٠٠٠. وعليـــه يمكن للمرء أن يفترض بأنهم سوف يختفون بالكلية في كتاب أورس القادم، وأن ما حلّ بالفلسطينيين من عذاب وموت وتهجير سيكون مجرّد حلم مزعج.

لقد سلّطت الضوء على العنصرية والأخطاء في هذين الكتابين لأنهما يباعان في غالبية مخازن الكتب في أميركا، ولأن الدار التي نشرتهما من أكبر دور النشر الأميركية. وهذا يعني أن أميركا تعاني من عمى أخلاقي.

وأشد إزعاجاً من هذا العمى الفكري الذي يميّز ما يُكتب ويذاع في أميركا عن الأحداث التاريخية والجارية في الشرق الأوسط. وفيما يلي بعض الأمثلة.

١- في مايو ١٩٨٣ أحسنت جريدة "لوس أنجلوس تايمز" صنعاً بنـــشرها مقالاً عن دفعة جديدة من الوثائق أفرج عنها مركز الوثائق الإسرائيلي. وتكشف هـــذه الوثائق أن الرئيس السوري حسني الزعيم عرض في عام ١٩٤٩ أن يجتمع ببن غوريـــون للبدء في محادثات سلام لإنهاء حالة الحرب بين سوريا وإسرائيل. ولإغراء الإســـرائيليين بقبول العرض وعد الزعيم مسبقاً بقبول توطين ٣٠٠,٠٠٠ لاجـــئ فلـــسطيني – أي

نصف جميع اللاجئين من جرّاء حرب ١٩٤٨ – في سوريا. على أن بن غوريون رفض العرض غير آبه لاعتراض موشي شاريت وزير الخارجية وأبا إيبان مندوب إســـرائيل في الأمم المتحدة .

٢- في أغسطس عام ١٩٨٣ ورد في مقال كتبه توماس دايـــن، المـــدير التنفيذي للجنة الأميركية الإسرائيلية للشؤون العامة. لمجلة "الدفاع والدبلوماسية" ما يلي :

"إن القوات البحرية والجوية الإسرائيلية على جانب من القوة يمكنها من تحدي القوات البحرية السوفييتية في شرق البحر الأبيض المتوسط مما يجعلها عاملاً له أهمية كبيرة في تقييم ميزان القوى بين الشرق والغرب في تلك المنطقة".

وفي مكان لاحق من المقال ذاته مضى داين يقول :

"إن الهدف الرئيسي من مساعدة إسرائيل هو ضمان أمن وبقاء حليف رئيسي تشكّل قوّته دعامة في نظام الأمن الدولي الأوسع. أما الهدف النـــهائي مـــن مـــساعدة إسرائيل فهو في أساسه شبيه بالسبب الذي من أجله نُبقي قوّاتنا في كوريـــا وأوروبـــا، ونحافظ على وجودنا البحري في غرب المحيط الهادئ، وهو تعزيز الأمن الدولي بـــردع العدوان، وضمان الدفاع عن الأصدقاء والحلفاء. ولتقرير مـــا إذا كانـــت مـــساعداتنا لإسرائيل تتناسب مع مصالح الولايات المتحدة، ينبغي اعتماد المعيار التالي وهو مقارنـــة التكاليف والفوائد بالإنفاقات الكبرى على الأمن الدولي".

وإذا افترضنا — وهو في اعتقادي ما يفعله كل من يمشي في الـــشارع ويمـــضغ العلكة — أن توماس داين وإيباك (اللجنة الأميركية الإسرائيلية للشؤون العامة) يتكلّمان نيابة عن الحكومة الإسرائيلية، فإن كلماته تكتسب أهمية خاصة. إذ يطالب الكـــونجرس الأميركي الآن بأن تقدّم مساعدات لإسرائيل لا لتمكينها من الدفاع عن نفسها وإنمـــا لقهر الاتحاد السوفييتي في الشرق الأوسط في أي مواجهة عالمية بين الـــدول الكـــبرى. وعليه فالمطلوب هو إطلاق العنان لإسرائيل بلا أية قيود. ولا أعرف جهازاً من أجهـــزة الإعلام الكبرى في أميركا اهتم بكلمات داين أو حتى طلب منه شرحها.

٣- وأخيراً وقبل ثلاثة أيام نشرت "الواشنطن بوست" في زاوية التحليـــل الإخباري مقالاً بعنوان مخفف وهو "فشل الشياسة الأميركية في بيروت يخلـــق مـــشكلة لقدرة أميركا على الاحتواء" وتمثّل الفقرات التالية خلاصة ما جاء فيه.

"إن فشل الولايات المتحدة في فرض حل ينهي الانقسامات الداخلية في لبنـــان ويضع حداً للتدخّل السوري جعل الدول العربية تفقد ثقتها في حزم الولايات المتحـــدة ورغبتها في التعاون الوثيق معها في الدفاع عن المنطقة وفي التوصل إلى حلـــول للـــنزاع العربي الإسرائيلي.

"وقد اتضح هذا خلال زيارة للشرق الأوسط قام بها مؤخراً ريتشارد مـــورفي مساعد وزير الخارجية للشؤون الشرق أوسطية وذلك في محاولة لإنشاء تعاون عسكري أوثق مع الدول العربية المعتدلة في الخليج يهدف إلى إقامة حاجز في وجه المخاطر المحتملة للحرب العراقية الإيرانية.

***

# الفهارس

***